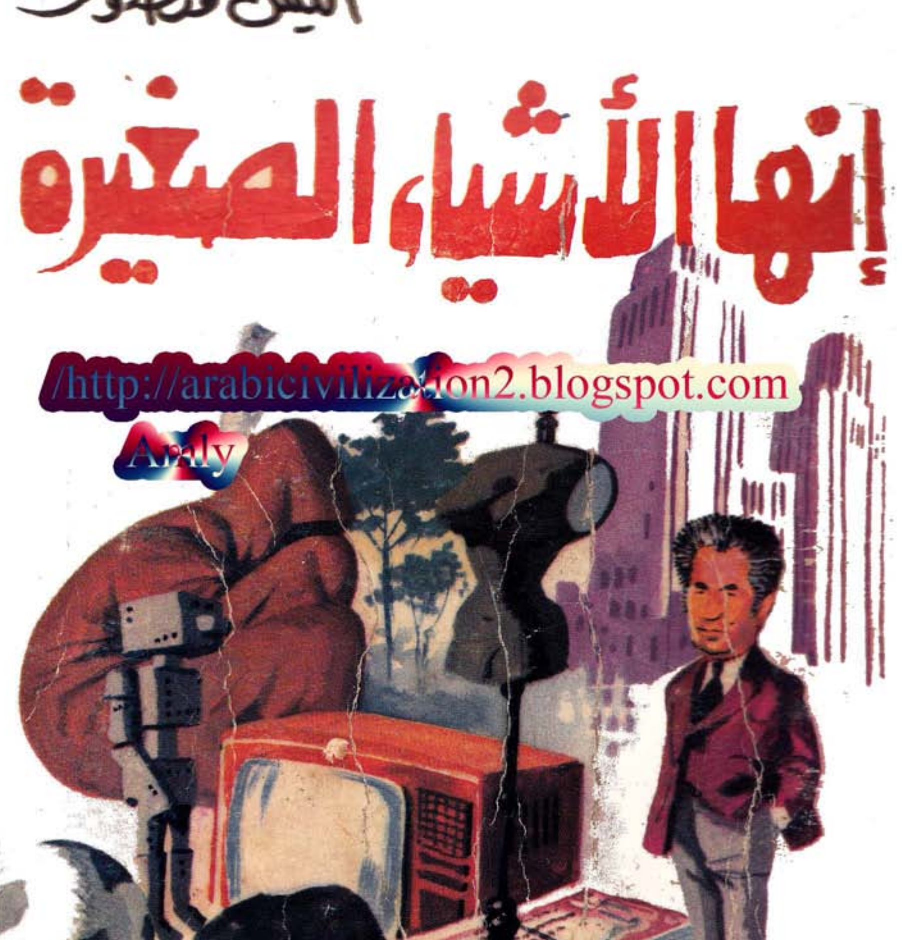
أنيس منصور

إنها الأشياء الصغيرة



دار الشروق

..إنها الأشياء الصغيرة !

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

أنيس منصور

.. إنها الأشياء الصغيرة !

دار الشروق





إنهم يموتون على راحتهم !

سألت صديقى : وكيف كشف عليك الدكتور ؟

فقال : أبدًا وحياتك .. قال لى اجلس . مدد رجليك .. افتح فمك .. طلع لسانك ثم قال لى : إذ كنت فى حاجة إلى إجازة . خذ لك سبعة أيام .

وسألته : وبعد ذلك ..

ونهض صديقى واتجه إلى الباب ليخرج .

واستوقفته : ما هذا .

قال : لا شىء .. إننى أفعل كما فعل الطبيب .. لقد تركنى وخرج فلا أنا أكملت كلامى ولا أعرف لماذا جئت . وإذا كانت الراحة هى العلاج فأنا أعرف ذلك قبل أن يعرف .. ولكنْ أنا عندى الكبد ودكاترة يقولون المرارة وآخرون يقولون الكلاوى وأنا دائخ حقيقة وأنا أتحدث إليك ودائخ دون كلام .

وسألته : ولكن لماذا هذا الطبيب بالذات ؟

قال : إنه طبيب المؤسسة . ولابد أن أعرض نفسى عليه ..

وسألته وهل هو طبيب باطنى أو طبيب غدد ؟ .

فأجاب : طبيب على كل حال . ولابد أنه يعرف مبادىء وظائف أعضاء جسم الإنسان فكل الأطباء يعرفون هذه الأشياء .

قلت : إن الميكانيكى يعرف كيف يقود أى سيارة ولكنه ليس مهندس سيارات .. ثم إن الطب بحر واسع وهناك مئات الفروع .. هل الذى تقوله معقول ؟

- طبعًا معقول
- والعمل
- لا شىء .. لابد من الراحة ..
- وطبيب المؤسسة ماهو تخصصه ؟
- أظن طبيب أنف وأذن وحنجرة
- الله أكبر .. وهو الذى يشخص لك أمراض غددك .
- نعم
- والأطباء يأخذون برأيه ؟ .
- ضرورى .
- الكلام معك غير ضرورى
- عندك حل آخر .
- لا .. لا حل طبعًا .

إذن

خذ لك إجازة وأنصحك بأن تأكل الطعام المسلوق وأن تتفادى الإصابة بالإمساك والإسهال ولا تأكل البيض ولا تشرب اللبن وإياك والطعام الذى وضعت

فيه السمنة ... وابعد وابعد وابعد عن الهموم – إذا استطعت .

– وهل أنت طبيب باطنى ؟

وهل هو طبيب باطنى ؟ .

– إنه على الأقل صاحب تجربة .

– وعندى روشتات لا أول لها ولا آخر من أطباء أكبر وأعظم وسوف أقدمها لك وعليك أن تختار منها ما يعجبك .

– وهذا اسمه طب ؟

– ليس طبًّا .. ولكنى أقرأ لك الكف وأضرب لك الودع وعليك أن تدفع لى جنيهين أيضًا .

– هذا نصب

– لست الوحيد فى هذا البلد .

إذا كان الطب بهذا الشكل فأنا أستطيع بكل تواضع – أن أكون طبيبا وناجحًا أيضًا . وليس هذا استخفافًا بالأطباء ، ولا بالمرض .. ولكن هذه هى الحقيقة .

مثلا : يدخل المريض ويده على بطنه . ويجلس أمام الدكتور .. هه ؟: هذه الكلمة التى تصدر من الطبيب معناها : عندك إيه ؟ ويتصور المريض طبعًا أن الطبيب يستطيع أن يعرف كل شىء بمجرد النظر إلى لسان وعين المريض . وبمجرد أن يدق على بطنه فيجدها كالطبلة .. ثم يضغط على منتصف البطن من أعلى .. أى على المعدة .. ثم على الجانب الأيسر – أى المصران الغليظ .. ثم على الجانب الأيمن أى الكبد .. وليس من الضرورى أن يضع الطبيب أذنه على بطن المريض .. ويفتح فمه .. وينظر إلى لسانه .. وشفتيه .. وإلى عينيه . وأحيانًا إلى لون أظافره وأظن هذا يكفى . فليس من المعقول أن يأخذ المريض من وقت الطبيب أكثر من

هذا . ثم إنه ليس المريض الوحيد فى العيادة أو المستشفى أو فى القاهرة .. ثم إنه إذا لم يجد الدواء فليس هو الدائخ الوحيد بين صيدليات القاهرة والجيزة وامبابة .. وإذا وجد الدواء ولم يسترح فإن الطبيب ليس إلها . إنه رجل مجتهد .. هو يحاول والباقى على الله . ثم ان أغلب المرضى لا يعرفون بالضبط ما الذى يوجعهم ولا متى وكيف ولماذا وأين يكون الألم ؟ فهل يستطيع الطبيب فى دقيقة أو دقيقتين أن يشخص مرض أى إنسان؟ هو نفسه لا يعرف ما الذى يوجعه ، وإذا عرف فإنه يخطىء . أو يبالغ .

وإذا مات المريض ، فإن الأعمار بيد الله .. ووفاة مريض لا تهز شعرة فى رأس طبيب ، فكم رأى من المرضى والموتى ، وكم سيرى من القتلى إن شاء الله فيما بعد وعلى ذلك فمهما فعل الطبيب ، فهو على حق .

ومهما أصيب المريض ، فالمريض غلطان . لماذا يمرض ؟ لماذا لا يحرص على صحته ؟ لماذا لا يقتنع أنه لا يوجد دواء ولا أطباء ولا شفاء ؟ .. لماذا لا يمتنع عن الطعام ؟ ولماذا لا يريح نفسه ؟ لماذا لا يلزم بيته ولا داعى لأن يعمل وأن يتعب وأن يكبر فى السن وأن يمرض . لماذا ولد ؟ .

إن الحل الأكيد لكل الأمراض هو أن يموت الانسان أو لا يولد مادام الطب هو أن يشخص الطبيب مرضاه ، غيبيا ، وأن يعالجهم . على العميانى وأن يتركهم يموتون على راحتهم .. □

على رءوس الناس !

عندى موضوع سخيف يستحق جائزة نوبل لكل من يجد له حلا علميًّا أو اجتماعيًّا أو أخلاقيًّا . هذا الموضوع هو نظافة القاهرة – طبعًا والمدن الأخرى .

ولا شيء لم يقله أحد فى هذا الموضوع . ولا يوجد قلم لم ينشف ريقه وهو يكتب عن الشوارع والبيوت والورق الذى يتساقط والزبالة التى تتكوم والطيور التى يرونها فوق الأسطح وتحت السلم ، وفى الشقق . كل ذلك قد قيل فى الصحف وفى الميكروفونات . وكما ظهر الكلام اختفى ، وكما انطلقت الأصوات تلاشى الصدى . والنتجة : صفر لكل المتكلمين وعشرة على عشرة لكل أكوام الزبالة فى كل مكان ..

مثلا : إذا كان صاحب السيارة الكبيرة ، أو السيارة فقط يفتح النافذة بسرعة ويلقى بالسيجارة على الأرض ، فما معنى ذلك ؟ معناه أن صاحب السيارة أو سائقها يجد أن إلقاء السيجارة فى الشارع أسهل من إطفائها فى المكان المخصص لها ..

أو وضعها تحت قدميه فى داخل السيارة . وكثيرًا ما سقطت هذه السيجارة على رأس أحد .. أو على أحد . وكثيرًا مااضطر إلى أن يعتذر ونادرًا ما يفعل ذلك أحد . وإذا اعتذر فلكى ينتهز هذه الفرصة ليبدو مهذبا أو فاهمًا للأصول ، مع أنه قذر ومهمل ومستهتر وكذاب .. – وليست هذه شتائم ، وإنما هى صفات حقيقية لأى انسان يفعل ذلك . وإذا كان صاحب السيارة أو راكبها يفعل ذلك ، مع إمكانية القدرة على إطفاء السيجارة فى مكان ما من سيارته ، فماذا تقول للماشى على رجليه وغير قادر على أن يبتلع بقايا السجائر أو ليس فى الإمكان إطفاؤها فى كفه أو جيبه .

وهذا فقط بند السجائر . وهناك بنود أخرى تبدأ من قشر البطيخ إلى ريش الدجاج وقشر السمك وطشت الغسيل ..

أشك أن أحدًا يستطيع أن يفوز بجائزة نوبل إذا أراد أن يؤلف بحثًا عن نظافة القاهرة ، دون أن يمزق هذا البحث ويلقى به من النافذة على رءوس الناس . □

هكذا تكون الراحة !

أحدث كتاب فى اليوجا اسمه (حركات جسمية لراحتك عقليًّا وجسميًّا) للعالم الألمانى أرتو هوفمان . فإذا الكتاب يقول لك : ضع أمامك شمعة مضيئة وركز نظرك فيها . واستمر فى عملية التركيز حتى تجد أمامك شلالا من النور .. ثم من النار . ثم ظلامًا تاما .. فإذا وصلت إلى مرحلة الظلام التام هذه فقد نجحت .

فما الذى فعلته لكى يوصف بأنه نجاح لك ؟ ليست الإجابة عن هذا السؤال سهلة وإن كان السؤال نفسه سهلا . ولكن على كل حال سوف أحاول .

المطلوب منك أن تجلس على الأرض يستحسن أن تكون عاريًا وأن تجلس مثل الكاتب المصرى القديم وأن تكون مشدود الظهر مرفوع الرأس . المهم أن تكون مشدودًا ، وأن تركز كل طاقتك العقلية فى النظر إلى شمعة مشتعلة ، لا تفكر فى أى شىء آخر ، ولا تفكر فعلا فى سخافة هذه الفكرة ولا فى الوقت الضائع أو الذى سوف يضيع وأنت تجلس هكذا عاريا بلا حركة لأنه لا داعى للتفكير فى أى شىء

آخر . ثم إن هذا الذى تفعله ليس سخيفًا ولن يكون سخيفًا .

والآن أنقل لك ما يقوله د . أرتو هوفمان أحد علماء (اليوجا) الكبار : ليس سهلا هذا الذى تفعله ويجب ألا تنظر إليه على أنه شىء سهل . ولا داعى لأن تفكر فما تفعل .

هل فهمت شيئًا مما يقوله هذا الخبير الألمانى ؟ .

أنا أقول لك المعنى الذى فهمته من أكثر من مائتى صفحة . المعنى : هو أن الإنسان فى حياته اليومية ضائع مبدد مشتت وفى حاجة إلى من يركزه ، هذا التركيز يجب أن يكون فى شىء صغير ليست له أية منفعة مطلقًا . وهذا التركيز غير النافع هو الذى يحقق الراحة لكل قواك الجسمية والعقلية بشرط أن تكرر ذلك كثيرًا . وبانتظام وبمجهود أول الأمر ثم بعد ذلك بلا أدنى مجهود .

ونحن سكان المدن نظن أن الراحة هى أن يسرح الإنسان ببصره فى الأفق — وليست هذه راحة إنها مرهقة جدًّا فى معظم الأحيان .

الراحة هى أن تنظر إلى عود كبريت عشر دقائق أو شمعة دون تفكير فى العود أو الشمعة أو حتى فى التركيز .

على كل حال جرب . □

المريض النموذجى !

لا مانع من أن أدعى العلم بالطب مادام بعض الأطباء يفعلون ذلك .. فقد لاحظت أننى أشكو من أصابع يدى .. فهى توجعنى وأصبح عاجزًا عن تحريكها أو أن أحمل شيئًا بيدى ويكون ذلك فى الليل وبعد النهوض من النوم مباشرة . ثم لا أشعر بذلك إما لأننى انشغلت عنها تمامًا أو لأننى غيرت المكان أو العمل أو أن درجة الحرارة قد اختلفت .

وهذا يحدث فى أوقات وفى مناسبات أعرفها جيدًا . فعند الانفعال الشديد : الغضب أو الحزن أو الإرهاق أشعر بأوجاع فى أصابعى . وفى أمعائى – المصران الغليظ بصفة خاصة – وأكبر دليل على أنها مسألة عصبية ، هذا المصران الغليظ الذى يصاب به أكثر الناس و ٨٠٪ من الذين يقومون بأعمال عقلية : الأدباء والفنانون والصحفيون والسياسيون الذين يجلسون على مقاعد سواء كانت هذه المقاعد فى سيارة أو طيارة أو فى مكتب .

ويكون العلاج البسيط هو : الراحة .

وليس أسهل من أن يقال لك : استرح .

وليس أصعب من أن تحقق هذه الرغبة ومن حقك طبعًا أن تتساءل : الراحة أين ؟ وكيف ؟ ومتى ؟

مثل هذه الأسئلة لا تريح ولكنها تضاعف متاعبك وأوجاع أصابعك وأمعائك وليس أسهل من أن تبتلع أقراص الأسبرين بشيء من الانتظام . فلا يزال الأسبرين هو العلاج الوحيد الممكن فى هذه الدنيا - إذا أضفت إليه العلاج الوحيد وغير الممكن فى هذه الحياة : الراحة .

الآن وقد عرفت أسباب أوجاع الأصابع وعرفت علاجها فأين تذهب ؟ هناك عشرات الإجابات من بينها ألا تذهب إلى أى مكان وإنما فقط أن تختار مكانًا بعيدًا عن مكان العمل وعن البيت تحت شجرة فى أى حقل أو بجوار أى مجرى مائى وتمدد رجليك وإذا استطعت أن تنام فأنت مريض نموذجى وفى نفس الوقت أحسن طبيب ، وإذا لم تفعل فأنت نموذجى أيضًا لأنك لا تحترم تجارب الآخرين الذين هم مرضى وليسوا أطباء ..

والله أعلم .. □

اتقوا الله فى مصر !

من السهل جدًّا إرضاء السائح . ومن السهل جدًّا إغضابه . فهو مسافر مستعجل وليس فى صدره متسع للبحث عن أعذار للبلاد التى يزورها لأن لديه إحساسًا بأنه جاء من آخر الدنيا إلى مصر وأنه فضلها على بلاد أخرى وأنه يستحق الشكر من مصر والمصريين لهذا السبب . ثم انه جاء إلى مصر ومعه (فلوس) وهذه الفلوس نحن محتاجون إليها .. وهو يعلم - بصور مبالغ فيها جدًّا - أننا فى حاجة إلى هذه الفلوس أى أننا فقراء ، وكذلك عنده إحساس بأنه جاء ينقذنا ، وهو شعور كريه ومؤلم لكل مصرى ؛ لأنه ليس صحيحًا .. فلا نحن فقراء إلى هذه الدرجة ولا هو غنى إلى هذه الدرجة التى يتصورها .

ثم إن السائح لن يلتقى بموظفى وزارة السياحة الذين يعرفون - أو يدرسون أو يسمعون أو يتوهمون - يلتقى بمواطنين عاديين لهم هموم ومشاكل وليس عندهم وقت ولا صبر للاحتفال بالسائح الذى جاء من آخر الدنيا لكى ينفق نصف أمواله

فى هيلتون وشيراتون وونتر بالاس ونيو كتراكت والباقى ينفقه فى خان الخليلى ، أما (الفكة) فإنه يلقى بها فى مطار القاهرة ، فهو بهذا الشكل لا ينفق على كل الشعب ولا يلتقى بكل الناس ولكن يكفيه جدًّا أن يعامله بعض الناس معاملة حسنة .. ويكفيه جدًّا أن يخدعه بائع واحد لكى يلعن مصر واليوم الذى استدرجه أحد إلى زيارتها .

ولذلك فالسائح زائر عنده استعداد هائل لظلم مصر وشعب مصر ، وإن كان لا يظلم تاريخ مصر . فالهرم وأبو الهول وأبو سنبل أقوى وأروع وأبقى من أن يخدش سمعتها إنسان أيًّا كانت الفلوس التى فى جيبه . فحادث واحد يكفى وشخص واحد يكفى لأن يتأثر السائح لنا أو ضدنا .

وقد صدر كتاب بعنوان « فلوبير فى مصر » . وفلوبير هو الأديب الفرنسى العظيم جوستاف فلوبير الذى زار مصر منذ أكثر من مائة عام ولقى ما أسعده فى قنا والفيوم ومن أجل بعض الرجال وسيدة واحدة تركية فى قنا عاد فلوبير بأروع وأبقى الذكريات عن مصر والشرق الأوسط .

ولا أحد يعرف من الذى سيلتقى به السائحون إذا جاءوا إلى مصر .. ولكن أسهل لنا جميعا لو أننا اتخذنا شعارا واضحًا هو : اتقوا الله فى مصر ايها المصريون – فى مصر التى نعرفها ومصر التى يجب أن يعرفها السائح وأن تبقى صورتها جميلة فى عينيه ساحرة فى أذنيه حلوة على شفتيه لعله يجىء مرة أخرى ويستدرج آخرين . فشخص واحد لا يستهان به إذا كان صديقًا أو عدوًّا وما أحوجنا إلى الأصدقاء . □

أحبوا .. حتى الموت !

العالم كله يتحدث عن وفاة بطل قصة أعمق وفاء عرفه القرن العشرون . مات دوق وندسور ولا يزال حيًّا فى قلب زوجته . وسوف يعيش بعد ذلك فى الأدب والفن والسياسة . وكثير من الشبان لا يعرفون قصة الرجل . فعندما قرر أن ينزل عن عرشه كان أكثر الشبان لم يولدوا . وعندما كان صدى الحرب العالمية الثانية بدأ يخبو ، ولم يبق إلا الشظايا والضحايا عاش أكثر الذين تجاوزوا الثلاثين فى الخوف من حرب ثالثة . أى فى حرب أوخوف من وقوع الحرب . وفى ظل الخوف أقبل الناس على الحياة خوفًا من الموت . فقط الحياة .. ولم يكن لدى أحد استعداد للتضحية من أجل أحد . فكل واحد يقول : يا الله يانفسى ..

وبين الحين والحين تظهر فى الصحف حوادث فردية لأناس أحبوا حتى الموت . أو قفزوا من العرش ليكونوا عند أقدام من يحبون .. عروش الملك أو المال .. وكان دوق وندسور أشهر هؤلاء . وقد روى قصته بنفسه سنة ١٩٥١ عندما انتشرت

شائعات كثيرة حول هذا التصرف الذى أحرج العرش والكنيسة معًا ..

وكتبت زوجته أيضًا قصتها . وترجمت أنا هذه المذكرات على مدى شهور فى سنة ١٩٥٦ . ثم اننى لم أنشر مذكرات أخرى كثيرة ترجمتها دون أن أضع عليها اسمى مثل : مذكرات « روميل ثعلب الصحراء » و « أربعة ضد روميل » و « المعبود الذى هوى » وقد نشرتها فى جريدة الأهرام سنة ١٩٥١ .

ولم أعد نشر مذكرات « تيتو » ومذكرات « أتلى » ومذكرات « أسكورتسنى » الذى خطف موسولينى فى طائرة شراعية ، وكلها نشرت فى مجلة « آخر ساعة » سنة ١٩٥٢ .

بل إننى ظللت أكتب القصص القصيرة يوميًّا فى جريدة الأهرام سنة ١٩٥١ مؤلفة ومترجمة دون أن يعرف أحد من القراء ذلك . ولم أنشر منها شيئًا .

وربما كان السبب الحقيقى وراء ذلك هو أننى سوف أضطر إلى قراءتها من جديد وتعديلها وتصحيحها .. أو إعادة كتابتها – وهذا أقسى ما أواجهه كل يوم . وفى كل مرة يصدر لى كتاب .. فإننى اقرؤه مرة واثنتين وثلاثًا وأربعًا . وفى كل مرة أغيره وأبدله ..

إنه منتهى العذاب . تمامًا كما كانوا يعذبوننا ونحن صغار أن نكتب الجملة الواحدة مائة مرة .. والصينيون القدماء كانوا يقتلون خصومهم بوضع رءوسهم تحت حنفية الماء فيسقط الماء قطرة قطرة حتى الموت .. والذى يقتل ليس الماء ، ولكن صوته المتكرر فى الرأس ألوف المرات .. كأن صوت الماء يقول : مت .. مت .. مليون مرة .. وهى طريقة غير لذيذة فى الموت .. □

من أجل عذاب أقل !

لو كنت أعرف كيف أصنع تمثالا . وأضع هذا التمثال أمامى وأرجمه بالطوب كل يوم لاخترت تمثالا للشخصية الإغريقية القديمة .. تنتالوس .

بسبب ما تفنن آلهة الإغريق فى تعذيبه . وضعوه فى بحيرة من الماء العذب وسلطوا عليه أشعة الشمس تحرقه فإذا انحنى يبل ريقه من الماء انحسر الماء وهرب فى شقوق الأرض ، فإذا رفع رأسه إلى أعلى ارتفع الماء حتى شفتيه فإذا حاول أن يمد لسانه إلى الماء اختفى الماء تحت قدميه .. فإذا حاول أن يمد يده إلى شجرة فوقه هربت الثمار بعيداً عنه .. فإذا حاول أن يقعد خرجت له من بين الصخور ثعابين فاغرة أفواهها .. فإذا حاول أن يسند ظهره إلى الشجرة بعد أن يئس من الثمرة جاءت صخرة من أعلى الجبل تنحدر بسرعة فى اتجاهه ثم تقف فجأة قبل رأسه بشبر .

فإذا حاول أن يغمض عينيه سقط جفناه .. وأصبحت عيناه بلاجفنين .. أى

يجب أن يظل مفتوح العينين : فلا نوم ولا ليل ولا راحة ..

وإذا حاول أن يمسك بيديه عنقه لكى يقتل نفسه لم يجد أصابعه . وإذا حاول أن يتوقف عن التنفس لم يطاوعه أنفه ودخل الهواء سعيرًا إلى صدره .

هذا التمثال صورة لما يلاقيه الإنسان فى حياته ولكنه ينسى ذلك . أو يحاول أن ينسى ، ومن العقل أن ينسى أو يحاول ، كما أنه من الضرورى أن يطبق عينيه لعله لا يرى أو لعله ينام أو لعله يحلم بما هو أحسن وما هو أجمل .

وكل مايعمله أو يحلم به الإنسان فى حياته هو استبدال عذاب أكبر بعذاب أقل .. ووجع أعمق بوجع سطحى . ولكنه فى جميع الحالات هو هذا التمثال الذى فرض عليه العذاب من داخله أو من خارجه ولا أمل فى حل ، فهذه حياته وهذا قدره ولا اختيار له .

وفى استطاعتك أن تفكر فى شىء واحد يضايقك ثم قل لى بعد ذلك كيف تحاول التخلص منه وكيف تحاول نسيانه وبأى شىء أوكيف تحاول ابتلاع الظلط لكل الناس . ثم كيف تشترى كذب الناس لراحتك وأنت تعلم أنه كذب ثم كيف إنك أيضًا تكذب لأنه يريحك ، وإذا مرضت فما الذى يمنعك منه الطبيب وما الذى يعطيه لك وماالذى تدفعه له وما الذى تحرم نفسك منه ؟ .

هذا إذا كانت آلامك وأوجاعك بسيطة إلى هذه الدرجة ، أما إذا كانت آلامك مبرحة فالوسيلة الوحيدة لفهمها بصورة مجسمة ومقنعة ويائسة هى أن تنظر إلى تمثال تنتالوس .

وبعد ذلك لا أمل فى شىء . □

فلنغير أبسط الأشياء !

إن الأسباب السهلة التى نرددها ونحن نتحدث عن قذارة القاهرة أو الجيزة وبقية المدن الأخرى : أننا على حافة الصحراء وأن الهواء عندنا يهب ويدفع أمامه الرمال والتراب والورق والروائح وريش الدجاج إلى بيوتنا . وقيل أيضًا إن السبب المباشر هو وجود جبل المقطم لأن هذا الجبل ليس إلا كنزًا من التراب تدخره الرياح لخنق سكان القاهرة فى الوقت المناسب ، وهذا الوقت لا أحد يعرفه غير مصلحة الأرصاد والرياح نفسها ، ولذلك فقد فكر أصحاب هذا الرأى فى تشجير جبل المقطم . أو تحويله إلى منطقة سكنية ؛ وبذلك لا نعطى للرياح فرصة نفخ الهواء من فوق إلى تحت حيث يعيش ثمانية ملايين نسمة .

ومعنى ذلك أنه إذا توقف الهواء فإن القاهرة والمدن الأخرى سوف تكون فى نظافة المدن التى يهب عليها الهواء القادم من البحر – أى الهواء الذى اغتسل فى الأمواج .. وأصبح نظيفًا يكنس الشوارع .. أو أصبح مثل المكنسة الكهربية التى

تمتص التراب ولكنها لا تلقى به من جهة إلى جهة أخرى .

ولكن ماالرأى فى الذين بيوتهم قذرة وأيديهم وملابسهم وأكوابهم وأطباقهم ونفوسهم أيضًا . أى ماهو رأيك فى الذين أغلقوا الباب والنافذة فى وجه الرياح وجلسوا وراءها . فلا رمال الصحراء ولا تراب المقطم ولا هباب المصانع

إن المسألة إذن أعمق من أن نُحَمِّلَهَا الرياح والصحارى والهباب والذباب والاحتلال والاستعمار والرومان والإغريق والفرنسيين والإنجليز. وهى فى نفس الوقت ليست مستحيلة ، فليست القذارة عاهة ولا عيبا خلقيًّا ولا مرضًا لا علاج له . ولا هى مثل لون بشرتنا لا يمكن تغييره .

والتطور والحضارة ليس معناهما أن تتوافق مع البيئة ولكن أن تغيرها .. فإذا أردنا أن نؤكد لأنفسنا أو لغيرنا أننا متحضرون فى كل شىء فلنغير أبسط الأشياء — عادة أن يكون الإنسان قذرًا ولا يضايقه أن يجد الآخرين كذلك . □

الذين اختاروا الموت السريع !

أن تقرأ عن أحد نجوم السينما أنه يشرب حتى يسقط على الأرض .. أو أنه لا ينام إلا فى العاشرة صباحًا ولا يصحو إلا عند منتصف الليل – طبعًا هذا شأنه هو . وهذه حياته وهو حر فيها : أن ينفقها فى عشر سنوات أو فى عشرين سنة . .

أن تقرأ عن لاعب كرة معروف أنه لا يستطيع أن يجرى فى الملعب عشر دقائق دون أن تنطق الصفافير والزمامير من صدره ، فمعنى ذلك أنه لا يهتم بصحته . ولا هو يحترس فى الأكل والشرب والتدخين والسهر والتدريب . ومن المؤكد أن حياته كرة فى يده أو فى رجله ، إن شاء ألقى بها فى الشبكة أو ألقى بها تحت أقدام الجمهور .

ولكن الذى يجب أن يهمنا هو كيف يحرص الإنسان على حياته .. أو على الأصح كيف يحرص الإنسان على أن يكون فى المركز الذى يشغله والذى وصل إليه واستقر عليه بالتعب والاستمرار . نجم السينما الذى أصبح فتى أول قد تعب فى أن

يفوز بحب الناس . فكيف يبقى هكذا فترة طويلة . إن نجوم الشاشة الأوروبية والأمريكية حريصون جدًّا على حياتهم .. أو على لياقتهم الفنية . واللياقة الفنية : صحة وتدريب . ومادام الممثل قادرًا على أن يفى بالالتزامات الفنية ، وأن يظل مرغوبًا من الناس ، استطاع أن يكسب أكثر من المال ومن حب الناس وأن يعيش أطول ..

وما يقال عن الممثل يقال أيضًا عن اللاعب وعن المهندس والطبيب والمدرس وعن الكاتب والفنان .

وأحيانًا يتسع وقت الإنسان أو قلبه ليشعر بالإشفاق على فنان كان ممتازًا ، ثم أصبح شيئًا تافهًا أو ثانويًّا لأسباب معروفه : الإسراف فى الإزهاق المهلك لصحته وحيويته . والاستغراق فى بطولات النوادى الليلية التى لا بطولة فيها لأحد . فالليل أقوى من كل بطل ، والنساء أكثر من أن يقوى عليهن رجل واحد كل ليلة وكل العمر — وهى قاعدة مدمرة لنجوم الشاشة أو للنجوم عمومًا ولذلك فعندما يتلاشى نجوم الشاشة والملاعب فإن الناس لا يشعرون بالأسى لهم أو الأسف عليهم لأنهم هم الذين اختاروا الموت السريع .. □

الملعب مدرسة .. !

ليس موضوعًا خاصًا ولا قانونًا أن نتساءل : لماذا ضعفت المستويات الرياضية في مباريات مصر والمباريات الدولية .

كلنا يتساءل . وكل واحد منا يقنع بالإجابة التى تريحه . ولكن القضية عامة وقومية فليس بيننا واحد لا يشاهد مباريات فى لعبة من اللعب . وليس بيننا واحد لا يتعصب لأحد الأندية أو يستنكر التعصب فى الرياضة أو التعصب على وجه العموم .

سمعت فى برنامج « على الناصية » أحد المشتغلين بكرة السلة يقول : إن سبب هزيمة الفريق المصرى فى ميونيخ أن اللاعبين عندنا لا يزيدون على مترين بينما اللاعبون الأمريكان يزيدون عليهم حوالى العشرين سنتيمترًا .

وربما كان هذا أحد الأسباب ، ولكن ما الذى يقوله عن بقية الألعاب الأخرى . عن بقية كرات القدم والماء والطاولة والطائرة .

إنها اللياقة البدنية – هذه بديهة . وليست نظرية جديدة .

ولكن هناك شيئًا قبل هذه اللياقة البدنية ويجب أن يكون قبل أى شىء آخر ..
ويجب أن يتوافر عند الإداريين والمدربين والمدرسين والحكام والنقاد والمتفرجين .
هذا الشىء النادر عندنا هو : أن الرياضة علم وفن : أى أن لها قواعد وأصولا وهى فن : أى ممارسة متفانية فى تطبيق هذه الأصول .

ثم هى أولا وقبل أى شىء آخر : خلق .. أخلاق .. احترام جميع الأطراف لجميع الأطراف .. احترام اللاعب للمتفرج .. احترام المتفرج للحكم .. احترام الحكم للناقد . واحترام الناقد للجميع .

وهى خلق : لأن الغش ممنوع ، فالذى يغش فى اللعب يغش فى حياته والذى يسرق فى الملعب يسرق فى مدينة ميونيخ والذى لا يهمه إلا الهدف لا تهمه سمعة بلده .. والذى لا يعرف الشرف لا يعرف الوطنية .

فالملعب مدرسة والذى يؤمن بأن الملعب مدرسة هو الذى يؤمن بأن المدرسة ليست ملعبًا . لأنه يعرف أن للعب مكانًا وللدرس مكانًا . وأنه لا تفوق بغير فن ، ولا فن بغير علم ولا وطنية بغير إيمان ولا إيمان بغير خلق ..

ولهذه الأسباب معا تأخرنا .

وباحترام هذه العلاقات والمبادىء يمكننا أن نتقدم وأن نتفوق فى مصر وفى غيرها . □

تحريف اللسان العربى !

من واجب مجمع اللغة العربية أن يخاف على اللغة العربية .. وأن يقوّمها إذا استطاع وهو لا يستطيع أن يقوّم لغة الملايين إنما يقوّم لغة العشرات من الكتاب الذين يؤثرون فى الملايين .

ومن المؤكد أن لغتنا العربية ليست قويمة ومن الواجب أن تكون قويمة . فالذى تنشره الصحف مثلا : هو أسهل عبارة يمكن أن تخاطب بها ملايين الناس من كل المستويات التعليمية والعلمية ، وهى لغة سريعة ولذلك ففى أثناء السرعة تتساقط الأفعال وعلامات الترقيم والإعراب ، ولأننا حريصون على سرعة العبارة فإننا (ننحت) الألفاظ التى نراها مناسبة لنا فى الوقت الضيق الذى يتاح لنا أن نكتب أو نترجم فيه ، وكثير من المصطلحات العلمية والسياسية تجىء بها وكالات الأنباء ، ومن الضرورى أن تنقلها الصحف . وتنقلها بسرعة الآلة الكاتبة التى تكتب والتى تطبع والتى توزع والتى يركبها القارىء إلى بيته أو إلى عمله .

وإذا كانت الصحف تحرص على السرعة فإن كل شىء يحاول أن يقلدها أو

يجاريها أو يتفادى خطورتها ، فالذى يتفادى السيارة المسرعة يجب أن يكون التفادى نفسه أسرع من السيارة ، وهذا ما يفعله الصحفيون ويفعله الإذاعيون وأكثرهم صحفيون .

وإذا كانت بعض حيل الإضحاك الفنى أن يتلاعب الممثل بالألفاظ وأن ينقل ذلك إلى صغار الناس فإن التلاعب سوف يصبح أسلوبًا فى الكلام أو الاستخفاف باللغة وقواعدها ، سوف يصبح من القواعد الجديدة فى هدم اللغة وتحريف اللسان العربى .

إن مجمع اللغة العربية محق فى مخاوفه ولكنه مبالغ فى هذه المخاوف أيضًا فالناس ليسوا بهذه الدرجة من (السلبية) أو ليسوا عجينة يشكلها أراجوزات المسرح أو الإذاعة ولكن الناس يرون الأراجوز ويضحكون عليه .. ولكنهم لا يذهبون إلى أكثر من ذلك .

ويذهبون إلى المسارح ويتمزقون من الضحك على الممثلين .. ويكون هذا التمزق نوعًا من العلاج والتفريج ، وبعد ذلك يذهب كل شىء .. تذهب (الألعاب اللفظية) وتبقى ذكراها فقط .. ويخفى الناس وجوههم فى الصحف التى لا تحرص فى المقام الأول على سلامة العبارة – وهذا هو الخطر الذى يجب أن نتنبه إليه ، فالصحف مدرسة الشعوب وكتابها يقتدى بهم الناس .. وليس من العدل أن يلوى الكاتب ألسنة الملايين لأنه عاجز عن أن يكون قويمًا .

إن حرصنا على عروبتنا ولغتنا وقوميتنا يحتم علينا جميعًا أن نقرأ مبادىء النحو والصرف قبل أن ننشر بين الناس مبادىء هدم النحو والصرف والعروبة . □

سحر الغناء العربى !

كان الفيلسوف فولتير يتناول عشاءه فى هدوء عندما اقترب أحد الأدباء وكانت نظرات الفيلسوف تغريه بالاقتراب وتستدرجه إلى التساؤل . ووقع الأديب فى مصيدة الفيلسوف وسأله : ولكن ماهى السعادة ؟ وهز الفيلسوف كتفيه ثم نظر إلى الأرض كأن السؤال أثقل من أن تحمله كتفا الفيلسوف فتركه يسقط على الأرض ومضى يكمل طعامه وعاد الشاب يسأل وكان رد فولتير : هذه هى السعادة . أن تجد ما تأكله وأن تستطعم ما تمضغه وألا يضايقك أحد بالسؤال عن شىء

والذى فعله الفيلسوف فولتير فى حياته كلها مخالف تمامًا لما يقول . فهو لم يترك شيئًا لم يفكر فيه ولم يترك شيئًا فكر فيه ولم يزعج به أحدا وكان الإزعاج نورًا يطلقه على كل شىء ونورًا يبهر به كل عين لتنفتح اكثر وأوسع وأعمق . فالناس يرون السعادة فى الاستمتاع الهادىء دون أن يفكر أحد فى معنى سعادته أو أبعادها أو أسبابها أو لماذا هو اليوم سعيد أكثر من أى يوم آخر .. إلا هذا الرجل فولتير الذى

هز العقول والقلوب وشكك كل إنسان فيما يرى ويسمع ويتذوق وينتقد .

ولو تساءلنا : وماهى السعادة لمن يستمع إلى إحدى الأغنيات أو المقطوعات الموسيقية فكل الناس العاديين سوف يقولون بل هذه هى السعادة أن نعطى أنفسنا للموسيقى لتعيدها إلينا أكثر استرخاء وأكثر نشاطًا .

وكلنا نقف عند هذه الحدود الفطرية للتذوق السعيد دون ان نجهد رءوسنا فى البحث عن أسماء أو موازين أو مقاييس أو تواريخ أو شهادات ميلاد أو تصريحات بدفن شىء أو أحد من الناس .

ولكن شاعرنا وناقدنا الكبير كمال النجمى شاء أن يستمتع هو ويمتع الآخرين والذى يقرأ كتابه « سحر الغناء العربى » يحس أنه لم يرفع أذنه من الراديو وأنه ينام على الموسيقى ويتربع على الموشحات والطقاطيق والأغنيات ، ولكن الذى يعيد قراءة ماكتبه كمال النجمى فى كتبه الثلاثة الأخرى يجد أنه لم يرفع عينه من كتب التراث الغنائى القديم والحديث ، والذى يتأمل فى موازينه ومقاييسه يحس أنه واحد من أهل المهنة – موسيقى يترفق بالعازفين وملحن يحتضن المطربين وناقد يعاتب المؤرخين .

وكمال النجمى ، مع إعجابنا المشترك بأستاذنا الكبير العقاد فإنه يأخذ على العقاد أنه ظل أديبا عندما كتب وتذوق وأرّخ وانتقد الموسيقى ، وكان يستطيع أن يكون شيئًا آخر مادام يعزف على الكلمات ويبنى عبارات فوق عبارات ؟

إن كتاب كمال النجمى « سحر الغناء العربى » لدعوة سخية صادقة لأن تتذوق معه هذه الوليمة المتألقة المتجددة الشهية : الغناء العربى .

فالمؤلف البارع مرهف الحس ذواقة يعنى ما يقوله – وماأندر الذين يكتبون ويعنون شيئًا مما يقولون . □

حرب الأجيال !

صحيح

هل يفيدنا أن نبكى على أنفسنا ؟
هل ينفع أن نمسك خرائط العالم العربى ونحولها إلى أكف ونلطم بها على خدودنا ؟
هل نستمتع بتعذيب أنفسنا والتهوين من قدرنا ؟

هل يريحنا أن نقول : انتهى كل شىء وإن الحضارة العربية فسدت وكالثمرة الفاسدة يجب أن تسقط ؟

وهل نذهب فى شاعريتنا فنقول إن قطرة الماء إذا سقطت فإنها تصبح مصيدة لأشعة الشمس فنرى فيها كل ألوان الطيف – فما أروع السقوط ؟

هل مكتوب على العرب أن يكونوا أنواعًا مختلفة مشتتة من العرب .. كل شعب يعتبر نفسه عربيا من نوع خاص .. وبذلك تكون عندنا عشرات الشعوب العربية المتناثرة ؟

هل يحق لنا على سبيل الابتعاد عن التاريخ والاقتراب من الأدب أن نستعير

عبارة برناردشو عندما تحدث عن الأمريكان فقال : الأمريكان والإنجليز شعب واحد تفصل بينهما لغة واحدة ، فهل نحن حقًّا شعب واحد تفصل بيننا لغة واحدة ، هل حقيقة نحن واحد ؟

لا نهاية لهذه الأسئلة التى هى نوع من الضرب على الخد الأيمن والخد الأيسر والقفا ؟

ولكن يبقى لنا شىء واحد لانجد عيبًا فى النظر إليه بعمق .. أننا أمام أناس لا لغة واحدة لهم ، لا لون واحدا لهم ، لا أرض واحدة لهم . جاءوا من كل أرض وبكل لغة جاءوا لا يتحدثون معًا وجاءوا والابن لا يعرف لغة أبيه ولكن عندهم شىء واحد .. أنهم يهود .

وشىء واحد آخر : أنهم يجب أن يبقوا ولو مات كل الناس .

وشىء واحد آخر : أن العرب أعداء مؤقتون لهم .

وشىء واحد آخر : أن العالم كله هو العدو الباقى لهم .

بهذا الإصرار الغريب على البقاء ، بهذا الإيمان المتعصب المجنون الدموى فكروا ودبروا ونفذوا وصبروا وكان لهم أكثر مما يريدون .

ونحن أحسن حالا اليوم ، وبالأمس كانت لنا الأرض الواحدة واللغة الواحدة والهدف الواحد واتسعت تحتنا الأرض فتراخينا ولكن إذا لم يستطع هذا الجيل أن يفعل شيئًا فإن مهمة هذا الجيل على الأقل أن يضع هذه الأعباء على ضمير الأجيال القادمة : إن قضيتنا ليست ولن تكون فى جيل .. لا هزيمة جيل ولا انتصار جيل .. وإنما هى حرب الأجيال ومعركة الأجيال ولابد أن تكون قضيتنا لكل الأجيال هكذا : أن نعيش أو يقتلونا .

ولابد كما عاشوا ، أن نعيش أشرف وأفضل . □

عملاء .. مع الأسف العميق!

تجار الدموع ، ورهبان السلام الكاذبون فى مصر وفى العالم العربى ماالذى بقى عندهم ليقولوه الآن : وأمامهم خريطة لبنان ومن قبلها خريطة سوريا والأردن ومصر وسوف يجدون خرائط أخرى فى العالم العربى يتلاعب بها اليهود . ما الذى يقولونه الآن ؟

هل مايزال الرأى عندهم أننا يجب أن نكف عن الكراهية وأن نكفّ عن إثارة الناس .. وأن ندعو للسلام والمحبة وأن نضع أيدينا على أكتاف اليهود ونقول : مساكين .. معقدون مدمرون لأنهم دمروا ، حاقدون لأن أحدًا لم يحبهم ، يريدون تحطيم الفوارق التى تعذبوا منها ، يريدون إلغاء الطبقات كلها لأنهم سقطوا بين أنياب الطبقات .

هؤلاء الكذابون يقولون أيضًا : انظر إلى أديبهم كافكا . انظر إلى شاعرهم هينه . انظر إلى فرويد . انظر إلى فيلسوفهم ماركس .. إنها عينات عنيفة من البشر ولكن لماذا ؟ لأن الظلم وقع عليهم وكان لابد أن ينفجروا لأن الخوف حجزهم فى

حاراتهم ولابد أن ينطلقوا .

ما الذى يقوله الذين أرادوا أن يضعوا الشعوب العربية فى متاهات لا طول لها ولا عرض ويقولون فى هدوء العالم الكاذب – يجب أن نفرق بين اليهودى والصهيونى والإسرائيلى واليهودى الاشتراكى واليهودى الرأسمالى وبين الذى أمه يهودية والذى أبوه يهودى .. والذى يعطف على اليهود وهو ليس يهوديًّا والذى يكره اليهود مع أنه يهودى .. والشعب اليهودى فى إسرائيل والحكومة الإسرائيلية نفسها واليهود الشرقيين واليهود الغربيين والجيل الجديد الذى ولد فى المستعمرات والجيل القديم الذى بنى هذه المستعمرات .. بين اليهود الروس الذين أقاموا إسرائيل واليهود الأمريكان الذين سلحوها .

وكل هذه التفريقات لكى نضيع بين اليهود .. لكى نتوهم أن أحدًا منهم معنا وليس معهم ، وأن أحدًا منهم يعطى المال والمدفع والخطة للقضاء علينا ، وهو نفسه الذى يبكى على ماأصابنا .

كذابون تماسيح .. ليسوا معنا ولا منا ولكنهم عيون علينا وعملاء لهم مع الأسف العميق . □

نحن البشر على رقعة شطرنج !

في يوم من الأيام تصورت أننى أستطيع أن أكون لاعبًا ماهرًا فى الشطرنج . ويوم قلت لنفسى ذلك لم تكن معلوماتى فى الشطرنج ذات قيمة فقد كنت وقتها أستطيع أن أحرك بعض القطع على الرقعة ولا أستطيع أن أحسب مقدمًا ماسوف يفعله خصمى أو ماسوف أفعله ردًّا عليه .. ويومها كنت أقول لنفسى : الشطرنج لعبة اشتراكية لأنها تنتهى بالقضاء على الملك .. ولكن هذا القضاء لا يكون نهائيًّا لأنه قضاء بالضربة الفنية فقط . وبعد ذلك يبدأ اللعب ويكون الملك قد اتخذ موقعه بين الوزير والفيلة والخيول والقلاع والجنود .

وكما يحدث عادة فإننى ذهبت واشتريت عددًا من الكتب التى بها قواعد وحيل أعقد مباريات دولية مشهورة وتاريخية لأبطال الشطرنج مثل : الروسى اليخين والأسبانى لوبيت والكوبانى كابابلانكا .. وغيرهم من أعلام اللعبة .

وعرفت فيما عرفت أننى لا أمل فى أن أتقدم كثيرًا فى هذه اللعبة . لأنها محتاجة

إلى تركيز تام ومحتاجة الى صبر طويل . وهذا الصبر قد يكون طوله بالساعات أو بالأيام . ولاحظت أن عددًا كبيرًا من عباقرة الشطرنج قد ماتوا مجانين بل إن واحدًا منهم وهو الأسبانى لوبيت كان وهو على فراشه يقول : سوف يموت .. بعد أربع حركات .. ثلاث حركات .. حركة واحدة .

وكان هذا العبقرى يتخيل مباراة بينه وبين أحد الأبطال العالميين فى ذلك الوقت ولكنه هو الذى مات بعد حركة واحدة .

واكتفيت بالقراءة عن حياة أبطال الشطرنج وعن الغيبوبة والسرحان والذهول الذى يستغرقهم أثناء اللعب حتى إن واحدًا كان يحتاج إلى من يوقظه بالضرب أو بإشعال عود كبريت أمام عينيه .

ولا أدعى أننى وصلت فى حماستى واستغراقى إلى التضحية بالعقل والحياة من أجل هذه اللعبة ولكن خشيت على عقلى أن يضيع فأضيع أنا أيضًا .

واكتفيت بقراءة آخر أخبار الشطرنج . وفى الأيام الأخيرة تابعت أخبار البطل الروسى سباسكى والبطل الأمريكى تبشر وكلاهما أمه يهودية وسوف يلعبان على بطولة العالم فى أيسلانده والصحف تنشر أخبار حياتهما اليومية : ماذا يأكلان . ماذا يشربان ، كيف ينامان ، وكيف لاينامان أيضًا ؟.

وقد كتب الأديب الكبير أرثر كيستلر مقالا ممتعًا فى « الصنداى تيمس » الأخيرة عن هذه اللعبة التى هى بطولة واستشهاد فردى حزين .

ومن أجمل ما قاله أننا نحن البشر نتحرك على رقعة شطرنج دون أن نعرف الحكمة التى وراء حركاتنا .. إنما الذى يعرف الحكمة هو الذى حركنا وخلقنا ودفعنا نحو غاية يعرفها ولا نعرفها : الله . □

فتح لشهية المدرس !

كنت مدرسًا للفلسفة فى الجامعة لمدة سبع سنوات وأعرف جيدًا ما الذى يعانيه المدرس والأستاذ وكل أعضاء هيئة التدريس من عذاب مادى ومعنوى . مثلا : يستحيل أن يقوم المدرس بالوفاء ببعض التزاماته المادية إن كان ابنا أو زوجًا .. فالمرتب لا يكفى لسداد أى شىء : الأتوبيس أو الترام أو تناول الغداء فى الكلية أو السجائر .. وليس من المناسب طبعا ان أذكر الملابس التى يجب أن يرتديها المدرس أمام الطلبة الذين هم عادة أشيك منه ولم أذكر أيضًا إن كانت هناك أية التزامات مادية كأن يعاون والديه . أوكأن يعاون نفسه إن كان زوجا أو أبا .

ومن المفروض أن يكون هذا المدرس الجامعى قادرًا على متابعة الكتب الحديثة التى تصدر فى مجال تخصصه وأن تكون له مكتبة خاصة بدلا من أن يظل ملطوعًا طول النهار فى المكتبة العامة فلا هو قادر على أن يقرأ لنفسه أو يقرأ لغيره أو يستريح من القراءة ومن إعداد محاضراته وإذا استطاع أن يشترى كتابًا أو مرجعًا فى مرة من

المرات فسوف يظل نادمًا على هذه المرة ويظل على وعد قطعه أمام نفسه ألا يفعل ذلك بعد اليوم .

ومن الضرورى أن يكون المدرس مشغولا بإعداد رسالة عليا ، هذه الرسالة هى جواز المرور إلى درجات أعلى - مادام قد اختار التدريس مهنة عمره .

وبعملية حسابية بسيطة نجد أن المدرس الجامعى عاجز تمامًا عن القيام بواجبه وإذا قام فإنه لا يستطيع أن يقعد ، وإذا قعد فإن هناك ألف سبب لا يشجعه على ذلك - وهو معذور .

أما المدرس فى الكلية العملية فهو مشكلة أخرى . فالأجهزة ليست فى متناوله والكتب العلمية أغلى ثمنًا من الكتب النظرية ، والأبحاث المعملية باهظة التكاليف .

ولذلك كانت التفاتة الدكتور عزيز صدقى رئيس الوزراء الأسبق إلى هيئات التدريس الجامعية وكان هو أستاذًا جامعيًّا هى تصحيح حيوى لظلم طويل وفتح لشهية المدرس والأستاذ ومكافأة يستحقها كل من وهب نفسه للعلم . فنحن فى بلد يحتاج إلى التعليم والتربية والعلم ويحتاج إلى المدرس ويجب أن نضعه على العين والرأس .

وهذه خطوة أولى موفقه ولا شك . □

اعدى أعداء مصر ؟!

إذن فالغش طبع فى البائع . هو غشاش لأنه يريد أن يظفر أكثر . أو هو يريد أن يظفر بكسب أكثر ولذلك فهو غشاش ، وأمامى صورة لا تتغير : رجل فاكهانى أتردد عليه وفى جميع الحالات أكتشف أنه غشنى ، وفى كل مرة أندهش وأتساءل : ألا يخطر على باله أننى سوف أكتشف ذلك بعد لحظات ، فإذا عرفت أنه غشاش ألا يخطر على باله أننى لن أعود إليه .. فإذا فعلت أنا ذلك وغيرى أيضًا ألا يتصور أن عدد الزبائن سوف يتناقص يومًا بعد يوم .

ولابد أن الذى يشجعه على الاستمرار فى الغش أننى أتردد عليه بعد ذلك وغيرى يفعل نفس الشيء . وهذا معناه : أننى اعتدت على غشه وهو اعتاد على أن يرانى وعلى أننى اشترى منه . فهناك موافقة ضمنية بيننا : هو يغشنى وأنا أعود إليه .

فالغش أسلوب مقبول من البائع والمشترى . هو يغشنى وأنا أجرى إليه لأننى لا أجد غيره أو لأننى أستطيع أن أنبهه إلى هذا الغش فيمتنع عنه مرة كل ثلاث

مرات . ولابد أن يكون عندى أمل فى أن أقضى على عادة الغش هذه عند التاجر مادمت حريصًا عليه .. أى حريصًا على أن أشترى منه ولابد أن يستحى مادمت أصبحت زبونًا عنده – ولكنه لا يفعل .

أما منطق البائع فهو أن الزبون لا يدوم . مرة يجىء ومرة لا يجىء : ولذلك فالسرقة والغش والكسب الحرام ضرورة لأنه لا يضمن عودة الزبون .

هذا الشعور عند البائع المجاور لى هو نفس الشعور عند معظم الباعة فهو لا يضمن أحدًا ، ولذلك يجب أن يتصيد الزبون فليست هناك صلة أو علاقة أو صداقة تصيبه بالخجل .

وهذا ما يعانيه السياح الأشقاء أو الأجانب كل سنة أيضًا . سيجدون باعة قد استعدوا للضحك عليهم وبحيل متنوعة والنتيجة : أيضًا صورة سيئة بشعة للبائع المصرى والمواطن المصرى وكل ماهو مصرى ولمصر .

وإذا كان من الممكن الإساءة إلى مصر وشعب مصر فى ثانية ، فإن إصلاح هذه الصورة يحتاج إلى عشرات السنين .. وكل ذلك لأن تاجرًا أو عشرات قرروا أن يكسبوا بالغش ملاليم معدودة – تكلفنا ملايين لا عدد لها .

أيها الغشاش أنت عدو لمصر . بل أكثر عداوة لها من أعدى أعدائها . □

الوطنية : عمل متواصل

مئات الألوف من الشبان سافروا ويسافرون إلى الخارج .. والسفر إلى الخارج هو بعثة دراسية حرة ولأنها حرة فهى ممتعة . ولن تظهر نتائجها اليوم أو غدًا ولكن سوف تظهر نتائجها حتمًا ، فهؤلاء الشبان هم رجال الغد : مدرسوه ومهندسوه وأطباؤه وجنوده وضباطه وحكامه وأزواجه وآباؤهم .. وماداموا قد رأوا الدنيا فإنهم لن يحرموا أولادهم منها وماداموا قد رأوا الأفضل فسوف يتطلعون إلى كل ماهو أروع وأنفع لبلادهم .. لمصر ومستقبل مصر .

وسوف يقارنون بين بلادنا والبلاد الأخرى وسوف يعرفون لماذا تتقدم الشعوب ولماذا هى بيوتهم نظيفة وشوارعهم وملابسهم ومصانعهم .. ولماذا هم متحضرون .. ثم كيف نكون مثلهم ، وسوف يدركون أن الإنسان هو الإنسان فى كل مكان وأنه من الممكن أن يكون متحضرا وأن الوطنية لها ألف معنى ، وليس معناها فقط أن يتحول الإنسان إلى لسان طويل يدافع عن بلده ، وإنما الوطنية عمل متواصل فى أى موقع . فالناس خارج مصر يفعلون ذلك وليسوا مثلنا . إذا

تعلموا شيئًا ثم آمنوا به وطبقوه أصبحت قدراتهم خارقة .

ولأنهم شبان صغار ولأن تجاربهم فى الحياة المستقلة محدودة ؛ لذلك من الممكن أن يخطئوا – ولا أحد لا يخطىء . وقد وقعنا فى مآزق كثيرة عندما سافرنا إلىالخارج لأول مرة ، ولكن الإنسان يتعلم من أخطائه ومن أخطاء الآخرين . وهى أخطاء يقع فيها بحسن نية ، وهى أخطاء ضرورية بالنسبة للتجربة الأولى والمرحلة الأولى ، ولكن هناك بعض الشبان عندما يجدون أنفسهم وحدهم فإنهم ينفلتون تمامًا . ولا أحد يستطيع أن يوقفهم . فإذا حاول أحد تمادوا فى ذلك . وهذا الطراز من الشبان هو الذى يضر بنفسه وبسمعة بلده . وهو الذى يستحق العقوبة وأنا أعرف عشرات الأمثلة الضارة .

ولذلك فأنا أؤيد معاقبة كل من يسىء إلى مصر .. وأقصى العقوبة ألا نسمح له بالسفر مرة أخرى .. وأعتقد أن الحرمان من السفر هو أقصى درجات العقاب لشاب رأى ويريد أن يرى أكثر .. فليس من حق أى شاب أن يسىء إلى كل شباب مصر وإلى كل مصر . فهذه جريمة لا تستحقها مصر من واحد من أبنائها . □

المرأة . . والمرأة الأخرى !

عندى المذكرات التى كتبتها الممثلة القديمة هيدى لامار – وهى أمريكية الجنسية نمساوية الأصل والمذكرات عارية جدًّا ولسبب ماثارت على المذكرات بعد نشرها ومعها حق . ففيها صفحات مهينة لإنسانيتها .. مثلا : من الذى شاركها فى فراشها من أصحاب الملايين وكيف كان ذلك وكم استغرق ذلك وهل هو شاب كما يدعى ولماذا ؟

وصفحات عن كيف كانت الليلة الأولى .

وأشياء وحوادث وكلمات وصور فاحشة وهى جميعًا رغم أنها صحيحة . وأنها حدثت وأكثر من ذلك أيضًا ولكن ليس من الضرورى أن يفضح الإنسان نفسه ولا داعى لأن يتعجل ذلك فسوف يتكفل الناس من بعده بذلك .. أقرب الناس إليه سيتطوع بهذه الفضيحة . وإذا لم يفعل أقرب الناس ذلك فالصحافة – صناعة الفضائح – كفيلة بأن تفعل ذلك وتضيف من عندها الكثير أيضًا .

وقد تابعت حياة الممثلة هيدى لامار منذ وقت طويل ولا أنسى صورتها فى فيلم

« شمشون ودليلة » ولا كلماتها ولا كيف هزتنى فعدت إلى المذكرات أقرأ هذه القصة وأحاول أن أحورها إلى أشكال أخرى وأذكر أننى كتبت مسرحية من فصل واحد موضوعها أن دليلة بعد أن قهرت شمشون ظهرت لها دليلة أخرى قهرتها - فلا يقهر الرجل إلا امرأة ولا تقهر المرأة إلا امرأة أخرى .

ومن الغريب أن شيئًا من ذلك قد حدث لهيدى لامار . فهى عندما كتبت مذكراتها هذه لم يكن الغرض منها أن تبيع نفسها لآخر مرة فى إطار أدبى أو إطار خال من الأدب . إنما كان الغرض هو أن تبين أنها هى التى كانت العشيقة المفضلة عند المليونير فلان ، وأن هذا المليونير كان يبوس القدم ويبدى الندم فى كل ليلة .. وأن هيدى لامار كانت تتردد فى أن تعطيه قدمها اليمنى أو اليسرى .. ولكنه راض بنصيبه من قدميها على كل حال .

إذن لم تشأ أن تفضح نفسها لأن نفسها قد هانت عليها ولكن نفسها تهون من أجل فضيحة امرأة أخرى ، وهذه المرأة الأخرى قد وعدت بنشر مذكراتها فتفضح هيدى لامار . إن هيدى لامار هى دليلة التى قضت على ألف شمشون .. ولكن دليلة واحدة سوف تقضى عليها نهائيًا .. إنها فرصة لكى تقرأ . □

لعل شيئًا يتغير ؟!

يقول إنه دخل النادى – أحد الأندية المصرية – فوجد الموظف جالسًا على المكتب وأمامه عدد من الزجاجات والأكواب الفارغة . كل شىء بليد . والموظف أبلد الجميع . سأله أين توجد صالة الطعام التى تبعد قليلا عن المكان الذى تجلس فيه .. واتجه إلى صالة الطعام . فى غاية القذارة . ويقول : إن كل شىء فى غير مكانه . حتى المطعم نفسه كان من الممكن أن يوضع فى أحد الجراجات أو أحد الاصطبلات . وكان معه ضيوف أجانب وجاء من يسأله ماذا يريد أن يأكل وطلب ما يريد . ولكن الأطباق والأكواب والملاعق والزجاجات وكل شىء قذر تمامًا .

أما الأبواب الزجاجية فقد تغير لونها ، لابفعل الشمس ولكن بفعل التراب والإهمال والكسل .. وأحس أن الكسل كأنه هواء ثقيل .. أوكأنه حائط سميك يعوق حركة الموظفين والضيوف وحركة الكلام والأفكار .. ثم إنه أصبح ثقيلا على الضمير .. وشىء جديد أضيف إليه هو الخجل . ثم أمنية عنده أن يمسك أى إنسان

ويضربه بالرصاص لأنه ليس من حقه أن يسىء إلى مصر وشعب مصر وبفلوس مصر . ولكنه احتمل كل ذلك وجاء الطعام واختفت الأطباق . وتلاشى من العين والأذن والأنف كل شىء ..

وعند الخروج وجد بابًا مكتوبًا عليه : للرجال - أى دورة مياه الرجال . وهذه هى أيضًا لا يمكن أن توصف وإذا وصفت لا يحتملها أحد من الزوار المصريين والأجانب .

ولو كان هذا النادى ملكا لفرد ، لكان أمره يهون قليلا . ولو كان هذا النادى فى القاهرة لوجدنا له ألف عذر ولكن هذا النادى المصرى فى لندن .. فإذا لم يكن موظفو النادى قد تعلموا شيئا من « البيئة » النظيفة الأنيقة التى تحيط بالنادى وبكل إنسان ، فما الذى يمكن أن يتعلمه الإنسان وكيف ومتى ؟

إن المواطن المصرى خالد عثمان خليل المقيم فى لندن يشكو لطوب الأرض ولكل من يحمل قلمًا فى مصر أن يقول شيئًا فى المكان المناسب وللأذن المناسبة ، لعل شيئًا مناسبًا يتغير فى لندن .. □

مشغول بحياته .. مشغول بموته أيضًا ؟!

في سنة ١٩٦٠ توفى الأديب الفرنسى الكبير ألبير كامى فى حادث سيارة . وقبله مات ألوف وبعده سوف تموت مئات الألوف . فهو حادث أليم
وهناك فارق بين أن يموت الإنسان وهو راكب إلى جوار السائق ، وبين أن يكون هو السائق فإذا كان هو الذى يسوق سيارته ثم مات ، فإن الحادث يكون له معنى آخر .

وهذا المعنى الآخر هو الذى شغل علماء النفس بعد وفاة الأديب الفرنسى قالوا : إنه لم يمت . ولكنه انتحر . أى أنه أراد أن يموت أو عنده رغبة عميقة فى أن يموت . ولذلك فقد تعلم قيادة السيارة . ثم قادها . ثم سرح أثناء القيادة . والسرحان معناه أن يغمض الإنسان عينيه عن الخطر .. أى أن يسمح للسيارات الأخرى أن تصيبه أو تقتله .. فكأنه ذهب بنفسه إلى الموت لماذا ؟ لأنه يريد أن يقتل نفسه ..

وهناك نظرية تقول : كما أن الحياة والحرص عليها والكفاح من أجل أن يبقى

الإنسان : غريزة ، فكذلك الموت أيضًا غريزة . فالإنسان حريص على أن يميت نفسه أدبيا أو ماديا أو أن يشوه نفسه بنفسه .. وكذلك يعيش على الحافة بين الموت والحياة .. لا هو ميت ولا هو حي ..

وقد اكتشفت أرملة الأديب الفرنسى أن زوجها قد ألف رواية عنوانها « الموت السعيد » . هذه الرواية كتبها وهو فى الرابعة والعشرين من عمره . ولم يشأ أن ينشرها . والذى يقرأ هذه الرواية يؤمن بأن الأديب الفرنسى كان مشغولا بالموت طول حياته . وأنه كان حريصًا على أن يعرف كيف يموت الإنسان بصورة أسهل .. أو دون أن يشعر بأنه مات أو يموت أو ميت ..

ومن المعانى التى استوقفت هذا الأديب كثيرًا : أن الموت هو نوع من الذهول العقلى والنشوة الروحية ..

أليست هذه صورة قبيحة للموت أو مخيفة . ولكنها صورة فى عقل إنسان اقترب من الموت ومازال يقترب حتى اختطفه الموت وهو مشغول به . فكان موته مفاجئًا مذهلا ..

وهناك نظرية تقول : كل إنسان مشغول بحياته ، مشغول أيضًا بموته دون أن يدرى . فالذى يدخر المال هو خائف من أن يموت فقيرًا . والذى يسرف فى الإنفاق يخشى أن يدركه الموت فى أية لحظة ؛ فمن الخير له أن يعيش لأنه لا يدرى كيف يموت . والمسرفون يعيشون كالأغنياء ويموتون كالفقراء أو فقراء ..

وليس الإنسان فى حاجة إلى أن يكون أديبًا ليفكر فى الموت .. يكفى أنه يفكر فى حياته بعض الوقت ليعرف ، إذا شاء ، كيف يموت بعد ذلك .

إنها أفكار مؤلمة ولكنها الحقيقة .. □

اخترِ النهاية التى تعجبك !

لا خلاف بين العلماء الآن على خطورة التدخين . هذه حقيقة علمية طبية ولكن العلماء يختلفون فقط على متى يصبح التدخين خطرًا على حياة أى إنسان بعض العلماء يؤكد أن ضرر التدخين يبدأ مع أول نفس من أى سيجارة من أى نوع .

وهذه الصفحة لا تتسع لأسماء المواد التى تدخل الرئتين والفم مع أول نفس .. ولكن يكفى أن نقول إن ألوف الملايين من الجزئيات تدخل الفم والحلق والرئتين . وأن هذه المواد تفرش الطريق أمام مالا عدد له من الأشياء الضارة وأن سبب الانتعاش الذى يحس به المدخن هو مادة النيكوتين ومادة أخرى اسمها الأدرنالين والمادتان معًا تزيدان ضربات القلب وترفعان الضغط وبذلك يرتفع الدم بكميات أكبر إلى الرأس . وبذلك تحدثان نوعًا من التنشيط . أو نوعًا من (الحماس) وهى حماسة كاذبة . إنها حماسة الإنسان إذا ضربته بالكرباج فراح يجرى أمامك .. والذى يراه من بعيد يقول : إنه بطل رياضى . والذى يعرف الحقيقة يقول إنه خائف ومع

الخوف يفرز الجسم مادة الأدرنالين التى تجعله ينشط وينطلق .

وهو نشاط إرهابى أو بالإكراه وإذا كان هذا النشاط مستمرًّا ، فإنه يصبح مرهقًا وهو لا شك يهد الحيل . فإذا كان التدخين عادة يومية فإن الجسم يكون قد تكيف مع هذه الكرابيج الداخلية . ويطلب الكثير منها .. مادمنا نرغم أجسامنا على أن تضاعف عدد ضربات القلب والصدر والكليتين ..

والعلماء فقط يختلفون على درجة خطورة السجائر . أحد العلماء يقول إن ضررها يبدأ بعد ثلاث ثوان من التدخين والبعض الآخر يقول بعد دقيقة .

ولكن من المؤكد أن كل إنسان قد أخذ مليون نفس هو فى قلب الخطر وهو مريض أو قد رفع حالة الاستعداد لكثير من الأمراض إلى الدرجة القصوى . وهذا المليون نفس يساوى تدخين علبة سجاير يوميًّا ولمدة خمسة عشر عامًا .

هذه المعلومات ترجمتها عن علبة سجائر تباع فى الأسواق الأمريكية ، لقد أصبح من الواجب إنتاج السجائر والتحذير منها فى نفس الوقت . وبعد ذلك وقبل ذلك فأنت حر فى اختيار النهاية التى تعجبك . أى أن تموت فى صحة جيدة أو أن تموت مريضًا وأن تقول أيضًا إذا كان الموت هو نهاية الأصحاء والمرضى فما قيمة الصحة والمرض .

كلام معقول .. ولكنك حر .. □

عليك أن تجرب !

فجأة

اكتشفت أنه لا فائدة من الكلام – ليس الكلام عمومًا .. ولكن من كلامي مع شاب ظهرت نتيجة امتحانه ويريد أن يذهب إلى الشاطيء ليستريح من تعب المذاكرة وضوضاء القاهرة .

قال لى : تنصحنى بماذا ؟

قلت : فى أى شيء ؟

قال : فى أى شيء ؟

قلت : وهل تتصور أننى أعرف فى كل شيء ؟

قال : طبعًا لا . ولكن تعرف أكثر منى .

قلت : صحيح أعرف أكثر منك . ولكن ما الذى تريدنى أن أنصحك به ؟

قال : ماذا أعمل فى الإجازة .

قلت : إذا عملت فإنها لا تصبح إجازة ، لو كنت مثلك . وقد كنت مثلك يومًا ما – فإننى أقرأ فقط . أقرأ كثيرًا وعلى مهل وهذه متعة كبرى ولكنا لا نعرف ذلك .

ودارت مناقشات فى أمور كثيرة . وعندما ننتقل من موضوع إلى موضوع يتوقف هذا الشاب ليسألنى وبماذا تنصح ؟.

وأنا أكره أن أكون ناصحًا ففى النصحية شىء كثير من ادعاء الحكمة والفهم بالأمور وفيها نوع من التعالى ومن الأبوة وأنا أكره أن أجد نفسى قد جلست فجأة على مقعد عال .. ونظرت من فوق إلى كل شىء . إذن هو صغير وإذن هو لاشىء

ولابد أننى سأقول : افعل هذا ولا تفعل ذاك ..

ولابد أننى سوف أنسى أو أتناسى أننى عندما كنت فى سنه كنت أفعل بالضبط ما أنصحه بألا يفعله .. ولو عدت إلى مثل سنه مافعلت غير الذى فعلت ولكن الإنسان – عادة – عندما ينصح غيره فإنه يتصور أنه فى الإمكان أن تجدى هذه النصحية وأن يتفادى هذا الشاب أخطاء الشباب : الطيش والخيال والطموح والاستخفاف بالغير من الأشياء ومن الناس .

ووجدت نفسى أقول له : مخلصًا وبكل أمانة لا أعرف كيف أنصحك بأى شىء .. أنت عليك أن تجرب وأن تتحمل نتائج كل ماتفعل بعقل وبلا عقل .

آسف : حتى عندما قررت ألا أنصحه ، وجدت نفسى قد نصحته وأنا لا أدرى . □

المهم : أن يعيش وأن تعيش !

ظاهرة

ليست غريبة : أن عددًا من كواكب السينما يبعثن بأولادهن وبناتهن إلى المدارس الأجنبية أو إلى الخارج .

ولكن لماذا ؟ .

كانت الكواكب يفضلن المدارس الأجنبية لأن هذه المدارس « أجنبية » عن البيئة المصرية . وبذلك يكون الابن بعيدًا عن مصر .. كأنه فى دولة أجنبية بعيدًا عن الأم وتصرفات الأم الشخصية وأعمالها الفنية . فالابن لا يحاسبه أحد على ما فعلته أمه . فلا يضطر إلى الدفاع عنها أو عن نفسه ولا يكون عدوانيًّا ثم ينتهى به الأمر إلى أن يكره أمه التى تسبب له كل هذه المضايقات .

ولكن المدارس الأجنبية الآن لم تعد أجنبية إلى هذه الدرجة ففيها الآن كل عيوب ومزايا المدارس المصرية . ثم إن الابن ليس فى إمكانه أن ينعزل تمامًا عن أمه وجو أمه وأعمال وأفعال أمه – وهذه عقوبة الشهرة التى تصيب الفنان فى عزيز لديه .

ولأن المدارس الأجنبية لم تعد «أجنبية (بدرجة كافية) فإن النجوم والكواكب يبعثن بأولادهن إلى الخارج بعيدًا تمامًا عن العيون التى تحاسب الابن على ماتفعله أمه ..

ومن المؤكد أن الأم لا تحب لابنها أو لابنتها أن تعمل مثلها .. فى نفس المجال أو فى نفس الفن ، وهذا يدل على أن الأم لا تحب (الوسط) الذى تعيش منه وتعيش فيه . ولا تريد لا بنتها أن تتعذب كما تعذبت هى وأن تضطر إلى أن ترضى بأشياء كثيرة رغم أنفها ورأسها وشفتيها وقلبها .

ولذلك فالأم تبعد ابنتها أو ابنها عن (الوسط) إلى أقصى درجة ممكنة .. إلى بلاد أجنبية حتى يصبح هو (أجنبيًّا) فإذا عاد إلى مصر كان قد طبع على جو آخروبيئة أخرى فإذا أقام فى مصر يكون قد تحصن بأخلاق وعادات أخرى ويكون قد أصبح قادرًا على أن يواجه من يحاسبه على ما تقوم به أمه فى الحياة وفى الفن .

وهذا معناه أيضًا أن نجمة الفن قد قررت أيضًا أن تخفى ابنها أو ابنتها عن الناس حتى تكبر . فإذا كبرت أوكبركان مواطنًا من نوع آخر - لا يهم . المهم أن يعيش وأن تعيش هى أحسن وأفضل . □

افعل ما هو ممكن : بمتعة !

ليست هذه نصيحة . فأنا أكره أن أكون ناصحًا لأحد . وقد كنت صغيرًا وأعرف أن النصائح ثقيلة على النفس لا لأنها نصائح ولكن لأن الصورة والأسلوب والعاقبة فى كل مرة لم تكن شيئًا مريحًا . وإنما كانت أليمة . وكيف يبدو وجه الأب والأم والمدرس والطبيب وهو يقول لنا : لا تفعل هذا وإلا .. لاتقترب من هذا وإلا .. لا تقرأ هذا وإلا ..

وكان حب الاستطلاع والمغامرة والعناد وتأكيد الذات والعصيان تغرينا جميعًا بأن نفعل الشيء الممنوع – هذه طبيعة الإنسان ؛ ومن أجل هذه الطبيعة نزلت كل كتب السماء وظهرت كل كتب الأرض وابتدع الإنسان القانون والحواجز والسجون والمحاكم وعلامات المرور وعلامات الملاعب وتذاكر المسارح والسينمات والأبواب والنوافذ .

ولكننا جميعًا كنا نحتال على هذه الممنوعات بعشرات الطرق – وهذه طبيعة الإنسان أيضًا .

ولذلك فأنا لا أريد أن أنصح . ولا أريد أن أجعل هذه المقدمة طويلة لكى استدرج القارىء إلى شىء أريده له وليس لى .

نحن الآن فى الصيف تعبانون مرهقون ومن الضرورى أن نستريح فى أى مكان وعلى قدر ما نستطيع .. لأن الصيف هو فترة الاستراحة من عناء السنة والاستعداد لعناء السنة القادمة ولكل الناس .

ولكن ماهى الراحة ؟

الراحة ليست أن تمتنع عن العمل .. وألا تذهب إلى نفس المكان لترى نفس الوجوه وتؤدى أولا تؤدى نفس العمل الذى كنت تقوم به .

والراحة ليست أن تظل نائمًا فى الفراش تتقلب حتى العاشرة والحادية عشرة صباحًا . والراحة ليست أن تملأ بطنك على آخره . ولا أن تذهب إلى السينما فى جميع الحفلات الواحدة بعد الأخرى كل يوم – هذا إذا استطعت .

ولكن الراحة هى أن تجد لذة مفيدة .. أو متعة إيجابية أو تسلية عقلية . الراحة ليست أن تعطل عقلك . ولكن أن تنشطه فى شىء مفيد . لأن الإنسان ليس جسمًا فقط .

إنه عقل فى جسم من الناس أى عقل وجسم وعلاقات إنسانية أخرى .

وهناك عشرات الطرق لتشغيل عقلك ، من بين هذه الطرق أن تقرأ والقراءة تجعلك تستريح جسميًّا وعقليًّا وتكون على صلة بالناس فى كل البلاد وبالتاريخ والقراءة هى أن تجلس إلى مائدة اشترك فى إعدادها عشرات الألوف من الناس فى كل مكان .. اجلس واسترح وأمدد يدك واملأ عينك وادخر فى عقلك شيئًا ينفعك بعد ذلك . فلا يمكن أن تتقدم أنت بعقلك ومركزك إلا إذا قرأت وفهمت واستمتعت على مهلك فليس فى الإمكان أن تقرأ كل الكتب تمامًا كما أنه ليس فى

إمكانك أن تأكل كل الطعام ولا أن تشم كل الهواء ولا أن تقبل كل الشفاه – غير ممكن – إذن فعليك أن تفعل ماهو ممكن ولكن بمتعة وعلى مهلك .. فليس المهم أن تقول إنك قرأت ألف كتاب ولكن المهم أن تقول كم فهمت مما قرأت .

وليست هذه نصيحة وإنما هى تجربة واحد قارىء شديد الامتنان لله الذى منحه هذه الموهبة : أن يطيل السمع إلى كل من يقول كلامًا فى كتاب . □

الهرب : دين وسياسة !

يظهر أن الإنسان عاش طول عمره مدمنًا لشيء ما . وهذا الإدمان يجعله يغيب عن واقعه .. أو عن ظروفه الحسية أو النفسية أو الاجتماعية . ويظهر أنه لم يمض عصر من العصور قد شفى فيه الإنسان من إدمانه لرأى أو لنظرية أو لمذهب .

فى عصور الخرافات أدمن الإنسان الخوف من كل قوى الطبيعة . وفى نفس الوقت كان يقدسها . وبعد ذلك جاءت فترات دينية ، أدمن فيها الإيمان بشىء واحد أكبر منه . وتحت تأثير هذا الإدمان هانت الحياة من أجل هذا الدين الجديد ..

وفى عصور العلم أدمن الإنسان البديهيات الرياضية . ولم يعد يرى شيئًا يستحق الإيمان به والتضحية من أجله سوى العلم : الطبيعة .. الكيمياء .. الأحياء والرياضيات ..

ويظهر أن الإنسان لا يستطيع أن يدمن شيئين فى وقت واحد : إما الخرافات

وإما العلم وإما الدين ..

وبعد ذلك أدمن الإنسان السياسة : فالسياسة دين بغير إله . والسياسة لأنها علم فهى أيضا ترفض الأديان الأخرى . وإن كانت هى أيضًا مثل كل دين لها مقدسات كتب مقدسة وأشخاص كالأنبياء والقديسين لايمسهم أحد بلسان أو بيد أو بسوء ظن ..

ولكن فى مواجهة هذه « المعتقدات » التى أدمنها الإنسان وتعب منها وفى سبيلها كان لابد أن يبحث عن وسيلة أخرى لتخفيف ويلات هذه المعتقدات ، فتعلم الهرب منها . ثم أدمن الهرب أيضًا . حتى أصبح الهرب هو الآخر دينًا وعلمًا وسياسة .

والإدمان نفسه نوع من الهرب . أو يكفى أن يتعاطى الإنسان شيئًا مخدرًا ليغيب عن الواقع الذى لا يستريح إليه .. تمامًا كالبنج أو الحقن المخدرة أو الإبرة الذهبية التى تنغرس فى جسم الإنسان فلا يدرى بشىء مما حوله . فهذه المخدرات تجعل الواقع غائبًا عنا . لأنه ليس فى الإمكان أن يكون الإنسان حاضرًا طول الوقت ، ولا من المريح أن يكون الواقع حاضرًا أمام العين وفى الأذن والعقل والقلب ..

وتاريخ الإنسان هو تاريخ تطويره لأنواع المخدرات أو لدرجات الغيبوبة عن الواقع .. ولم يحدث قط أن جاء عصر كان فيه الإنسان حاضرًا دائمًا .

فالحضور أرق عقلى ولهيب وجدانى .. والراحة منه أن يغيب عنه بعض الوقت أو كل الوقت .. □

أمي : تاريخ حياتى !

أعرف مايقوله علماء النفس على الشخص فى مثل حالتى . أعرفه جيدًا . فى مثل هذا اليوم توفيت والدتى . يرحمها الله ويسكنها جناته . فهى تستحق كل رحمة وكل نعيم . ولكننى من ذلك الوقت لم يمض يوم إلا بكيت عليها . فلا أكاد أجلس وحدى حتى تغرورق عيناى بالدموع . ولا يمضى أسبوع دون أن أذهب إلى قبرها ، وقبرها هو قطعة الأرض الوحيدة التى أملكها فى هذه الدنيا . وعندها ينتهى كل نزاع . ولا يمكن أن ينازعنى فيها أو عليها أحد ، حيًّا أو ميتًّا . ومن الغريب أننى كثيرًا ماتوقفت فى الطريق إليها ، لأن الدموع التى فى عينى تمنعنى من قيادة السيارة . وقد حدث أكثر من مرة أن رآنى صديق وسألنى إن كنت فى حاجة إلى مساعدة . فأقول : لا .. شكرًا . مع أننى فى حاجة إلى مساعدة . ولكن من الذى يستطيع أن يساعدنى على نفسى ، على شيء فى أعمق أعماق نفسى ..

وقيل لو كان لك أولاد مابكيت على أمك كل هذا البكاء ..

وذهب صديق إلى أن حبي للقطط هو نوع من الرفق فائض الحنان . ولكنى لا أحب القطط ، وقد مات أمامى أكثر من قط . وتضايقت . ولكن الموت نهاية كل حى : القط وصاحب القط . وقيل أيضًا إن عندى فراغًا عاطفيًّا وإن هذا الفراغ سببه وفاة والدتى . وإن هذا الفراغ لا يمكن أن يملأه أو يسده شيء واحد .. أو اهتمام بأية قضية فكرية أو عاطفية أو اجتماعية أو سياسية .

إذن ما هو الحل ؟ ..

لا حل .. وكثيرًا ما ناقشت نفسى :

صحيح ما الذى أبكى عليه .. ما الذى فقدته ولا أمل فى تعويضه . ما الذى كانت تفعله فى .. إننى لم أكن أراها كل يوم .. وإنما كنت أراها مرتين أو ثلاثا كل شهر . وإن كنت أسمع صوتها كل يوم ، إن أمى هى تاريخ حياتى . فهى التى تعذبت ومرضت وضحت بالكثير من أجل أن أواصل تعليمى . ولم يكن هناك أمل كثير فى أن أفعل ذلك . إن أمى لا تعرف بالضبط ما الذى أفعله . وإن كانت تسمع من الناس ماذا أكتب أو ماذا أقول أو يقال عنى .. ولكنى ليس من الضرورى أن تشغلها كل همومى ... فأنا كل همومها .. ولم أكن – شكرًا لله – همًّا لها أو عبئًا على قلبها أو عقلها .

إن شيئًا فى داخلى قد انفجر عليها .. إن قوة خفية تعصرنى عصرًا .. وأنا أعلم تمامًا أنه لا أحد يعود ، وأنه لا فائدة من البكاء ، وأن الأحياء أتعس حالا من الأموات .. وأنه من الأجدر أن نبكى على أنفسنا : نبكى على المعنى الذى لا نجده فى حياة أو فى كفاح أو فى حب أو كره أو مال أو ولد أو أم أو أب .. ولكنى لا أعرف ما الذى أبكيه ، أبكيها .. أو .. أبكينى ..

لقد تمنيت من الله أن تموت أمى قبلى بيوم أو بساعة .. حتى لا تتعذب لها روح أو يهان لها جسد . وقد استجاب الله لدعائى .. فشكرًا لله وليرحمها الله وليرحمنى من بعدها آمين .... □

هناك قانون .. فمن يفعل ؟!

لا ألوم رجل الشرطة فى شارع الجيزة ، فقد رأى شابًّا يطلق حجرا على طائر أبو قردان .. سقط الطائر وراح يزحف إلى جوار الحائط . ولابد أنه مات بعد ذلك بقليل . أما رجل الشرطة فهو لم يفعل شيئًا . ولعله يكون قد استنكر مافعله الشاب .. ولكنه لا يستطيع أن يذهب فى انفعاله إلى أبعد من ذلك . فهل من حقه مثلا أن يعتقل شابًّا ويسحبه إلى مركز الشرطة لأنه قتل طائرًا للفلاح .. إنه لا يعرف إن كان هناك قانون يمنع ذلك .. أو خشى أن يترك العمل المكلف به ويتطوع لشىء آخر ليس من اختصاصه . أو لعله يتوقع أن يسخر منه زملاؤه فى مركز الشرطة فيقول له الواحد منهم : ياسلام إيه العواطف الرقيقة دى .. بقى انت جاى هنا وسايب شغلك علشان حتة عيل موت أبو قردان .. امش اطلع بره يابن الـ ... إلخ

لا أعرف ان كان هذا قد حدث قبل ذلك ، ولكن لا أستبعد أن يحدث بعد ذلك . وأنا لا أنسى أن أستاذًا للأدب الإنجليزى فى كلية الآداب من عشرين عامًا

استوقف أحد العربجية فى شارع سليمان باشا ، أيام كان مسموحًا للعربجية بالسير فى هذا الشارع وأصر على أن يأخذه إلى القسم .

والتف حوله الناس : إيه ياخواجة .. جرى إيه خواجة .. صل على النبى ياخواجة ..

ولكن الخواجة أصر على الذهاب إلى القسم .. وتزاحم الناس ومن بينهم رجال الشرطة ليعرفوا أن سبب غضب الخواجة هو أن العربجى كان يضرب الحصان بعنف مع أنه لا يوجد سبب وجيه لذلك ..

ومن الممكن أن يقال للخواجة : يا أخى انت مالك .. عربجى وبيضرب الحصان بتاعه ... واحد مربى دقنه وانت تعبان ليه .. واحد حلق شنبه وانت متضايق ليه ؟

ولكن أين الرحمة بالحيوان .. أين الشفقة بالطيور .. فهناك قوانين فى العالم تطلب الرحمة بالضعيف . وهذا الحيوان ضعيف .. وهذه القسوة يعاقب عليها القانون ويجب أن يعاقب عليها . ولذلك تحمس هذا الأستاذ وأصر على أن يأخذ العربجى إلى القسم .

أما الباقى فلا يختلف كثيرًا عن الذى كان من الممكن أن يحدث لرجل الشرطة لو ذهب يشكو من قتل طائر أبو قردان .. وخرج الأستاذ من القسم أكثر أسفًا مما دخل .

وهناك قانون يعاقب على قتل كل الطيور الصديقة للفلاح .. ولكن أحدًا لا يعرف . وإذا عرف فإنه مع الأسف لا يفعل ولا ينفعل لشىء .. □

وأد النيل !

أخشى أن نتنبه إلى خطورة « ورد النيل » بعد فوات الأوان .. وأذكر أننى كتبت عن ورد النيل منذ أكثر من ١٥ عامًا . وكانت معلوماتى كلها عما يحدث فى السودان وفى أعالى النيل .. ولكن لم أكن قد رأيته بعينى ويومها قلت إن هناك سرًّا لا نعرفه .. يمنع ورد النيل من التكاثر بهذه الصورة الوبائية فى مصر .. ولم أتصور أن الوقت قد جرى بهذه السرعة . وأن ورد النيل قد خنق المصارف والقنوات فى شمال الدلتا .. وأن هذا النبات من السرعة فى النمو ، والخطورة فى الانتشار ، بحيث يستطيع أن يسد منافذ المياه فى سنوات محدودة .. وفى هذه الحالة نستطيع أن نعبر القنوات مشيًا على الأقدام . فأغصانه عندما تتشابك ، تصبح كالخيزران فى القوة والصلابة ..

وأخطر مصائب هذا النبات أنه يمتص الماء ويبخره بسرعة ونهم وجنون . ومن المؤكد أن ثلث بحيرة ناصر سوف يبددها هذا النبات . وفى هذه الحالة سوف يقتل النباتات الأخرى . ويوقف حركة الماء ويقضى على الأسماك ويكون وكرًا خطيرًا

لأنواع من الحشرات المائية . والبعوض والذباب أيضًا .

لا أعرف بالضبط متى سيحدث ذلك ؟ ولكن من المؤكد أنه سوف يحدث والمطلوب هو أن ننتبه إلى هذا الخطر الأزرق البنفسجى الأبيض الأخضر الوبيل وان نتدارس أمر هذا النبات وأن نتنبه إليه . وأن يعمل كل الناس فلاحين وعمالا وطلبة أيضًا على إبادة النبات قبل أن يبيدنا فنحن نتزايد بغير حدود . وكل عام يولد مليون فم يريد أن يأكل ويشرب ويلبس ويتعلم ويعالج .. ويريد أن نوسع له الشوارع والقنوات والمصارف وأن ننمى له حيوانات الماء والبر ....

ولكن أعظم مايهدد الحياة هو هذا النبات الذى اسمه ورد النيل .. والذى يمكن أن يسمى أيضًا بمنتهى الصدق : وأد النيل ، لأنه يريد أن يدفننا ونحن أحياء .. □

هكذا يتعذب الممتازون !

كثير جدًّا مايقال عن المشاهير فى كل علم وفن ورياضة . والناس عندهم استعداد لأن يصدقوا عنهم أى شىء . أى شىء ضدهم أو لصالحهم . فهؤلاء المشاهير مثل النجوم بعيدة وعالية ومجهولة ..

والناس مبهورون بهم . ويرون أنهم كائنات من طراز آخر ، أو من الضرورى أن يكونوا من نوع مختلف . لقد قام أحد المؤرخين بتسجيل كل الحوادث والنوادر التى وقعت للموسيقار العظيم بيتهوفن وكيف إنه كان يلعب فيها معظم الوقت – محمد عبد الوهاب يفعل ذلك أيضًا ..

وكل الناس على مستوى بيتهوفن أو دونه بقليل – فليس بعد بيتهوفن مستويات أخرى لهم نوادر معقولة أو لا معقولة . ولكنها قد ألصقت بهم ظلمًا أو عدلا . والناس لا يتصورون أن هناك انفصالا بين العبقرية والشذوذ أو الجنون أو التطرف فى كل شىء . فإذا كان الفنان نظيفًا فهو نظيف إلى درجة الجنون بالنظافة – أى أنه نظيف مجنون ، أو مجنون بمنتهى النظافة وهكذا إلى غير حدود ..

وقد نشرت مجلة « الأوروبيو » الإيطالية أن المطرب الفرنسى جونى هاليداى يمتنع عن الطعام إذا كان مشغولا بلحن جديد .. ولا يتناول لقمة واحدة أو كوبًا من النبيذ قبل أن يتم تسجيل اللحن . وكثيرًا ما سقط من شدة الإرهاق أو من شدة الجوع . وتفسير ذلك أنه مهموم بفنه لدرجة تصد نفسه عن أى شىء آخر ..

وتقول المجلة إن أحدث أغانيه استغرقت « بروفاتها » أربعة أيام . ومعنى ذلك أنه لا أكل ولا شرب ولا نام لمدة أربعة أيام - المجلة لم تقل إنه لم ينم . ولكن من الطبيعى أن من يجوع ويعطش كل هذه المدة من الصعب عليه أن ينام . وعندما استراح المطرب الفرنسى إلى جمال اللحن والأداء أنهى هذا الصيام ..

وتقول مجلة « الكانار » الفرنسية إن هاليداى بخيل لدرجة أنه يتمارض حتى لا يضطر إلى تقديم طعام أو شراب إلى أحد من ضيوفه - إلى هذه الدرجة من الظلم فى الحكم على فنان موهوب . ولكن هذا هو مايريح الناس العاديين ، وما يتعذب به الممتازون فى نفس الوقت .. □

فيروز : زهرة العرب !

أحب صوت فيروز . وقد استمعت إلى بعض أغانيها ألوف المرات . وأعتقد أن أغنية واحدة لها سمعتها مئات المرات . بل إننى مسئول عن نشر وانتشار أغنية « خايف أقول اللى فى قلبى » فقد طلبتها فى أكثر البرامج الإذاعية ودعوت لها . فهذه الأغنية قد تكاملت فنيًّا : كلامًا ولحنًا وغناء وموسيقى . وقد ارتبطت هذه الأغنية بأعمق أعماق حياتى . فمنذ كنت طفلا أحاول الغناء وأمنى نفسى بأن أكون مطربًا فى يوم من الأيام وأنا أردد هذه الأغنية . وعندما كنت تلميذًا فى المنصورة الثانوية كنت أتردد على الأفراح متطوعًا ، وأذهب أنا وزميل لى لنغنى معًا . وكنت أختار أغنية « خايف أقول .. » ولا أعرف إن كان أحد قد تنبأ لى بشىء ولكنى كنت أغنيها . ولا أعرف بوضوح الآن ، إن كان اللحن هو الذى جذبنى أو هو الخوف الذى استحكم فى نفسى من عشرات السنين ..

وعندما جاءت فيروز إلى القاهرة قدمتها فى برنامج تليفزيونى هى وزوجها عاصى الرحبانى واخوه منصور الرحبانى . وهى سيدة رقيقة . وقد وهبها الله هذا الصوت

النادر فى العالم العربى .

ولا يمكن أن أتردد فى أن أذهب لسماعها أو لرؤيتها فى بعلبك . والمشوار طويل أيضا . مائتان وعشرون كيلو مترًا ذهابًا وإيابًا . والطريق مرصوف وجميل ولكن ألوف السيارات هى التى تجعل المرور صعبًا . وفى مدخل المدينة بعلبك يطالعك تمثال جمال عبد الناصر بقامته المديدة وذراعه أمامه ويده الكبيرة . وصور جمال عبد الناصر والهتاف باسمه على الجدران والشوارع .

وبين ألوف المشاهدين دخلنا . وجلسنا . وتوزعت الأضواء هنا وهناك . وبدأت مسرحية أو أوبريت « ناطورة المفاتيح » أى حارة المفاتيح – وهى فيروز . فهى مواطنة فى مملكة تمردت على ملكها وهاجر كل الناس وتركوا المفاتيح لفيروز وعلى الملك أن يعود إلى صوابه ويسترد شعبه ليسترد ملكه . وهذه هى مهمة حنجرة فيروز وكلمات وموسيقى الأخوين رحبانى ..

وقبل أن أذهب لمشاهدة فيروز قابلت الصديقين الأخوين رحبانى وشرحا لى معنى الذى سوف أراه . لأن الجميع يتحدثون باللهجة اللبنانية ..

ولا يهم ما الذى قالوا . ولكن المهم هو هذا الصوت الفاتن : فيروز وهى تغضب وتثور وتهدد وتمتع كل أذن .. إنها أروع زهرة برية انبتتها لبنان – أقصد نبتت فى دنيا العرب ..

وفى الطريق إلى الفندق كان السائق يستمع إلى الراديو ويقول : الله ياست .. تمامًا كما نقول نحن فى مصر .. وكأن أم كلثوم هى التى تغنى .. □

الطبيب أكثر مرضًا !

اعرض نفسك على أى طبيب للأمراض النفسية . وليس من الضرورى أن يكون هناك سبب لذلك ، ولكن من باب المعرفة . ليس إلا . حاول ألا تهتم كثيرًا بنظراته إليك . ومراقبته الشديدة الحريصة إلى كل حركة ليديك أو رجليك أو شفتيك أو عينيك – إن هذا الذى يفعله الطبيب ليس إلا عادة . وليس إلا نوعًا من الدراسة لك .. إنه لا يختلف كثيرًا عن رجال الشرطة أو الجمارك أو وكلاء النيابة .. أو المباحث أو المخابرات . فهو يريد أن يعرف وأن يعرف القوة الخفية التى فى داخلك التى دفعتك إليه سواء كنت مريضًا أو صحيحًا ..

فإذا كلمت الطبيب بالعقل . قال الطبيب لنفسه : أعرف هذا الطراز من الناس إنه يمسك نفسه ويتحكم فى أعصابه وبعد ذلك ينهار ..

فإذا انهرت فعلا ورحت تقول كل شىء وأى شىء استراح الطبيب إليك لأنك لا تحتاج منه إلى أى مجهود . فأنت تكشف نفسك وتفضحها أمام رجل يريد ذلك ..

وقد حدث أن ذهب صديق مثقف جدًّا إلى الطبيب وقال له . وقال له الطبيب : ودارت مناقشة علمية جادة وموضوعية . ولو دخلت عليهما الغرفة ، وسمعت الاثنين وهما يتناقشان لكان من الصعب عليك أن تعرف من هو الطبيب ومن هو المريض . وإن كنت ستختار الطبيب على أنه المريض لأن الإرهاق والقرف والملل واليأس واضح على كل ملامحه .. وبعد مناقشة استغرقت ساعة خرج الصديق وهو يقول لى : كنت أعرف ذلك ..

ثم مضى يقول : إن هذ الطبيب مريض حقيقة . وهذه هى المصيبة . أن يكون الطبيب مريضًا يعالج المرضى .. ولكن من الذى يقول للأب إنه يكره الأطفال وللحارس إنه صديق للصوص .. أو هولص . أو للامام فى المسجد أو القس فى الكنيسة إن كليهما لا يؤمن بما يقول أو يفعل ..

وانتهى الصديق إلى شىء أخطر من ذلك وأبعد .. إلى أن مصيبة هذه الدنيا كلها : أن الذين يتظاهرون ويتباهون بالعقل مجانين . وأن كارثة الإنسان والإنسانية أن العقلاء لا يملكون القوة وأن المجانين هم الأقوياء .

نتيجة بعيدة جدًّا ، ولكنها حقيقة مع الأسف . وعيبها أنها صدرت عن رجل مريض وجد الطبيب أكثر مرضًا ... □

البركة فى البكور !

كنت أقول لنفسى وأنا تلميذ صغير : عندما أكبر سوف أنام متأخرًا جدًّا وأصحو متأخرًا جدًّا . وسوف أصحو مع الغروب وأنام مع الشروق وأن أكون واحدًا من أبناء الليل .. وأن أمشى فى ضوء النجوم وأتقلب فى شعاعات القمر .

كنت أقول لنفسى : إن التلميذ فقط هو الذى ينام متأخرًا ويصحو مبكرًا ، أو ينام مبكرًا ويصحو مبكرًا ، فقد اعتدت أن أصحو من نومى فى الساعة الخامسة صباحًا ، من كل صباح ، وإذا كنت مرهقا جدًّا ، نهضت فى الخامسة والنصف . وإذا أخذت حبوبا منومة صحوت فى السادسة إلا ربعًا ، ولم يحدث إلا فى حالات نادرة جدًّا أن صحوت فى السادسة والنصف

وتخرجت فى الجامعة وعملت وأصبحت أكثر حرية . ولكن عاداتى هى قيودى فأنا أصحو مع الديك وأحيانًا قبله كأننى مكلف بإيقاظه . ولم أفكر مطلقًا فى أن أبحث عن وسيلة لتغيير هذه العادة ، انتهى كل شىء . وأصبح النهوض مبكرًا نوعًا

من القضاء والقدر ، وليس عليَّ إلا أن أجعل هذه اليقظة شيئًا مفيدًا ونجحت فى ذلك فأنا أصحو مبكرًا أقرأ وأكتب ، فى تركيز شديد أربع ساعات أو خمس ساعات ، وبعد ذلك تصبح حياتى اليومية نوعًا من النشاط اليدوى أو العقلى أو نوعًا من العلاقات الاجتماعية الضرورية .

وأصبح من أهم الأعباء التى أئن تحتها هو أننى أريد أن أفلت من هذه العادة .. أريد أن أقوم من النوم على مهل .. وليس بهذه الصورة المفزعة .. فأنا إذا فتحت عينى اعتدلت فورًا .. كأننى اكتشفت فجأة أننى كنت أنام على شريط الترام وفجأة سمعت صوت عجلاته ... ولذلك فأنا أنهض لأقف بعيدًا عن عجلات الترام .

وطبعًا إننى أكتشف أنه لا ترام ولا قضبان . وأنه لا أمل فى العودة إلى النوم تحت عجلات الترام ، ولابد أن أشغل فراغى أو أرقى أو قلقى بشىء مفيد .. وشغلت نفسى وانشغلت واستغرقنى العمل اليومى . واكتشفت أننى رغم تجاوزى كل مراحل التلامذة والطلبة فلا أنا تلميذ ولا أنا خريج فأنا ماأزال (تلميذا) أنام مبكرًا وأصحو مبكرًا ولا أعرف متى أنام متأخرًا وأصحو كذلك .. إننى لا أحسد الذين ينامون على الجنب الواحد حتى الظهر ، ولكن أرثى للذين مثلى والذين يتقلبون على الجانبين ويحلمون بالنوم .. □

الأم تدفع الثمن ؟!

في يوم من الأيام كنت مبهورًا بالطريقة التى خلق بها الإنسان . وكنت أتمنى لو كانت لى حياة أبينا آدم عليه السلام . فالله قد خلقه من (أديم) الأرض أو من ترابها . فهو إذن بلا أب ولا أم . يتيم . أو اليتيم الوحيد . وأدركت لماذا كان أبونا آدم رقيقًا مسالمًا أمام ابنته وزوجته حواء .. فهو أبوها وهو زوجها . وقد جرب الحياة بغيرها .. جرب الوحدة الرهيبة ، حتى لو كانت فى الجنة . ثم إنه كان مضطرًا إلى الحياة معها . فلا اختيار أمامه .. إما هى وإما عذاب الوحدة ..

ولكن الوحدة الممكنة التى تصورتها وكنت سعيدًا بها هى أن يكون الإنسان يتيمًا .. يولد هكذا .. لا أب ولا أم ... ولكن عرفت بعد ذلك أن التعاسة هى مصير اليتامى ، والقسوة هى عقوبة كل من يرتبط بإنسان يتيم – وهذه قصة طويلة ..

وتصورت يومًا ما أن الطفل اللقيط أحسن الناس حالا . بشرط أن يكون هذا

اللقيط فى بلد أوربى . فهناك لا يشعر بأنه لقيط . ولا يكتبون فى شهادة ميلاده أو جواز سفره أن أمه قد ألقت به فى مكان ما ، ثم جاء بعض الناس والتقطوه – كما حدث للنبى موسى عليه السلام . وليس من الضرورى أن تسير أمه وراءه حتى تتسلل إلى قصر فرعون لترضعه – يكفى جدًّا أن يشعر الابن أنه بلا أب يعرفه ولا أم .

وتابعت باهتمام شديد ومنذ سنوات تجربة المستعمرات الإسرائيلية – الكيبوتز – حيث يبعدون الطفل عن والديه تمامًا . فيعرف أن أمه إسرائيل وأن أباه صهيون . وأن أعداءه العرب ، وأنه سيد الكائنات كلها – وهى درجات مركزة من الحقد والتعالى على كل الناس وفى نفس الوقت لا تولد فى الطفل عقدة (أوديب) – أى الارتباط بالأب ، ولا عقدة (الكترا) أى الالتصاق بالأم . وبذلك يكون الأطفال بلا مشاكل عائلية ولا عقد جنسية ..

وكتب علماء اليهود عن هذه التجربة كثيرا جدًّا . وقالوا : إنها فرصة لتصحيح الأخطاء الإنسانية كلها . انظروا إلى الأطفال ..

وذهب الناس يتفرجون على أطفال فى غاية القسوة والصلابة والجفاف – أى بلا إنسانية – فلا حنين للأب ولا امتنان للأم . ولا رغبة فى أن تكون لهم أسرة خاصة ولا أولاد .

ويبدو أن إسرائيل بدأت تعدل عن هذه التجربة . فالأطفال فى غاية الحزن والجفاف والجمود والقسوة ، والأمهات أكثر حزنًا . أما الآباء فالأمر لا يعنيهم . فدور الرجل فى أن يكون له طفل دور تافه .. ولكن التى حملت وولدت وأرضعت ثم حرمت من الأمومة ، هى التى تدفع الثمن غاليا من العذاب ..

والخلاصة : ليس أحسن ولا أسوأ مما نحن فيه : أن نكون أبناء نبكى على أمهاتنا وآبائنا ونلعن البنوة والأبوة معًا .. □

إضافة إلى حكايات عذاب !

الأساطير القديمة هي حكايات عذاب . ففيها تقسو الآلهة على الكائنات الأخرى ويحولونها إلى حيوانات أونباتات أو أحجار أو مياه .. أو يعيدونها إلى الحياة وهكذا ذهابًا وإيابًا لأسباب منطقية جدًّا ولكن وراء كل هذه التحولات الأليمة نزوات الآلهة . ومن صور التعذيب أيضًا أن الآلهة عند الإغريق حاقدون على البشر . وملحمة الأوديسة والإلياذة وماكتبه الشاعر اللاتيني أوفيد (٤٢ ق .م — ١٨ م) هي كلها ينابيع النار والدمار والهوان لكل الآداب العالمية ..

ولابد لكل قارىء مثقف أن يمر بعينيه أيامًا على واحد من هذه الأعمال الكبرى ، لأنه سوف يجد صداها في كل الآداب العالمية القديمة والحديثة ..

ولابد أن د . ثروت عكاشة يجد لذته الكبرى في أن يتحدى الأعمال الأدبية والفنية العسيرة . ومن هذه اللذة يتكون إقباله على الأعمال الأدبية البعيدة عن تناول المثقفين . ثم يجعلها بعيدة مرة أخرى عندما يختار لها إطارًا فخمًا . أو لعله بذلك

يريد من القارىء أو المثقف ألا يقرأها واقفا فى الترام أو فى الفراش إنما يجب أن يقرأها وهو جالس إلى مكتبه وقد حشد لها كل قوته ليتمتع بالفرجة عليها ، والتأمل فيها .. وأحدث أعمال د . ثروت عكاشة ترجمته لكتاب مسخ الكائنات « للشاعر اللاتينى أوفيد وأخرجه مع لوحات فنية جميلة عالمية الأستاذ عبد السلام الشريف ..

والشاعر اللاتينى أوفيد ممتع فى كل ما كتبه وإن كانت كتبه الممنوعة وخصوصًا كتابه « فن الحب » هى أروع ما كتبه شاعر فى كل العصور فهو فى كتاب « فن الحب » « ذئب » فى المقام الأول وهو قادر على صيد فرائسه بشراسة وسفالة ولذلك ثارت عليه الأسرة المالكة والنبلاء ونفوه حتى الموت ..

ولكن بقى الشاعر وفن الشاعر ، وبقى كتابه الفخم الذى هو موسوعة العذاب الإغريقى والذى أحكم د . ثروت عكاشة ترجمته وصياغته وقدمه بكل إخلاص إلى المكتبة العربية .. وإن لم يقدمه إلى القارىء العربى ، فالكتاب ضخم الحجم غالى الثمن . وكان فى استطاعته أن يقدمه بقروش معدودة لولا أن د . ثروت عكاشة قد « اندمج » فى الروح الإغريقية .. فهو أيضًا جعل النظر إلى الكتاب والعجز عن شرائه إضافة جديدة إلى أهوال العذاب التى جاءت فى ديوان الشاعر أوفيد .. □

الحى أبقى !

عندما فاز برناردشو بجائزة نوبل فى الأدب ، أعلن أنه سعيد بقيمتها المالية ، وليس سعيدًا بوزنها الأدبى . وقال أيضًا : إن هذه الجائزة تشبه طوق النجاة الذى ألقى للغريق بعد أن وصل إلى الشاطىء ..

أى أن برنارد شو قد تسلم الجائزة عندما لم يعد فى حاجة إليها . وأنه كان فى حاجة إليها قبل ذلك بعشرين عامًا . أى عندما كان قادرًا على الاستمتاع بها . أو كانت الجائزة حافزًا له على العمل والإبداع ، ومشجعة له على احتمال أهوال الفن والناس ..

أو بعبارة أخرى جاءت متأخرة جدًّا ..

وما يقال عن جائزة نوبل العالمية ، يقال عن جائزة الدولة التقديرية . فالمفروض أن هذه الجائزة ليست كفنًا يوضع على نعش الأديب أو الفنان أو العالم .. وإنما هى حفلة تكريم لرجل قادر على أن يجلس وأن يستمتع وأن يقف بقوة وحيوية ليكمل عملا أدبيًّا أو فنيًّا ..

وفى السنوات الأخيرة ابتدعنا تقليدًا هو أن نعطى هذه الجائزة للمتازين الذين ماتوا قبل أن تكرمهم الدولة . ولا بأس بهذا التكريم فإن أحدًا لا يعرف متى يموت الفنان . ولا هو يعرف أيضًا . ومن الواجب أن نكرم القيم الرفيعة التى عاش من أجلها أبناؤنا الممتازون ، أحياء أو أمواتًا .

ولكن هذا التكريم لا يسعد الموتى . ولكن يسعد بعض الأحياء ويتعسهم أيضًا .لأن الناس يتساءلون مرة أخرى : هل من الضرورى أن يموت الإنسان ليصبح قيمة رفيعة عند مواطنيه ؟ هل مكتوب على الفنان أن يعيش ميتًا ، فإذا مات بعثه المواطنون على الورق ؟ هل الموت بهذا المعنى هو أمل كل فنان حى ، ليكون تمثالا أو نعشًا فخمًا أو مقبرة كبيرة أو جنازة تقديرية ؟

إننا قد منحنا المرحوم محمد كريم جائزة الدولة التقديرية فقد كان رائدًا فى السينما العربية . وهو يستحق الجائزة . وكان يستحقها حيًّا . وهذه الجائزة تتمشى مع التقاليد المصرية العريقة : تقديس الموتى وتكديس الأحياء ..

وكنت أفضل لو أننا أعطينا الجائزة لواحد آخر من الأحياء ، فالأحياء أحق من الموتى بالتكريم والتشجيع على الاستمرار . إن كانت فى العمر بقية . ولكن جعل الجائزة للأموات فقط لا يغرى الأحياء لا بالموت . ولا بالحياة أيضًا – منتهى الظلم لأناس قد ظلمتهم الطبيعة بأن جعلتهم ممتازين بين أناس لا يعرفون إلا الجنازات الفخمة .. □

أين العمر الحقيق ؟ !

إذا كان يهمك ماسوف يقوله الناس عنك بعد ذلك ، فمن الأفضل ألا تنشغل كثيرًا بذلك . فالناس الذين سوف يقولون رأيهم فيك بعد عمر طويل ، أنت لا تعرفهم . ولا تدرى إن كانوا منصفين أو ظالمين ، أو كان لديهم من الوقت لكى ينصفوك وهم مظلومون ، أو يخلدوك وهم ضائعون أو يرفعوا الطين الذى على رءوسهم ويضعوك ..

فأنت تجد فى دائرة المعارف أن الفيلسوف العظيم فلان الفلانى قد ولد سنة كذا ومات بعدها بسبعين عامًا . وكان مثيرًا عنيفًا وأحبه الناس وله ستة من الأولاد . انتهى كل ما يمكن أن يقال عن رجل عاش هذه الفترة الطويلة وأثار وأمتع الناس . وأنجب أولادًا لهم حياة معه وبعده . ثم مات . انتهى ..

وقد انشغل بعض المفكرين بما سوف يقوله الناس بعد وفاتهم . ولذلك فضلوا أن يسبقوا الناس إلى هذا الكلام . كتبوا مذكراتهم وتاريخ حياتهم . ونشروه وهم أحياء حتى لا يعطوا لأحد فرصة أن يقول عنهم ما يشاء .. وبعضهم نشر نعيه قبل

وفاته مثل برناردشو .

ووفر على الناس أن يمشوا فى جنازته . واكتفى بدعوته بعض الحيوانات التى أحبها فلم يأكل لحمها ..

وبعضهم كتب على قبره : لم يمت ولكن دفن حيًّا ..

أوكتب على قبره يقول : ولد يوم ٣ أغسطس ومات يوم ١٢ أغسطس . وعاش قبل ذلك أربعين عامًا ..

ولما مات كتب أقاربه أيضًا أنه مات بعد هذا التاريخ بأربعين عامًا أخرى . أى أنه عاش فقط تسعة أيام . هى التى يمكن أن تسمى عمرًا حقيقيًّا ..

وفى كتاب عربى قديم نشره د . حسن حبشى بعنوان « أنباء القمر بأنباء العمر » من تأليف العسقلانى يقول فى صفحة ٣٢١ عن أحد رجال الدين : اسمه محمد عبد الله بن عمر بن يوسف المقدس الحنبلى المعروف بابن الملكى شمس الدين ولد سنة ٧٥١ هجرية وتفقه قليلا ولازم مجلس القاضى شمس الدين بن التقى ، وولى رئاسة المؤذنين بالجامع الأموى ، وكان من خيار الناس جهورى الصوت حسن الشكل طلق الوجه منور الشيبة . مات بعد أن أصيب بعدة أولاد كانوا أعيان البلد فى التجارة والوسامة فماتوا بالطاعون .

هل عرفت كم نصيب الرجل وما الذى أصابه بعد ذلك فى حياة استغرقت تسعين عامًا : خمسة سطور ؟؟

مع أن لهذا الرجل ، ولملايين الرجال الآخرين حياة أطول وأعرض وأعمق ولكن الذين من بعده ومن بعدنا ليس عندهم وقت ولا صبر .. ولا رحمة .. □

البعض يمسح البعض الآخر !

ما الذى تشعر به وأنت تتفرج على فيلم عن الحرب العالمية الثانية أو الأولى أو حروب التحرير ؟

أنت أمام قصة مدروسة محبوكة مركزة. أو بعبارة أخرى : كل شىء فيها مكثف. فوقت الفيلم قصير والأحداث كثيرة. والمتفرج مشدود. وهذه « الشدة » النفسية يجب أن تنفرج فى النهاية . فإذا انفرجت كان هذا هو الثمن الذى يتقاضاه كل الذين اشتركوا فى التصوير والتمثيل والإعداد والإخراج والإنتاج ...

ولكن الشاشة التى ترى عليها أفلام الحرب ، ترى عليها أيضاً أفلام رعاة البقر والعصابات وكلها مصنوعة بدقة وبراعة . وكلها تمثيل فى تمثيل . فلا الذى أصيب مات حقًّا ، ولا الذى مات لن يظهر فى فيلم آخر ، أو ينهض بعد أن تتحول عنه الكاميرا . فأين - إذن - الحقيقة وأين التمثيل ؟ أين التاريخ وأين النكتة ؟

من المألوف جدًّا أن تتفرج على الأفلام وأنت تأكل وتشرب ، وأن يجلس إلى جوارك أطفال صغار . دون خوف . لا هم خائفون ، ولا أنت خائف عليهم من

الخوف ، فأنتم جميعًا تتفرجون على حدوته مثيرة . وتنتهى الحدوته مع الأكل والشرب وظهور إعلانات عن المأكولات والمشروبات والأغانى .. وكلها مثل أمواج البحر ، بعضها يمسح البعض الآخر .. ولا نهاية للأمواج ولا نهاية للأفلام والإعلانات والأغنيات يومًا بعد يوم .

فإذا كان الغرض من هذه الأفلام هو « تبشيع » الحرب – إذا صحت هذه الكلمة فإن أحدًا لا ينظر إليها كذلك . وإذا كان الغرض هو هز مشاعر الناس حتى لا تصبح حياتهم مملة ، فإن الهز المستمر ، مثل الصراخ المستمر ، يسد الآذان ، ومثل تناول الشطة يجعل اللسان يفقد الإحساس بها وبأى طعم آخر . وكذلك هذه الأفلام لا تجعل الناس يكرهون الحرب والدم والعنف ، إنما يطلبون المزيد منها .. يطلبون الجديد من الأفلام المسلية المثيرة المشهية : أى التى تفتح الشهية إلى الأكل والشرب والنوم بعد ذلك انتظارا لأفلام أخرى .. □

جاء العتاب من بعيد !

حدث

ماكنت أخشاه – مع الأسف ..

قبل أن أسافر إلىالجزائر قيل لنا : إنهم حساسون جدًّا ..

ونحن حساسون أيضًا للكلمة التى تقال عنا . ولكن الفارق أننا نضحك على أنفسنا أكثر مما يضحك علينا الآخرون . وما من جلسة أو اجتماع مع أشقاء عرب إلا يتحول بسرعة إلى مجلس أنس وطرب .. وتكون النكتة والضحكة على أنفسنا . ويشاركنا الأشقاء فى الضحك علينا ولا نجد فى ذلك حرجًا . وإذا أسعفتهم روح المرح بالضحك علينا شاركناهم وزدنا عليهم وتفوقنا أيضًا ..

وفى الجزائر ضحكنا كثيرًا .. وهذا طبيعى . لأننا شعرنا كأننا فى مصر . ونحن فى مصر نفعل ذلك ..

ولم تكن هناك حساسية فى الكلام الذى يقال بين أناس أعرفهم ويعرفوننى .. ويعرفوننا أيضا ، ولكن الكلام المطبوع هو الذى ينتقل إلى أناس لا يعرفون روحى العامة ، أو روحنا العامة وكيف أنه من الممكن أن يكون الإنسان جادًّا جدًّا وفى

نفس الوقت مرحًا ، أو يكون مرحًا وفى نفس الوقت جادًّا . ولابد من تطعيم الجاد الجاف بشيء من الخفة ..

وجاء العتاب من مكان بعيد جدًّا جدًّا ..

فقد كتبت فى « آخر ساعة » عن قرية اسمها « بنى يزجن » وهى من أعجب وأغرب قرى العالم وهى قرية ذات أسوار قديمة ومقفلة على أهلها وأكثر رجالها يعملون فى أماكن بعيدة . ولا يبقى فيها غير الشيوخ والأطفال والنساء ، أما الرجال فهم يشاركون فى كل الحياة العامة فى الجزائر . وأكثرهم من التجار الناجحين . ولأن المدينة مقفلة ولأن أحدًا – من الأجانب – لا يعرف هذه البيوت المغلقة ولا ما الذى يدور فيها ، ولأن أهل القرى المجاورة تحقد عليها ، فقد تولدت قصص وأساطير وخرافات عن جمال نسائها وعن حياتهن ..

ولم أضف من عندى شيئًا كثيرًا إلى ما سمعت ، إنما قارنت بينها وبين إمارات أوروبية مقفلة مثل جمهورية أندورا على حدود أسبانيا وفرنسا ومثل جمهورية سان مارينو فى إيطاليا .

ويبدو أن هذه المقارنة قد ضايقت الأخ كبارى عيسى من قرية « بنى يزجن » . ورغم أننى لا أعرف بالضبط ما الذى ضايقه وأغضبه إلى درجة « الهرش » اللغوى – أليس حساسًا جدًّا – فإننى أعتذر له عن روح المرح ، التى هى مصرية صميمة .. □

أم كلثوم : على العين والرأس !

أم كلثوم : هذه الظاهرة الفريدة فى تاريخ الغناء العربى والغناء العالمى أيضًا . لابد أن يحقد عليها الكثيرون من الرجال والنساء . الذين لهم علاقة بالغناء والموسيقى ، والذين لا يفهمون ولا يتذوقون الفن . لأنها بوجودها وصوتها واستمرارها تتحدى الزمن . وتتحدى الكسل . تتحدى الاستكانة . إنها لا تطيق أن يقال : «كانت سيدة الغناء العربى أربعين عامًا أو خمسين عامًا . إنها تريد أن « تكون » سيدة الغناء وسفيرة العرب إلى العرب فى كل مكان . ومتعة الأذن . كل أذن سمراء أو سوداء أو صفراء . أو بيضاء .. وهى التى وحدت بين العرب قبل أن يتفقوا أو يختلفوا على حدودها الحديثة ..

لم تكن أم كلثوم قضية « مطروحة » .. وإنما هى قضيةمسلم بها .. لا خلاف عليها ولا اختلاف فى شأنها . إنها بديهية فنية . وهى لذلك ليست واردة فى اتفاق أو معاهدة أو حلف .. لأنها قبل وبعد وفوق الأحلاف والمعاهدات ..

ولابد أن أم كلثوم ظاهرة « تغيظ الكثيرين من الناس الذين حطمهم الزمن

وغيرهم وبدلهم وألقى بهم إلى جوار الحائط أو داسهم أو ترفع عن أن يدوسهم وهى فى مكانها فوق .. على العين والرأس ..

وأم كلثوم لم تبلغ هذا السمو الفنى بجهود عام أو عشرين أو أربعين . إنها تعبت وتعبت . وهى ككل إنسان يمرض ويشفى ويحتار ويتردد ويتردى . إنها بشر . ولكن حنجرتها ليست منها ، ولا من عندها . إنها هبة السماء . وكان من الممكن أن تضيع هبة السماء لو لم يعطها الله أيضًا إرادة من حديد على البقاء والنقاء . ولذلك فقد صانت ما أعطاها الله . فصانها الله لنفسها وللملايين من العرب فى بلادنا ووراء البحار .

ولم يكن يتغير شىء من أم كلثوم ولا من صورتها ولا من صفتها لو قالت لنفسها أو للناس : إلى هنا وكفى ..

فاالذى قدمته للملايين كان يعطيها هذه الحرية المتواضعة : ان تمدد رجليها على أى شاطىء أو فوق أى جبل فى لبنان أو سويسره وتملأ صدرها بالهواء وهى مستريحة الضمير ..

وكان من حقها أن تستريح كما يفعل بعض الناس . ومن حقها أن تستمتع بمجدها وأن « تشم » نفسها وأن تنتقل بين القارات ملكة على عرش أقيم على الاستفتاء الحر المباشر . ولكنها مثل جندى يريد أن يقوم بواجبه حتى آخر أنفاسه .. منتهى التفانى فى الفن وفى الناس . □

اقرأ وأنصح بالقراءة !

هناك قاعدة من النقد الأدبي تقول : كل فن لكى يكون أفضل يجب أن يبشر به ناقد أو يفسره ثم يدافع عنه بعد ذلك .
والذى يقال عن الفن والأدب يقال عن أشياء أخرى كثيرة لابد أن نرعاها ونهدى الناس إليها ثم نحميها لتكون شيئًا أفضل .

مثلا : عادة القراءة .

لابد أن تكون القراءة عادة أى لابد أن نجعلها عادة ولابد أن نختار ماهو أنفع فهناك أشياء كثيرة تمكن قراءتها وأشياء تافهة ولكن وسائل الإغراء إليها كثيرة . كأن تكون عارية أنيقة مثيرة – هذا فقط بينما الكتب أو المجلات النافعة لا تكون بهذه الأناقة والإثارة .

نحن الآن على مدى أيام من الصيف أو العطلة الطويلة . والساعات المكدسة فى الليل والنهار ولا يمكن أن يقضيها الإنسان ممددًا على الأرض أو على الرمل وبذلك تتراخى عضلاته وأعصابه أيضًا . ولا عيب فى هذا الاسترخاء لأن الراحة ضرورة

ولكن الراحة ليست معناها أن يتعطل العقل الإنسانى ولا ينشغل بشىء ولكن معناها أن يعمل العقل على مهله أى بمتعة وأن ينشغل الذهن بما يفيد بلا ضغط ولا إكراه .

ويكفى أن تقول لشاب خذ هذا الكتاب المفيد وحاول أن تنشغل به وقد يقرأ الكتاب فى يومين ويمتدحك على أنك نبهته إليه ولو قلت له بعد ذلك إن هذا الكتاب سوف يكون مقررًا عليه فى العام القادم فإنه يشعر بشىء من الندم على أنه قرأه وسوف يشعر بشىء من القرف إذا اضطر إلى قراءته بعد ذلك ، لماذا ؟ لأنك أكرهته على القراءة وأرغمته على الفهم ثم سلبت منه متعة القراءة الحرة .

وليس أروع ولا أمتع من أن تقرأ مايعجبك ومايفيدك فالقراءة هى راحة العقل وجنة الخيال ومهبط الوحى ومنبع الحضارة . ولذلك يجب أن تقرأ وتقرأ وأن تنصح كل أحد بذلك . ☐

.. تنقصها الفرصة !

لا وجه للشبه بينى وبين أول رائد للفضاء : جاجارين . ولكن هناك مناسبة تجعلنى مضطرًا إلىالمقارنة . لقد قرأت فى كتاب صدر أخيرًا بقلم رائد الفضاء عن تجاربه فى الطيران وفى القفز بالمظلة .. وهو يؤكد دائمًا أنه كأى إنسان يخاف ويضطرب ويتوهم . ولايدعى أن قوته خارقة للطبيعة وإنما هو إنسان له تجارب وعنده معلومات . ويريد أن يعرف أكثر . يقول إنه عندما طلبوا إليه أن يسقط بالمظلة من الطائرة شعر بالخوف الشديد . ولم يتصور أنه سوف يسقط كقطعة من الحجر إلى الأرض سالمًا . وسمع من يقول له : استعد .

ووقف فى حالة استعداد .. ثم سمع من يقول له : الآن اقفز .

ولم يشعر بأى شىء ، لم يشعر بأنه قفز ولا بأنه سمع الأمر أو أطاعه ولكنه فقط وجد نفسه فى الهواء وبعد لحظات لا يعرف كم طولها وجد المظلة قد انفتحت فوق رأسه . وشعر بشىء من النشوة والأمان . إنه الآن فى طريق السلامة . ولكن فى نفس الوقت أحس باقتراب الأرض . مع أن المسافة بينه وبين الأرض كانت ماتزال

كبيرة .. ولكن فى داخله رغبة فى الاستعجال لكى يصل إلى الأرض ويستقر عليها .. وسمع الجنود الآخرين حوله وفوقه يضحكون ويتصايحون .. وكاد ينشغل عن النظر إلى الأرض . ثم نظر إلى الأرض وكانت مغطاة بالجليد .. ثم وضع ساقيه بالشكل المناسب وهبط فى الجليد .

وانتهى كل شيء فى ثوان معدودات .. ولم ينم الليلة السابقة على القفز .

ويقول جاجارين وزميله الطبيب الذى شاركه فى تأليف الكتاب : إن الخوف طبيعى والشجاعة طبيعية والتغلب على الخوف أيضًا طبيعى . ولا يوجد أناس لهم قوى خارقة ولكن كل الناس فى داخلهم قوى خارقة تنقصها الفرصة لكى تظهر . والتدريب لكى تستمر . فإذا نجح مرة ، أصبح ممكنًا عشرات ومئات المرات .

أقول هذا وأكرره ولا أصدقه ، أما المناسبة فهى الصيف واقتراب الناس من الماء ، ماء الحمامات أو البحر والرغبة فى السباحة .. أى مجرد الطفو على الماء وقد حاولت ذلك عشرات المرات والنتيجة أننى كالذى يقفز من طائرة ولا تنفتح المظلة . وإذا كان جاجارين يحاول أن يقول إن كل الناس مثله أو كل الناس متشابهون فإننى أقول : إلا أنا .

ومن لا يصدقنى فليأت ليتفرج على التفاعل الكيماوى الذى أقوم به فيتحول الإنسان إلى حجر بمجرد ملامسة جسمه للماء . □

باريس .. منتصف الليل !

أمامنا باريس الآن ... الدنيا ليل . الشوارع واسعة . مخططة . الأنوار باهرة . كل شيء مضيء حتى الطوب والشجر ، كأن النور هو الأصل والظلام للزينة فقط .

المطر ينزل رقيقًا . البرودة تلسع . ومن المتوقع أن تكون الدنيا أكثر برودة عندما يقترب منتصف الليل . ولولا التعب والإرهاق لتمنيت ألا نجد فندقًا لننام . فليس من الضرورى أن ينام الإنسان إذا زار باريس . ولكن التعب له أحكام أخرى يصعب استئنافها ، وقيل إنه من المستحيل فى هذه الليلة إن شاء الله ، أن نجد فندقًا لأى سبب . قيل إنه يستحسن أن نستأجر غرفة واحدة فى فندق كبير ونتناوب النوم على السرير أو على الأرض . إنها ليلة .. ودققنا أبواب الفنادق رغم اللافتات التى تؤكد أنه لا توجد أماكن خالية . وضحكنا عندما وجدنا أحد الفنادق قد علق لافتة تقول : إن العدد (فوق) اللزوم – لابد أن يكون معناها أن الناس نائمون بعضهم فوق بعض – وهذا طبيعى فهذه باريس – ولكن لم يكن

هناك أى داع لهذه الإشارة فالجميع يعلمون ذلك ..

وتنقلنا من شرق باريس إلى غربها إلى قلبها . وأخيرًا . عثرنا على فندق تروكاديرو فى شارع سان ديديه ، هناك غرفتان واحدة فى الدور الرابع ولا توجد دورة مياه ولا أسانسير وواحدة فى الدور الأرضى وبها سريران . أحدهما مكسور . فإذا قدر لأحد أن ينام على السرير المكسور فعليه أن يدفع مائة فرنك ثمنًا للسرير . ولذلك يجب أن ينام فى الغرفة اثنان . واختار أحدهما أن ينام على الأرض . وأن يصحو مبكرًا قبل أن يجيء صاحب الفندق ليضبطه متلبسًا بالتحايل على قانون النوم على السرير . وقبل شروق الشمس بوقت طويل كنا جميعًا قد ارتدينا ملابسنا وخرجنا إلى الشوارع التى هى أرحم وأمتع من الفندق ودخلنا إلى أحد المقاهى .. لنستريح على المقاعد وفى النية أن ننام ولو قليلا ولكن العين التى تذوق الموسيقى اللونية فى باريس لا تعرف النوم .. ونهضنا لنكون كلمات اعتراضية فى شوارع باريس . ولنكون فرصة لكى يفرق الناس بين شرقيين وغربيين وبين عاملين ومتسكعين يريدون أن يكملوا نومهم مشيًا على الأقدام أو يكملوا مشيهم نومًا على الأرصفة □

الحسد القومى !

وأنت جالس فى ساعة مبكرة من الصباح على أحد مقاهى باريس لابد أن تسأل نفسك : ما الذى جعل هذه المدينة لا نظير لها فى الدنيا ؟ إذا كانت الشوارع النظيفة هى أول مايلفت نظرك ففى العواصم الكبرى شوارع مثلها وإذا كان النشاط والحيوية هو الذى يوجعك .. أو هذا الذى يجعلك تحس أنك تعطل المرور وأنك واقف مثل اللقمة فى الحلق وأنه من الأفضل للنفس والأكرم لك أن تسند ظهرك إلى الحائط حتى لا تتلكأ الحياة بسببك ؛ ففى العواصم الكبرى أناس لهم هذه الحيوية وهذا النشاط وفى العواصم أناس يتسكعون مثلك ودون قصد إلا انتظار الساعة التى تفتح فيها المحلات والسفارات.

ولا يمكن أن يكون هذا الشىء (المألوف) هو الذى جعلك تؤمن بسرعة أن هذه هى باريس أما الشىء « المألوف » فهو أن تجد فتاة وفتى بسرعة خاطفة أمسك كل منهما الآخر واحدة .. اثنتان .. ثلاث .. أربع .. قبلات على الخدين .. والخامسة على الشفتين .

وقد تكون لك عقلية علمية فتشغل نفسك بمعرفة من الذى بدأ بالتقبيل .. وسوف تهتدى إلى أنها هى الفتاة التى تقبل الشفتين عادة ولا أعرف ماهى الفائدة التى تجنيها من هذه الإحصائية غير الحسد القومى والدهشة التى لا معنى لها ، وطبعا أنت لا تسأل نفسك وأنت تستنكر هذا المنظر فتقول مثلا : ما هذه الخلاعة ؟

سؤال وجيه . ولكن هذه الخلاعة ليست فى بشاعة الاغتصاب ومعاكسة الفتيات فى الشارع والأتوبيسات .. وليست مثل الذى يبصق على الأرض ويتبول إلى جوار الحائط - حائط دورات المياه بالذات ، وليست مثل خربشة الجدران والسيارات بمسمار وتمزيق مقاعد دور السينما .. وليست مثل إلقاء الورق وقشر البرتقال فى الشوارع على رءوس الناس .

وأسهل لك جدًّا إذا نظرت إلى الملابس والصحف التى فى أيديهم ، وإلى المحلات العامة وإلى المرافق الكبرى إلى النظام والدقة والعمل وجدية الرأى والفكر واحترام الآخرين لك ولهم ، هذا هو الذى يجعلك تحس أنك فى باريس وأنك أنت أيضًا من كوكب آخر .

ومددت يدى إلى لقمة عيش أبيض جميل وقلت : وحياة هذه النعمة - إنها بالفعل نعمة . ومع ذلك فأهل باريس لا يحلفون عليها وفى بلاد أخرى يمدون أيديهم إلى الخبز - الذى هو ليس أبيض وليس نظيفًا ويحلفون « بهذه » النعمة . وهم كاذبون - لأنها ليست نعمة . □

لم نعد نصلح !

ونحن صغار ، كان يقال لنا إن التراب الذى تذروه الرياح يسقط من فوق السحاب . وإن الملائكة تكنس السماء على سكان الأرض ولم نكن نناقش هذه المعانى ؛ لأن معناها أن السماء مثل الأرض بها تراب وبها كائنات تغسل وتكنس ، ويحدث فى السماء مايحدث عندنا فى الأرض : فنحن نلقى بالتراب على الناس ، ونلقى بالماء أيضًا ..وماء السماء الذى ينزل على الناس هو المطر .. والسحب هى رغوى رغاوى الصابون .

ومعنى ذلك أن الذى نفعله على الأرض يفعله سكان السماء ..

وكنا نجد أمثلة أخرى صغيرة تدل على ذلك .. فمثلا سقطت علينا ونحن صغار سمكة من السماء . ولم نندهش فكل شيء جائز . مادامت السماء كالأرض . ولم يفكر أحد منا أن تكون هذه السمكة قد سقطت من بين فكى غراب أو حدأة .. ولكنا كنا نؤمن بأن السمكة سقطت من السماء كالتراب والماء والصابون ..

وفى الأيام الأخيرة انقلبت الأرض على السماء أو السماء انطبقت على الأرض

وهبت عواصف رملية دخلت كل بيت .. وأحاول عند الفجر وبكل الحيل الممكنة أن أصد الهواء بقفل الأبواب والنوافذ فلا أفلح ، وحاولت أن أنام فلم أستطع وأن أعمل فعجزت . وعلى الرغم من أن هذه العواصف الرملية تهب علينا بانتظام من الوف السنين . ونحن نتوقعها ونعرف موعدها فإن أحدًا لم يخترع وسيلة واحدة للوقاية منها . مثلا : لا توجد عندنا نوافذ محكمة ولا أبواب . ولا توجد عندنا تلك العادة الأوربية بأن نضع وسائد أمام النوافذ أو وراءها استعدادًا لهذا اليوم الرهيب . ولا اخترعنا مثل الأوربيين وسائل وأدوات للوقاية من المطر ومن الرعد .. والثلوج والسيول والأوحال والبرودة . وإنما نحن نعرف هذه الأيام ونتركها على الله ..

ويوم هبت هذه العواصف بصورة خانقة أحسست أن السماء قد ضيقت على سكان الأرض لعلهم يموتون جميعًا وتسترد السماء أرواحهم .. لأننا لا نصلح للحياة على الأرض .. ولعل الله يريد أن يأتى بخلق جديد – كما يقول فى القرآن الكريم .. اللهم فافعل فقد تعبنا من الحياة .. وأتعبنا الحياة أيضًا . □

الجميع عرب !

حساسون جدًّا إخواننا الجزائريون وهم حساسون لكل ما يقال عنهم أو ما يقال ضدهم فى مصر. وهم فى كثير من الأحيان يفهمون أشياء لا تخطر على بال. ولا يمكن أن تخطر على بال أحد. مثلا: هل من المعقول أن يتصور الجزائريون أو المصريون أننا نريد الاستيلاء على الجزائر. وكيف؟ ولماذا؟ وأى حق لنا فى ذلك؟

ولكن بعضهم يفهم ذلك من كلمات طائشة لأى أحد من الناس.

مثلا قال لى مسئول جزائرى مثقف جدًّا إن الأستاذ مصطفى كامل السيد حسنى قد كتب مقالا فى إحدى الصحف اليومية يقول فيه: إن أبناء الجزائر لا يفهمون النكتة إلا بعد أن تقولها عشر مرات، وإلا بعد أن تضحك أنت فى المرات التسع.

ويسألنى: هل هذا يليق؟

وقلت: من واحد قليل الذوق يليق جدًّا.. ولكن أنا أعترف أن هذا غير صحيح. فقد جلست إلى جزائريين وضحكت ساعات طويلة. وتبادلنا النكت.

هم ينكتون علينا ونحن أيضًا . ولم نغضب أنهم ينكتون علينا . لأننا عادة نفعل ذلك . ثم إن التنكيت علينا فيه تحية لنا . لأنهم يروون نكتًا مصرية أيضًا ..

وقلت للمسئول الجزائرى : هل قرأت ماكتبه إبراهيم إبراهيم حسنى عن الحياة فى الجزائر وكيف أن أخاه عمل مدرسًا هناك . وتزوج هناك أيضًا . وهو سعيد بحياته وزوجته وأولاده ... ولا يغضب عندما يقول أولاده : نحن جزائريون . ويكون رده : لايهم .. نحن جميعًا عرب ومن المشرق أو من المغرب . نحن عرب وهذا شرف للجميع .

وقال المسئول : لا أعرف هذا الأخ إبراهيم إبراهيم حسنى .. وقلت له : وأنا لا أعرف هذا الأخ مصطفى كامل السيد حسنى ..

فهناك إذن مجهولون يمدحون ، ومجهولون يداعبون .. ولكن الذين نعرفهم جميعًا هنا وهناك ، عرب أو يريدون أن يكونوا عربًا .. ويشرفهم ذلك .. □

عزيزى : طال عمرك !

عندما سئل برنارد شو : كيف بلغت التسعين ؟
وكان جوابه الحاد : لا شىء .. لا آكل لحوم الحيوانات واستطعم لحوم البشر .
ويقول : إنه هكذا كان نباتيًّا :

ولما سئل الفيلسوف برتراند راسل : كيف بلغ التسعين ؟ قال : لم أتوقف عن البحث عن السعادة العقلية – أى أنه كان فيلسوفًا كل الوقت ..

ولما سألوا تشرشل : وكيف بلغت الثمانين ؟

قال : السجائر فى فمى والفرشاة فى يدى والنوم ساعتين بعد الغداء ..

وسئل عشرات المعمرين فقالوا : النوم المبكر .. واللبن الزبادى .. وعدم شرب الخمر وعدم التدخين .

وأخيرًا سئل عازف التشيلو العالمى الذى بلغ الرابعة والتسعين من عمره : كيف وصلت إلى هذه السن ومازلت بهذه الصحة :

وبسرعة امسك آله التشيلو – وكأنه يريد أن يمسك الخشب حتى لا تصيبه العين وقال : لا معجزة فى ذلك .. فأنا منذ ثمانين عامًا أصنع نفس الشىء أعزف ساعتين فى اليوم . وأشعر أن كل يوم هو يوم جديد . وأن الذى أراه أمامى قد ولد لأول مرة . وأجد لذة فى الطعام وفى الشراب . وأعيد النظر والسمع والشم واللمس لكل ماحولى .. هذا المقعد تأملت ألوانه كل يوم .. والإنسان يعيش أطول إذا كان حاضرًا دائمًا . إذا لم يغب عن الحياة ، وإذا جعل الحياة لا تغيب عنه .. فالموسيقى ليست واحدة . والطبيعة ليست واحدة . وأنا لست نفس الشخص الذى كان بالأمس والذى سوف يكون غدًا . وإذا مت فمعنى ذلك . أننى توقفت فقط هذا ما أعمله ..

وكأنه قال شيئًا سهلا يمكن لأى إنسان أن يفعله . إنها موهبة عظيمة أن يولد الإنسان مرة واحدة ، ولكن أن يولد كل يوم هذه إحدى المعجزات ..

ومنذ أسبوعين سئل رجل من الدقهلية تجاوز المائة عام فأجاب : ولا يهمك ..

ولا يهمك من الناس ومن مصائب الناس . ومن الحياة ومن مصائب الحياة التى هى الناس كلام معقول .. ولكن كيف ؟

قليلون فى هذه الدنيا من يستطيعون أن يفعلوا ذلك . فإذا فعلوا طالت حياتهم .. ولكن أى حياة هذه .. □

إننا مفردات الحقيقة الكبرى !

علمني أبى كيف أتذوق الشعر وأحفظ ألوف الأبيات فى سن صغيرة وحفظت القرآن الكريم وأنا لا أفهم منه إلا القليل . وأكثر المعلقات حفظتها قبل دخولى المدرسة الابتدائية .. وكان أبى يرحمه الله شاعرًا رقيقًا وفى يوم ضبطنى أروى شعرا لا يعرفه هو وسألنى : من الشاعر ؟ قلت : محمود حسن اسماعيل وهذا ديوانه : أغانى الكوخ .

ولم يكن أبى قد قرأ عن الشاعر محمود حسن إسماعيل . وكانت فرحتى باكتشاف محمود حسن إسماعيل دون مساعدة من والدى هى التى جعلتنى أحفظ الديوان كاملا . وقد فوجىء الشاعر محمود حسن إسماعيل عندما وجدنى ، وهو لا يعرفنى — أروى قصائده مفتونًا بها على مسمع منه ومن المرحوم كامل الشناوى . وقد منى إلى الشاعر وكانت بداية صداقتنا الروحية .

وقد صدر للشاعر محمود حسن إسماعيل ديوانه الرقيق الشفاف (نهر الحقيقة) فى هذا الديوان نغمة جديدة : إن الشاعر يصادق الحياة ويصدق عليها . وفيه نوبة

من العذاب فكل ما تعذب به عاد إليه . فليس هناك شيء إلا الحقيقة .. أنا وأنت والحياة . والحقيقة أيضًا .

يقول :

وجودى حقيقة
وشدوى حقيقة
وما اشتقت دربا على ساعديه تموت الحقيقة
.. اغنى السراب لتنشق منه
ضفاف من النور تجلى طريقه
تخطت من راحتيه بروقه
وتغنى شقوقه
وتأتى به راكعًا للحقيقة
ويقول أيضًا :
وجودى حقيقة
وذاتى حقيقة
وأنى على الأرض طير يغنى : حقيقة
ونور الحقيقة سر الحياة وسر الأمل
بغير الحقيقة كل المعانى : سراب
ومن دونها كل شيء : خراب
على الحب قامت أصول الحياة : حقيقة
وبالخير يسقى هواها هواه : حقيقة

ويقول :

حبيبى : حياة

وحبى : حياة

وفى وجهه كل نور الحياة

وفيه الهوى والأمل

ويقول :

حياتى : حياة

وعمر جديد : آراه

فما فات منها : رحل

وماغاب فهو طريق الأمل

ويقول :

أرضى وما أقدسها : حياة

ترابها : حياة

ماؤها : حياة

وعيشها : حياة

نسيمها : قبل

وأفقها : أمل

ويقول عن النهر :

سكونه : حياة

ونطقه : حياة

والموج فوق صدره : صلاة

وبقية الديوان عناق طويل وصلوات وسلام وتسليم لكل ماهو جميل وجليل في الحياة .. إن الشاعر مثل حاج طاف وتعذب ثم استقر على شيء واحد أن الحقيقة هي الله وأننا حقيقة لأننا مفردات للحقيقة الكبرى . □

عجائب !

يقول الفنان الكبير يوسف وهبى إنه رأى فى حياته عجائب المخلوقات . فهو رأى رجلا يخرج يده من النافذة ليأتى بدجاجة مشوية على طبق ساخن نار . وفى الطبق شوكة وسكينة وملعقة وورقة عليها الحساب . وبعد أن يفرغ من طعامه يلقى بالطبق من النافذة وكذلك الشوكة والسكينة . أما الحساب فإنه يلقى بالجنيه من النافذة .. ثم يعود غيره إلى الهواء ويأتى ببقية الحساب .

ويقول يوسف وهبى إن هذه الواقعة قد سمعها من محمد باشا محمود .. أحد رؤساء الوزارات السابقين . وسمعها كثيرون أيضًا .

وقال لى توفيق الحكيم إن مسرحية (ياطالع الشجرة) قد استمد بعض وقائعها من شخص آخر غريب مثل هذا الذى تحدث عنه يوسف وهبى . فقد كان هذا الرجل يركب القطار بلا تذاكر فإذا جاء الكمسارى فإن الرجل يمد يده فى الهواء ويأتى بالتذكرة له ولعشرات غيره من الناس إذا أرادوا وكان الكمسارى يقف

مذهولا . ثم يقلب فى التذكرة ويجد أن كل شىء فيها صحيح : الورق والحروف والأرقام .. ولكن لابد أن يدفع ركاب القطار ثمن التذكرة وثمن الأكل وثمن الفاكهة وثمن أى شىء يطلبونه من هذا الرجل الغريب .

ومنذ فترة صدر كتاب للأديب الكبير آرثر كيستلر – المجرى الأصل الإنجليزى الجنسية يقول إن رجلا هنديا جاء لزيارته ولم يكن واضحًا فى الدقائق الأولى من اللقاء أن هذا الرجل يعرف عن هذا الأديب شيئًا . إنما فقط أراد أن يبهره أو يضيف إلى معلوماته شيئًا جديدًا شيئًا منطقيًّا أو فوق المنطق وكان كيستلر يبحث عن كراسة قديمة كتبها وهو فى العشرين من عمره ولم يعثر لها على أثر .. ولكن الرجل الهندى مد يده فى الهواء وأتى بها . وقلبها كيستلر وهو لا يصدق مايرى .. نفس الورق .. نفس الخط .. وكان مبهورًا سعيدًا وامتدت يد الرجل الهندى وألقى بها فى الهواء .. واختفى هو أيضًا .

وسأله كيستلر : أين ذهبت الكراسة .. فأجاب الهندى : إلى مكانها فى إحدى قرى المجر .

وكان حديثهما فى لندن ..

والله أعلم . □

أخيرا : فقد أيوب صبره !

كل عصر من العصور له « أيوب » الذى يصير على البلاء ولا يقول ، آه .
ويرى أن الصبر هو الوسيلة الوحيدة لتطهير النفس والسيطرة على الشيطان والطريقة الوحيدة إلى رضاء الله .

فكل إنسان يتصور أنه هو نفسه «أيوب» لأنه صبر ولم يقل شيئًا . وأنه مظلوم من كل الناس وأن الجنة مثواه والنار للجميع .

وكل امرأة ترى أنها هى وحدها «أيوب» فى كل وقت . وأنها صبرت وتعذبت بلا سبب وأن القاتل والمجرم والمعتدى عليها دائمًا هو الرجل : زوجها أو أبوها أو ابنها أو رئيسها ومن الممكن أن ينزل الرجل عن عرش العذاب ولكن المرأة لا يمكن أن تعترف بأنها ظالمة أو قاتلة أو مصدر تعاسة أحد من الناس . فالجلوس على العرش ، أى عرش ، مسألة وراثة .

وعندما أخذ المؤرخ الفرنسى كاستيلو يذكر عدد الصابرين فى تاريخ فرنسا لم يجد أحدًا له صبر أقسى من صبر أيوب مثل الملك لويس الرابع عشر . فقد عرض

حياته . وفى حياته توقف يلهث عند جميع أنواع العذاب والهوان . العذاب المعنوى كل أنواع الشك والهوان والقلق والخوف والهلوسة والعذاب الجسدى أيضًا . فلا يوجد مرض لم يعرفه جسم الملك لويس الرابع عشر . بل إن المؤرخ كاستيلو قد أمتع القارىء بالمحاورات التى دارت بين الأطباء الأربعة الذين عالجوا الملك وهم فالوودا كان وفابون وفليكس . فلا يكاد هؤلاء الأطباء يفرغون من عملية للملك حتى يتناقشوا فى موعد العملية القادمة وقد أجريت للملك – فى نهاية القرن السابع عشر – اثنتان وعشرون عملية جراحية ..

ولما شعر الملك بشىء من العذاب طلب إلى الأديب راسين أن يخفف عنه فذهب الأديب وأتى له بكتاب « حياة العظماء » للكاتب اللاتينى بلونارك وراح يقرأ له ومن الغريب أن راسين كان يرفع صوته حتى يعلو على صوت المعركة – معركة الأطباء مع المريض ومعركة الملك مع الأطباء وكان الملك يستعيده بعض السطور وأحيانًا بعض الصفحات .

وتشجع الأديب وهو مبهور بصلابة الملك فقال له : مولاى .. أما يزال عندك أمل فى هذه الحياة ؟

فقال الملك : لا يزال عندى أمل فى أن أرى هؤلاء الأربعة مرضى وكل الناس موتى .

أخيرًا .. فقد أيوب صبره ولكن قبل وفاته بيوم واحد . □

فلسفته : النذالة !

كازانوفا – رجل سيئ السمعة . لأنه نصاب ومغامر ومقامر وذئب الليل وجاسوس وسافل فى جميع الحالات . ولكنه مع ذلك كاتب وأديب وفيلسوف . ولكن من السهل أن يشتمه الناس ومن الصعب أن يمدحوه . لأن المدح يقتضى أن يقرأ الإنسان كتابه « تاريخ حياتى » الذى صدر منذ سنوات فى اثنى عشر جزءًا . وكازانوفا كاتب إيطالى ولد فى البندقية من أبوين يعملان فى التمثيل . وكازانوفا هذا يعلم منذ بداية حياته أنه لن يكون إنسانًا محترمًا . وذلك تعلق بالناس المحترمين . وحشر نفسه فى الطبقة الارستقراطية . رأيه فى هذه الطبقة : أنها مجموعة من الناس التافهين الكاذبين الراغبين فى التسلية بشرط أن يكون الضحية واحدًا منهم . وهم كسالى فى حاجة إلى جواسيس .

وكان يعلم أيضًا أنه أسهل جدًّا أن تغزو قلب المرأة من أن تغزو أصغر قلعة فى الدنيا . لماذا ؟ يقول لك الفيلسوف كازانوفا : لا توجد امرأة لا يغريها أن تقول لها إنك جميلة . هذه بديهية . مهما كانت قبيحة . ومهماكانت تسمع هذه الكلمة مليون

مرة فى اليوم ومن مليون شاب أجمل ، تظهر فى الوقت الذى تقول فيه هذه العبارة السحرية . عبقريتى هى أن أقولها فى الوقت غير المناسب . أى عندما يكون أى مديح نوعًا من المفاجأة لها . مثلا : « لو سقطت سيدة فى الوحل وانكسرت ساقها ، فى هذه اللحظة التى تذوب فيها عيون الناس كذبًا .. هنا فقط قل العبارة غير المناسبة .. قلها ولا تتردد . سوف تكون سخيفًا ووقحًا وسافلاً ، ولكن المرأة لن تنسى لك هذه الجملة مدى حياتها » وغير ذلك عشرات الأمثلة للسفالة المدروسة » ..

وأعجبنى لكازانوفا (١٧٢٥ - ١٧٩٨) رأيه فى الناس . يقول : ما الذى تريده من الناس ؟ لاشىء سوى أن يكونوا فى خدمتك . ما الذى تريده من خدمات الناس ؟ أن يكونوا جسرًا إلى مطامعك ؟ ما الذى تريده من المطامع ؟ أن تكون وحدك فوق أعناق الناس .. إذن لابد من الناس أردت أو لم ترد .. ولابد أن تقع فى خلاف مع الناس .. مدى حياتك ولكن كيف تنجو من سفالة الناس ؟ هناك حلول : أن تكون سافلا مثلهم .. وأن تتظاهر بالفضيلة وأنت كاذب .. وأن تتوارى خلف سيدة جميلة غنية ، هنا فقط تصبح جميلا فى عيون الناس ..

ويقول : علمتنى تجاربى أنه ليس أحقر من الناس إلا الناس ..

والكتاب ملىء بالتجارب والنوادر والحوادث التى وقعت فى نصف قرن فى بلاط الملوك والأمراء والأغنياء . والكتاب ممتع لولا أن المؤلف قد اختار أحط الناس وأحط الأشياء مادة لكتابته .. إنه فيلسوف فنان اختار الحقارة والنذالة - ولكنه يستحق الاحترام لأنه لم يخف عيوبه - وهذه صفة يفتقدها كثير من الكتاب .. □

الأكل « مهمة » !

الأكل

مثل : كرة القدم . أناس يأكلون وأناس يتفرجون وأناس يحسبون اللقمة على الذين يأكلون ..

فهناك أناس يهجمون على الطعام بقصد أن يلقوا به فى شبكة المعدة . وهذا هو المهم . ولكن ليس من الضرورى أن يجدوا لذة فى الطعام . لأن هناك فرقا كبيرًا بين أن تأكل وبين أن تستطعم الذى تأكله . وأكثر الناس يجلسون إلى الطعام وتمتد أيديهم هنا وهناك وبسرعة غريبة يختفى الطعام وينتهى كل شيء بعد ذلك . وبعد انتهاء الطعام يهجمون على مجموعة من العادات الأخرى : مثل النوم أو النزول إلى الشارع أو الذهاب إلى المقهى ... بنفس السرعة وبنفس المعنى . أما المعنى : فهو الانتهاء من هذا الذى أمامهم ..

وهناك أناس يتفرجون على الأكل .. ينظرون إلى الذى أمامهم . وقد يختار الواحد منهم لقمة من هذا ، وملعقة من ذلك . ثم يدفعون كل شيء بالماء أو الشراب .. والطعام فى حد ذاته ليس هو الأهم . وإنما الفرجة .. المشاركة

القعدة .. الكلام أثناء الطعام وليس الطعام نفسه . ولذلك بعض الناس يجد متعة فى أن يذهب كل يوم إلى مكان .. أو إلى بيت .. لتصبح للأكل لذة .. فهو يقوم بعملية « تغيير هوا » ليكون للأكل طعم مختلف ..

وهناك أناس يحسبون الأكل باللقمة والملعقة . وهؤلاء هم المرضى .. أو هم الذين لا يريدون أن يتضاعف وزنهم . فالمريض يأكل ويحسب كم لقمة وكم كوبًا . وأين يذهب هذا وذاك ، وماالذى يفعله اللبن مع السمك ، وما الذى يفعله البيض مع الكعك .. وما هى الأقراص التى يأخذها قبل وبعد وأثناء الأكل . إن الأكل يصبح نوعًا من الحرمان المدروس ، أو من الجوع المنظم أو الخوف الطبى ..

فى تقرير لمؤسسة التغذية يقول : إن أكثر الناس حريصون على الانتهاء من الطعام أى أنهم لا يأكلون ولكن يتخلصون من الطعام .. أو يتخلصون من الجلوس إلى الطعام . وهم بذلك لا يتمتعون ولا يجدون لذة فى الطعام ، أو لا يحاولون ، لا يجدون لذة فى أى شىء آخر .. لأنه إنسان يشعر أن الأكل « مهمة » ويجب أن يقوم بها والسلام .

وكذلك حياته يريد أن ينتهى منها أو ينهيها والسلام ، أو من غير سلام . □

التراب فى كل فم !

أول مايلاحظه السائح الأجنبى فى القاهرة أن بها الكثير من الضوضاء والتراب . وأنا أختلف مع السائح الأجنبى فى التراب . فالتراب عندنا يشبه الهباب فى كل الدول الصناعية فى أوروبا . وإن كان المطر يغسل الجو أحيانًا ، ويغسل الشوارع فى معظم الوقت . ولكن التراب الذى عندنا شىء آخر .. إنه ذلك الشىء الناعم الذى نجده فى الشوارع ، وعلى الأرصفة .. وفى الأيدى وفى الطعام .. والذى نراه أحيانًا على شكل حجارة وطوب وزبالة .. وأحيانًا نجده عمقًا على شكل حفر فى الأرض . وأحيانًا بارزًا على شكل دمامل أو أورام خبيثة فى الميادين .. وقد أصبح التراب عندنا من أهم التقاليد الشرقية العريقة مثل : القضاء والقدر .. والتواكل .. وانتظار اليوم الذى تمطر فيه السماء ذهبًا وفضة فلا يتعب أحد بالعمل ، أو لا يرهق الإنسان نفسه بالأمل ..

والتراب هو الكلمة الأولى فى « خطاب العرش » لكل محافظ يجىء إلى القاهرة أو الاسكندرية أو الجيزة – وهى المدن الثلاث التى تقع عليها عيون كل من يمسكون

الأقلام ويكتبون فى الصحف المصرية – وواضح جدًّا من مجرد النظر إلى الأرض بعين مصرية أو أجنبية أنه لا أمل ولكن لماذا ؟ الله وحده هو الذى يعلم ..

أما الضوضاء فهى تلك الأصوات التى تنطلق من كل سيارة وكل نافذة .. وكل ميكروفون بمناسبة انتقال أحد إلى بيت الزوجية أو إلى الدار الآخرة . فالانتقال من حالة إلى حالة يجب أن يكون مدويًّا . ولا يهم أبدًا إن كان ذلك على جثث المرضى أو الطلبة أو النائمين ..

ونحن بعد أن جربنا عدم استخدام أجهزة التنبيه فى شارعين أو ثلاثة فى القاهرة ، لا نذهب إلى التوسع فى التجربة فنلغى أجهزة التنبيه فى كل العاصمة . لماذا ؟ الله وحده يعلم .

وهكذا ننتهى آخر الأمر إلى أن القاهرة – فعلا – هى مدينة الهباب والضوضاء تمامًا كما يراها أى سائح أجنبى . ونندهش مثله تمامًا لماذا هى كذلك ولماذا لا تكون مثل كل العواصم أو المدن الأخرى فى العالم والتى رآها مئات الألوف من المصريين وفى مقدمتهم كل رجال المحافظة والمرور والأمن العام ..

وفى نفس الوقت نحن نعلم علم اليقين أن الذى حدث فى مدينة أثينا من نظافة ونظام من الممكن أن يحدث فى القاهرة .. والذى حدث فى مدينة الجزائر العربية من نظام ونظافة وهدوء يمكن أن يجرى فى القاهرة . ويكون هذا رأينا عادة مادمنا خارج مصر ، فإذا وصلنا إلى مصر تغير كل شىء بقدرة قادر . وأصبح من رأينا أنه يستحيل أن ننقل الهرم أو المقطم .. أى كل شىء يجب أن يبقى على ماهو عليه : التراب فى كل فم والضوضاء فى كل أذن .. □

فضحنا هيرودوت !

افرض أنك تجلس مع أربعة أصدقاء فى غرفة مغلقة أوبابها موارب فقط . واحد يدخن والآخر يعطس والثالث يشوى ذرة وأنت تمسك البيروسول محاولا قتل الذباب والحشرات الأخرى . وهذا الجو الخانق فى الغرفة هو المطلوب . وهو مطلوب لأننى أريد أن أصور لك الجو الذى تلتقى فيه السموم الضارة والسموم الصحية . هذا الهواء « الملوث » هو الذى تشكو منه الإنسانية فى كل مكان .

فتلوث الهواء بالأبخرة الكيمائية والأدخنة والاحتراقات ونفايات المصانع والبيوت هو الذى أفسد هواء المدن . وانتقل هذا الفساد من الجو إلى الرئتين إلى الدم .. وقبل ذلك إلى العينين والأذنين ..

فهل هناك حل ؟ لا يوجد حل الآن . فهذا التلوث نتيجة طبيعية للتطور العلمى فى صناعة الأدوات : أدوات الاشتعال والطعام والشراب والإنتاج . والذى يحدث فى الهواء يحدث أيضًا فى الماء . فالمصانع تلقى بقاياها فى ماء الأنهار والبحار .. وهذا

يؤدى إلى إفساد الماء وإلى تشويه الحيوانات المائية . وهذه الحيوانات المائية هى التى نأكلها . نغسلها فى الماء الفاسد ونأكلها فى الهواء الفاسد - يمكنك استخدام كلمة « مسموم » بدلا من كلمة فاسد ..

والخضراوات والفواكه فى الحقول قد شربت السموم من المبيدات الحشرية .. والأبقار أكلت الأعشاب المسمومة . وانتقل السم إلى لحمها ولبنها وإلى لحمنا ودمنا - وهذا طبيعى ..

وإلى جانب « تلوث » الماء والهواء والأطعمة هناك التلوث الصوتى .. فهناك أصوات كثيرة مزعجة . وهذا الإزعاج الصوتى هو أيضًا يضاعف متاعب الجهاز العصبى والدورة الدموية .

أنت الآن تعرف تقريبًا هذا الجو الذى نعيش فيه والذى يجب أن نتحمله وأن نقاومه وأن نتفوق عليه وأن نكون فى صحة جيدة وفى أعصاب هادئة وأن نكون سعداء ، أو نطالب الناس بأن يكونوا كذلك . وعندك أمل بأنك أو غيرك سوف تكون قريبًا من هذه السعادة فى يوم من الأيام ..

ولقد فضحنا المؤرخ اليونانى هيرودوت عندما جاء إلى مصر ولاحظ أن الفلاح المصرى يفضل أن ينام فى داخل البيت مهما كانت درجة الحرارة . لأنه يحب أن ينام إلى جوار جاموسته وبقرته - أى إلى جوار مصنع اللبن والجبن واللحم .

ولا يزال الفلاح يفعل ذلك ..

ولكن بعد ألوف السنين من التطور العلمى فى العالم ما الذى يفعله الإنسان ؟ إنه كالفلاح المصرى ينام إلى جوار مصنعه ويملأ صدره بكل مخلفات وعوادم هذه المصانع ..

إن فلاحنا المصرى ، كان ولايزال سابقًا لعصره . والذى قاله هيرودوت ليس

إلا تسجيلا لهذه الظاهرة الإنسانية القديمة : وهى أن الإنسان **يفضل الهواء الفاسد** إلى جوار المصنع على الهواء الصحى فى أى مكان ..

ولم يعد هناك « شيء » صحى فى أى مكان آخر .. □

حوار طبي !

لا حبا فى الأطباء ولا كرها لهم ، أكتب كثيرًا عن الأطباء . ولكن عندما أتحدث عن الأمراض لابد أن تأتى سيرة الدواء والداء والطبيب — وهذا طبيعى . ولا يوجد إنسان لا يقول : آه من ألم فى مكان ما فى جسمه ، أو ركن فى نفسه .. أو علاقة تربطه بإنسان .

ولابد أن أكون واحدًا من هؤلاء أو كل هؤلاء . ولا يوجد طبيب لم يدر بينى وبينه كلام . ولا يوجد حوار لم أحتج فى فهمه إلى العودة إلى الكتب أو القواميس أو دوائر المعارف ، فأنا لست طبيبًا . ولكن أريد أن أفهم ما هذا الذى يجرى فى داخلى أو يلتوى أو يتلوى فى جوانبى أو أعماقى .. أريد أن أفهم . وهذه الرغبة فى الفهم والإصرار عليه : هى المرض الذى لا علاج له . بل إنه المرض الذى أعيش فيه وأعيش عليه وأتوجع منه . وعندما أبكى على نفسى فإننى أبكيه أيضًا — ولا مفر منه إلى أى شىء آخر ..

وأتذكر الآن مادار بينى وبين طبيب ألمانى فى برلين . سألنى : طبعًا بلادكم

حارة . وفيها تراب . قلت : طبعًا .

قال : وعملك يقتضيك أن تذهب إلى مكتبك مبكرًا . قلت : لا ونعم .. فأنا أصحو مبكرًا وأذهب إلى مكتبى فى البيت بعد لحظات من يقظتى وأظل أعمل . وبعد ذلك أذهب إلى مكتبى أكمل عملى ..

قال : وأنت تدخن والناس يدخنون فى مكتبك . وتشرب القهوة وحدك ومجاملا وتناقش وتتوتر أعصابك ولا تنام الظهر ، وتحاول أن تنام فى الليل ، ولكنك تصحو مبكرا ومن الضرورى أن تتناول عشاءك .. لأن العشاء بالنسبة لك ليس سببه الجوع ولكن سببه أن حالتك عصبية وأنك تتوهم أن الطعام سوف يأتى لك بالكسل ، والكسل يلقى بك إلى الفراش وتنام .. ثم لاتجد إلا القليل من النوم .

قلت : هذا تشخيص أو علاج ؟

قال : علاج ..

قلت : ولكن ليس هذا علاجًا .

قال : لأنه لا علاج .. لأنك إذا غيرت نظام عملك تغير نظام حياتك

قلت : ليس عندى أمل

قال : ولا عندى علاج ؟

ومنذ قابلت هذا الطبيب العظيم وأنا أمشى على علاجه حرفيًا .. .. □

العمل فى صمت !

صورة مثالية : هؤلاء الناس الذين يعملون فى صمت بعيدًا عن العيون وبعيدًا عن الآذان . أى بعيدًا عن الأضواء وبعيدًا عن حديث الناس ولذلك لا يدرى بهم أحد ، ولكنهم رغم ذلك يعملون بإخلاص وصدق .

كثيرون هؤلاء الذين يعملون بذمة فى أطراف مصر .. فى الصحارى وعلى الشواطىء وفى أعماق الريف .. وهؤلاء الجنود الذين يتدربون ليلا ونهارًا لكى يدافعوا عن حياة الآخرين . كل ذلك بعيدًا عن عيوننا وعن أيدينا وعن عقولنا وقلوبنا بينما تنشر الصحف والمجلات والميكروفونات أن فلانة اشترت سيارة وأن فلانًا انتقل من بيته الصغير إلى فيلا جديدة ..

إن هؤلاء هم الأبطال فى صمت . فهم يعملون دون ضجيج ودون تشجيع أيضًا ، إنهم يراعون ضمائرهم فى كل ما يقومون به . و الله عليهم شهيد . ولذلك فهم صور مثالية لما يجب أن يكون عليه الإنسان المؤمن بالقيم والمبادىء الرفيعة

ولا يمكن أن يكون أكثر الناس كلامًا أكثرهم عملا ولا يمكن أن يكون الممثلون والمطربون هم أكثر الناس إنتاجًا . ولكنهم أكثر الناس عملا فى الضوء وأقربهم إلى الكاميرا وإلى الميكروفون . وإن كانت هناك فئة قليلة قريبة من الميكروفون ولا يدرى بها أحد أيضًا مثلا : الذين يعملون فى البرنامج الموسيقى ، إنهم نموذج محترم للذين يعملون ويحسنون عملهم دون أن يعرف أحد صورهم أو حتى أسماءهم . إنهم ينطقون الكلمات العربية والأجنبية بصورة سليمة – ويحرصون على التوضيح والإفادة قدر استطاعتهم كل ذلك فى صمت .

إن الذى ينقصنا فى بلدنا كثير .. وأكثر ماينقصنا هو العمل فى صمت . ومحاسبة الضمير كأن هناك مليونًا من العيون والآلات الحاسبة تعد علينا أنفاسنا وأخطاءنا بهذا فقط يمكن أن يكون عندنا أمل فما هو أروع وأنفع . □

المساواة فى الخوف !

فى الطريق إلى تونس استمتعت بذكريات يوسف وهبى . قصصه ونوادره لا أول لها ولا آخر . وكلها أسمعها لأول مرة . وهو يعرف كل الذين كانوا على وجه الحياة فى مصر وكانوا وجهها وعقلها وقلبها من خمسين عامًا . وهم أيضًا يعرفونه . وهم شركاء فى تغيير الحياة الفكرية والفنية والسياسية .

وعلى الرغم من أن الذى قاله يوسف وهبى كثير جدًّا ، والذى قيل عنه أكثر ، فإن لديه صفحات من التاريخ لم يسمع بها أحد . فإذا سألته عن العقاد أو طه حسين أو الحكيم أو أم كلثوم أو سعد زغلول أو النحاس أو فاروق أو جمال عبد الناصر لوجدت لديه حكايات غريبة .

وفجأة قال لى يوسف وهبى : لو كان معنا عبد الوهاب الآن لكان شبحًا

ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأله : وماالذى جعله يقول ذلك عن عبد الوهاب فأنا أعرف ذلك وأكاد أموت فى جلدى . فقد مرت الطائرة فوق ليبيا ، وكانت

هناك عواصف رملية عنيفة . وتساقطت الأكواب والأطباق . وكاد المضيف - لا مضيفات فى الطائرات الجزائرية فوق الأراضى العربية - يقع فوقنا وكل ما يحمله ، ثم حاول أن يعتدل فسقطت الأكواب مرة أخرى .. فعلا لو كان عبد الوهاب ، باعتباره أكثر الناس خوفًا ، لحدث له كذا وكذا . ولكن لو نظر عبد الوهاب إلى وجه كل الركاب لوجد المساواة المطلقة بين الجميع .. فالخوف قد صبغ الوجوه باللون الأصفر . وحرك الشفاه بالدعاء لله أن ينقذنا .. وعلى الرغم من أن يوسف وهبى لم ينقطع عن الكلام فإن وجهه قد تغير لونه ، وإن كانت ملامحه كما هى : هادئة .. وصوته الذى نعهده رزين ، وطبعًا قادر على ذلك لأنه رجل ممثل .. وأنه يستطيع أن يكون هادئًا وهو ميت فى جلده أكثر من كل ركاب الطائرة . ولكنى أعترف بأن يوسف وهبى كان أكثر هدوءًا وثباتًا من أى طفل رأيته فى حياتى .. □

علامات على الحروف !

عندنا

أغنية تقول : الأرض بتتكلم عربى ..

ربما كان هذا صحيحًا . ولكن المؤكد هو أن الناس لا يتكلمون اللغة العربية ولست فى حاجة إلى معجزة لكى أؤكد لك هذا المعنى . فأمسك صحيفة وحاول أن تقرأ الذى أمامك وحاول أن تضبط علامات على الحروف .. ستجد نفسك قد أخطأت كثيرًا . وسوف تحاول أن تجد لك عذرًا كأن تقول : إنك نسيت .. أو تقول لنفسك : أنا طول عمرى ضعيف فى اللغة العربية .. أو تقول : إنها صعبة .. أو تقول : إذا كان فلان الفلانى الذى صفته كذا وكذا لا يعرف اللغة العربية فهل أعرفها أنا ؟ ..

وكلها أعذار تدل على خيبتك فى اللغة العربية ..

أما إذا لم تخطىء فأنت من الأقلية التى تحسن النطق باللغة العربية ..

هنا فى الجزائر يوجد إصرار عنيف على أن يتعلم الناس اللغة العربية . وعلى تشجيع الناس أدبيًّا وماديًّا . فالكبار يذهبون إلى المدارس مساء . ولا يحصلون على

درجات إلا إذا أثبتوا أنهم يدرسون اللغة العربية - وكانت اللغة الفرنسية قبل ذلك هى التى تفتح أمامهم أبواب التقدم والصدارة والقيادة .. وهم هنا يجدون لكل كلمة معناها العربى . بل إنهم يستخدمون كلمات عربية لا أظن أن أحدًا يفهمها فى مصر . مثل أنواع الشوارع عندهم : الشارع الكبير والشارع الصغير ويقابلها فى اللغة الفرنسية : بوليفار وأفينى .. هنا يستخدمون : النهج .. وعلى الرغم من أن الملايين عندنا يعرفون أغنية « نهج البردة » فإن نفس الملايين لا يعرفون ماهو النهج ولا ماهى البردة . ولا يعرفون أن هذه القصيدة التى ألفها شوقى جاءت على « نهج » أى على طريقة أو على نمط قصيدة أخرى اسمها « البردة » للشاعر الصوفى البوصيرى الإسكندرانى .

وكلمات أخرى عربية يضعونها مكان الكلمات الفرنسية لأنهم يريدون أن يتعلموا العربية التى نعرفها ولا ننطقها وإذا نطقناها لا نعرف كيف نضبطها مع الأسف الشديد وعلى كل المستويات .. □

كى نلتقط بعض الصور ؟ !

أعجبتنى هذه الفكرة : إن المنطقة التى تمدنا بشىء يجب أن نعلم أهلها كيف يمدوننا بشىء أفضل .

وهى نظرية أيضًا ..

مثلا فى ولاية « تيزى – أوزو » فى الجزائر توجد مدرسة . هذه المدرسة لتعليم المواطنين الخدمة فى المطاعم والفنادق . المدرسة نظيفة جدًّا ؟ ككل شىء والطلبة هم الذين يقومون بكل العمل : الغسل والكنس والطبخ وتقديم الطعام والحساب . وابتداء من الباب الرئيسى حتى تخرج فكل الذين تراهم طلبة .

والمهم أن هذه المدرسة إحدى اثنتين فى الجزائر . وهذه المدرسة تبعد عن العاصمة حوالى ٢٠٠ كيلو متر .

وهذه المنطقة من الجزائر قد اشتهرت بأن كل الذين يعملون فى المطاعم يجيئون منها تمامًا كما أن عدد المشتغلين فى المطاعم فى مصر يجيئون من أسوان وأسيوط وكذلك البوابون . ولذلك كان من الأفضل إنشاء مدرسة فى هذه المناطق لتعليم

الناس كيف يكونون سفرجية بصورة علمية مفيدة . وتتوقع إدارة المدرسة أن يتزايد عدد الطلبة لأن هذه الصناعة مربحة . ولأن من طبيعة سكان هذه الولاية : النظام والنظافة والأدب .

سألت مدير المدرسة : ألا توجد فتيات ؟

فقال : لا توجد .

وسألت : إن كان هناك أى سبب لعدم وجود فتيات ؟

وقال : إننا فى منطقة بدوية .

ولاحظت أيضًا أن فى بعض المدارس إذا حاولنا التقاط صور للفتيات أخفت كل واحدة وجهها – طبعًا لا علاقة بين إخفاء الوجه وظهور الساقين فى الملابس القصيرة . فالملابس القصيره موضة .. والمرأة هنا موضة جدًّا . أما إخفاء الوجه فله علاقة بالأخلاق العامة .. فنحن فى مجتمع قبلى .. ولا تستطيع الفتاة أن تقف أمام مصور ولا يوافق أهلها . ولا يستطيع المدرس أن يرغمها على ذلك بل إن ناظر إحدى المدارس احتاج إلى أن نستأذن له من الوزارة لكى تلتقط بعض صور الفتيات أثناء جلوسهن فى الفصل .

سألت إحدى الفتيات الصغيرات أنا لست جزائريًّا فمن أى البلاد العربية أنا ؟ فقالت بسرعة : من مصر أو لبنان ؟ قلت : لماذا؟

قالت : لأنك تنظر إلى الفتيات ذهابًا وإيابا .

وضحكنا نحن الثمانية – العمدة ومدير العلاقات العامة ونائب المحافظ وأربعة من المدرسين – فقد وقفنا ننظر لبعض الوجوه الجميلة فى الملابس الثقيلة لكى نلتقط لها بعض الصور . □

وكان إعجابى بشوارع الجزائر !

عندما سألنى الرئيس هوارى بو مدين : وما الذى أعجبك فى مدينة الجزائر؟ فقلت بسرعة : نظافتها وجمالها . .

ثم استدركت فقلت : لأننا قبل أن نجىء إلى الجزائر كان لدينا حب وإعجاب بالشعب الجزائرى والثورة الجزائرية والطموح الجزائرى .

وبعد أن عدت إلى البيت شعرت بالخجل لهذا الذى قلته . لأنه ليس من الذوق أن أقول إن الشوارع نظيفه . لأنه من المفروض أن تكون كذلك . ولأن نظافة الشوارع هى أهون شىء يمكن أن يقوم به المواطنون . . وكان من الأوفق أن أقول : النظام أو الحماسة أو العمل الشاق الذى يقوم به الأشقاء الجزائريون فى كل مكان . . واعتزازهم بالأخوة . . وامتنانهم ورغبتهم الأكيدة فى عودة العلاقات أو استئناف العلاقات .

ولكن الذى لا يعرفه الرئيس بومدين هو أن عندى وعند غيرى مشكلةقومية : وهى أننا جميعاً نشكو من قذارة الشوارع والبيوت والمكاتب والأيدى . . وأصبح

من الراسخ فى نفوسنا أن الشوارع قذرة . فإذا لم تكن كذلك فهى شىء عجيب غريب لافت للنظر ويدعو للإعجاب والذى لا يعرفه الرئيس بومدين أيضًا أننا فى أحاديثنا الخاصة كنا نقول : لم نر أحدا يلقى بورقة على الأرض . لم نر دورة مياه واحدة ولكن لم نر أحدًا يقف إلى جوار الحائط . . إلخ .

وما من تغيير وقع فى مصر إلا وأثرنا معه ضرورة النظافة ، كأن التغيير عندنا مرتبط بتغيير هذه العادة السيئة أو هذه الغريزة .

حدث مرة وأنا فى القاهرة أن طارت منى ورقة وتوقفت بالسيارة لأعطى للمنادى قرشين وأقول له وحياتك هات الورقة وضعها فى صندوق الزبالة .. واتجه المنادى إلى الورقة وراح يقلب فيها وجهًا وظهرًا ليرى ما الذى جعلنى أهتم بها هذا الاهتمام غير العادى .. وابتعدت عنه قليلاً ولاحظت أنه لا يزال يقلب فى الورقة واقتربت منه وقلت له : أرجو أن ترميها فى الزبالة واندهش الرجل وألقى بها على الأرض وانشغل بشىء آخر .

وهززت رأسى إعجابًا بشوارع الجزائر . □

كهوف تسيلى !

اكتشفت أننى وقعت فى غلطة جغرافية . فقد كنت أقول وأكتب من كهوف « تسيلى » التى توجد بها نقوش لرواد فضاء جاءوا إلى الأرض وعادوا إلى السماء منذ أكثر من ثلاثين ألف سنة وأن هذه الكهوف موجودة فى جنوب ليبيا . ولكن أحدًا من القراء فى ليبيا أو الجزائر لم ينبهنى إلى هذا الخطأ .

ولكن عندما زرت قاعدة « حاس مسعود » البترولية فى الجزائر ، وجدت أمام مدخل السينما فى هذه القاعدة لوحة منقولة عن كهوف تسيلى . ووقفت عندها وكنت سعيدًا برؤية هذه اللوحة التى لم أرها إلا فى الكتب فقط . وتشاء الصدف أن يكون من بين المرافقين لنا أحد رجال الأمن الذى عاش فترة طويلة فى هذه المنطقة . وهو الذى قال لى إن الكهوف فى جنوب الجزائر وليست فى جنوب ليبيا . وأنها قطعة من الجزائر – ولم أكن أعرف ذلك .

وهذه اللوحة تصور أناسًا طائرين فى الهواء . وأناسًا ارتدوا خوذات تشبه التى

يرتديها رواد الفضاء الآن . وبتحليل مادة هذه النقوش اكتشف العلماء أن الفنان الذى رسمها ببراعة قد عاش ومات منذ أكثر من ثلاثين ألف سنة . وقد رأى هذه اللوحات الرحالة الفرنسى بيبرلوت . وألف عن هذه الكهوف وعن النقوش المعروضة فى الهواء كتابًا . ثم انه وصف منطقة الجبال التى تسمى جبارين . وعلى الرغم من أن بيبرلوت هذا كان دقيقًا فى وصف هذه النقوش ، فإنه لم يدرك المعنى الذى عرفه العلماء بعد ذلك . فقد عرف العلماء أن هذه النقوش وغيرها فى أماكن مختلفة من العالم تدل على أن هناك كائنات أكثر عقلا منا تعيش فى كواكب أخرى . وأنهم لأسباب لانعرفها الآن بوضوح قد جاءوا إلى الأرض وعادوا إلى السماء .

وفى مطار مدينة الجزائر وفى استراحة كبار الزوار وجدت قطعة من كهوف تسيلى قد وضعت بحفاوة شديدة . وسألت الذين حولى عن هذه الأحجار . ووجدت أن القليلين جدًّا يعرفون شيئًا عن هذه النقوش .. ولذلك فلا يهم إن كانت من أرض ليبيا أو أرض الجزائر – معقول . □

لا مكان للرجال الأطفال !

بقلم

مايسعدنى أن أرى المصريين فى الخارج ، يتعسنى أن أستمع إليهم فالواحد منهم سافر إلى الجزائر أو إلى فرنسا أو إلى أى بلد آخر ليعمل طبعًا .. ومعنى ذلك أن يكون بعيدا عن مصر لأنه ليس من السهل أن يعمل الانسان فى الجزائر صباحًا وينام مع أولاده فى مصر مساء ، فليس من السهل أن يكون الناس مثل الطيارين أو المضيفات يتنقلون بهذه السرعة بين البلاد . أو بين مكان العمل فى الهواء وبين بيوتهم على الأرض .

ولا تمضى لحظات حتى يقول لك المصرى : و الله الحياة تعب – أعرف ذلك ، ونحن هنا نكافح – هذا بديهى فى مصر تكافح أيضًا . والناس حولك هنا وهناك يفعلون نفس الشىء . فلست طرازًا فريدًا من البشر يكسب بلا تعب ، ويعيش بلا كفاح .

ثم ماذا بعد هذا كله ؟

بعده تجىء قصص متشابهة عن الحياة وعن البعد عن الأهل وعن اختلاف

الطباع والعادات ، وعن عدم القدرة على التكيف وعن الصعوبات التى يواجهها المصرى فى تحويل النقد أو الحصول على مزايا أخرى .

وبعض هذا الكلام معقول . فمن الضرورى أن يعمل الإنسان وأن يتكيف مع الظروف التى يعيش فيها ومن الضرورى أن يفهم أنه عندما يدخل بلدًا من البلاد فهو يدخله بشروط هذا البلد . فليس غازيًا ولا محتلا ولا حاكمًا . ثم إن العمل هنا أو هناك هو عمل شريف وهو كفاح شخصى وقومى والذى يريد أن يجلس على « حجر » كل شعب ، هو إنسان مدلل طفل لم يكبر بعد ، ومن الخير له أن يعود إلى بلده ، فإذا عاد فلن يجلس على حجر شعبه . فعلى حجر مصر خمسة وأربعون مليونا مثله . فلا مكان للرجال الأطفال المدللين – أو لغير الرجال .

فليس العمل من أجل مصر ، لا يكون إلا فى مصر ، إنما العمل لها فى أى مكان .. والشرف والعار الذى يلحق بها ليس على أرضها فقط ، وإنما على أى أرض .

ولم يعد من أملى أن أرى المصريين فى كل مكان فهم فى كل مكان ، ولكن أن أراهم يملأون أى مكان يعملون فيه بالاعتزاز بمصريتهم والاحترام لغيرهم من الأشقاء أو الأجانب . □

لعبة الناس الأكابر !

ليس من السهل أن يدخل أى إنسان التاريخ عن طريق اللعب .. ولكن عددًا قليلا جدًّا من اللاعبين دخلوه بأرجلهم : لاعبو كرة القدم . ولكن الذين دخلوه بأيديهم هم الملاكمون والمصارعون ولاعبو البيسبول الأمريكية .. وهناك العاب أخرى ليس لها إلا جمهور قليل جدًّا مثلا : كرة الطاولة – وهى كلمة إيطالية – معناها الترابيزة – وهذه أيضًا كلمة إيطالية معناها المنضدة أى البنج بونج – وهى كلمة تجارية لهذه اللعبة .. ونحن نعرف المنضدة وباقى لوازم اللعبة : كرة من البلاستيك قطرها أربعة سنتيمترات ونصف ووزنها حوالى ٣٧ جرامًا ومنضدة طولها تسعة أقدام وعرضها خمسة . وهذه اللعبة ارستقراطية أو ملكية . وتاريخها يرجع إلى مائة سنة . وكان يلعبها الناس الأكابر فى بيوتهم فى غرف القصور . وضاقوا بها ، أو تفضلوا بها على رعاياهم ، فانتقلت إلىالناس العاديين .. أى إلى الشعب ، فأصبحت لعبة شعبية . وحتى لا يتشاجر الناس بعضهم مع بعض كان لابد من وضع أصول وقواعد اللعبة . وحتى

لا تتشاجر بقية الشعوب بعضها مع بعض كان لابد من **عقد مؤتمرات دولية على** قواعد ومواصفات عامة وعلى موعد المباريات الدولية والبطولات .. **أى الوقوف** أمام باب التاريخ الضيق الذى لا ينفتح بالذوق وإنما بالقوة .. القوة المادية **أو القوة** العقلية .. وتحولت هذه اللعبة إلى تجارة ، هذا طبيعى . **فهناك** شركات **تنتج وتبيع** الكرات والمضارب . وفى نفس الوقت تشجع الملايين على الفرجة وعلى **الشراء** .. وعلى طريقة اليابانيين فى التقليد والاختراع والتحايل ابتكروا مضربًا جديدًا **مغطى** بالأسفنج حتى يمتص الكرة ويوجهها اللاعب على النحو الذى يريد . **وكانت حيلة** ماكرة . وصدر قرار دولى بإلغاء مضارب الأسفنج اليابانية سنة **١٩٥٤** .. **ولم يسمع** العالم كله عن بطل صينى واحد فى هذه اللعبة التى يمارسها فى الصين أربعة **ملايين** لاعب سوى سنة **١٩٥٩** فقد فاز بالبطولة الفردية صينى من مدينة كانتون . **ومنذ** ذلك الوقت واللعبة صينية والبطولة فيها لأبناء الصين .. ولم يتصور أحد أن هذه الكرة الصغيرة قادرة على أن تفتح باب التاريخ وتجفف مياه المحيط الهادى كله وتقرب الصين من أمريكا .. وتجعل البيت الأبيض على مدى خطوات من المقر الصيفى للزعيم ماوتسى تونج سيد الصين - ولكن هذا ما حدث عملوها الصغار فوقع فيها ووقع عليها الكبار . ولا يمكن أن تكون الكرة الصغيرة هى السبب ، وإنما الكرة الكبيرة واقتسامها هو السبب .. الكرة الأرضية ! ☐

أمراض الحضارة !

في كل مكان من العالم صرخات تنادى : الهواء ملوث .. الماء ملوث .. الإنسان لوث كل شىء .. وأن حياته فى خطر .. وأنه هو السبب .. فهو القاتل والقتيل وأسباب التلوث كثيرة : المصانع والموتورات .. أوكل شىء يحترق فى الهواء والماء .. أى العادم الذى تخرجه المصانع وتصبه فى الماء .. ومايتنزل من دورات مياه الإنسان إلى مجاري المياه . الموانى تلوثت بزيت السفن وفضلات الإنسان .. وكل الطرق الملاحية التى تمشى فيها السفن من عشرات السنين وبعشرات المئات من السفن الصغيرة والكبيرة . ذهابًا وإيابًا ، وأصبح من المألوف ألا تجد الأسماك تمشى وراء السفن .. ومن المألوف أن ترى جثثها عائمة .. فقد أقامت الأسماك جنازة من نوع غريب .. المشيعون هم الموتى ، والنعش هو الحى القاتل وسوف يقضى هذا التلوث على صحة الإنسان . وبعد ذلك على الإنسان نفسه . وكثير من الأمراض التى يعانيها الإنسان ولم تكن معروفة من خمسين عامًا يصفها الأطباء أو يشخصونها على أنها : أمراض الحضارة ، الاضطرابات النفسية

وضغط الدم والحساسية والصداع النصفى وتسوس الأسنان وارتفاع نسبة الانتحار وانفصال الشخصية أو انفصامها . حتى الإسراف فى زيارة الأطباء أصبح من أمراض الحضارة . فالحضارة لا تؤمن بمعجزات السماء وإنما تؤمن بمعجزات الإنسان . وقد نزلوا بهذه المعجزات وحشروها فى ملابس الأطباء .

ونحن فى حربنا ضد الحشرات والحيوانات الضارة نقتل حشرات أخرى نافعة وحيوانات أخرى فى خدمة الإنسان . فالمبيدات الحشرية التى تلوث الماء والهواء التى استخدمت للقضاء على الآفات الزراعية قد أبادت النحل وأهلكت العصافير والغربان وأبو قردان .. إن هذه المبيدات يمتصها النبات ولابد أن تظهر آثارها فى الثمار التى نأكلها أو فى الألبان التى نشربها ولا يوجد طعام فى أيدينا ليس ملوثًا . مادام الهواء والماء والحيوانات ملوثة . فالتلوث – أو السم – أصبح من أهم عناصر الطعام الإنسانى . ونحن فى حاجة إلى معجزة لكى نتمكن من عزل السم فى الجسم الإنسانى ، تمامًا مثل الثعابين والعقارب ، أى نحمله ولا نموت به .. كما نحمل السلاح ولا يصيبنا إنما يصيب غيرنا . والنتجة أننا قاتلون لغيرنا من الناس أى أننا ضحايا تقدمنا الصناعى الهائل . ولو كان أرسطو فيلسوف الإغريق حيًّا الآن لاختار للإنسان تعريفًا آخر ، فهو الذى عرف الإنسان بأنه حيوان ناطق . والأفضل أن يقال : إنه حيوان قذر – أى ملوث – بفتح الواو وكسرها أيضًا ! □

طوى بقية الصفحات !

مات فيلسوف الشباب الألمانى الأصل الأمريكى الجنسية اليهودى هربرت مركوزه بعد أن تجاوز السبعين من عمره !

وهو فيلسوف لاشك فى ذلك . فله اجتهادات كثيرة فى الفلسفة الماركسية وفى علم النفس وفى التربية والأخلاق والفن . وهو ناقد حاد للمجتمع الرأسمالى الأمريكى . وهو أكثر قسوة عندما يتعرض لنظم الدراسة فى الجامعات الأوروبية والأمريكية . وقد جاءت آراؤه الفلسفية والجنسية ضمن دراسات صعبة شاقة . ولكن لأن بعض هذه الآراء قريبة الشبه لما يدور فى رءوس الشبان المثقفين فى العالم استراحوا إليه . ووجدوا اجتهادات فى فهم فلسفة الصين وفلسفة روسيا .. ثم وجدوا هجوماً عنيفاً على الطبقة العاملة فى العالم كله . وأن هذه الطبقة لم تعد المحرك الحقيقى لعملية التغيير والتقلبات فى التاريخ .. وأن الأمل كله فى الشباب وفى الطلبة بصفة خاصة .

هذه العبارات وحدها جعلت كتب الفيلسوف تضاعف بمئات الألوف ،

وبالملايين . وعندما ذهب مركوزه إلى جامعة برلين قبل موته بثلاثة أعوام سأله أحد الطلبة هل ماتزال تعتقد أن هناك أملا فى عمل شىء فى أوروبا أو أمريكا . ؟

وكان رد مركوزه إننى أفهم سؤالك ، إن الذين علموك ، لم يعلموك كيف تسأل إن هذا السؤال ياسيدى ليس له معنى . لأنه مادامت هناك حياة فهناك أمل .

والشباب هو الأمل . فهذا مما يجب أن أوجهه إليك وليس على شكل سؤال ولكن على شكل قضية أضعها على كتفيك . أما وكل الذين ولدوا بعدى بعشرين عامًا فلا أمل منهم ولا أمل بهم .

واندهش جدًّا هربرت مركوزه عندما وصفوه بأنه فيلسوف الشباب لأنه ليس شابا ولا هو يعبر عن روح الشباب . وإنما هو فقط استطاع أن يقول ببرود ما يقولونه بحرارة ، إنه استطاع أن يجعل لرصاصهم الطائش هدفًا مؤكدًا .

فقط هذه هى رسالتى المتواضعة .. هكذا يقول : وهى ليست متواضعة فليس سهلا أن يحدد الإنسان هدفه بوضوح ويجعل الطريق إليه واضحًا مشرقًا .

ويبدو أن مركوزه بعد أن اطمأن على أن صفحات من كتبه قد فهمت كما يريد قرر أن يطوى بقية الصفحات . من حياته ومات ! □

بصمات مزورة !

ما حكم القانون ؟ ماحكم الضمير؟ ما حكم الطب ؟ ما حكم الاقتصاد فى هذه القضية الخطيرة جدًّا على حياة ملايين الناس ؟

كثيرًا جدًّا ما يطلب الطبيب من المريض أن يذهب إلى أحد معامل التحليل ليقدم عينات من الدم والبول والبراز – هذا شىء معروف .

والطبيب المعالج يطلب أنواعًا معينة يريد أن يعرف بصمات الميكروب على وظائف الجسم الإنسانى وذلك قبل أن يصف له العلاج – هذا يحدث فى كل مكان وكل يوم .

وينتظر المريض والطبيب معًا رأى معامل التحليل . ومن النادر أن يشك أحد فى هذا الذى تبعث به معامل التحاليل . فمن عادة هذه المعامل أن تقدم التحاليل على أوراق من نوع خاص وباللغتين اللاتينية والإنجليزية .. ويتخلل هاتين اللغتين أرقام بالملايين هى كرات الدم الحمراء والبيضاء .

لا أحد يستطيع أن يناقش . وإذا ناقش فلا يستطيع أن يفعل شيئًا إلا إذا ذهب

بنفسه وقام بعمل التحاليل نفسها . وهذا مالم يحدث .

فهذه التحاليل هى البصمات الأكيدة للمجرم الأثيم الميكروب ومايفعله فى جسم الإنسان . ولكن إذا عرفنا أن الكثير جدًّا من معامل التحاليل تنقصها المواد الأساسية لكى تكون هذه التحاليل دقيقة .. وأن الكثير من هذه المعامل تترك إجراء التحاليل للممرضين . وأن هذه التحاليل إجراءات روتينية تافهة ، فهل يستطيع أى طبيب أن يعالج أى مريض . أو أن يضبط هذا المجرم الذى يسرى فى دم المريض ، إذا كانت التحاليل أو البصمات ليست بصماته ؟ هل يستطيع أى ضابط مباحث أن يجرى وراء مجرم بلا بصمات ؟ أو له بصمات مزورة ؟

إن طبيبًا كبيرًا أرسل مريضًا إلى معملين للتحليل . وكانت النتائج مختلفة تمامًا . مع أنه نفس المريض وفى نفس اليوم ؟

إن هناك عبثًا خطيرًا واستهانة لا يمكن أن توصف ولابد من التحقيق فيما يحدث فى معامل التحاليل . وأنا أعرف أن هناك شكوى مقدمة إلى نقابة الأطباء .. ومن الواجب الصحى والقومى والأخلاقى النظر فيها وفى غيرها ! □

السموم .. سلاحًا !

الإنسان هو أقوى الحيوانات ، لأنه عاقل فقط – فقد استطاع بعقله أن يتغلب على كثير من مصاعب الطبيعة التى حوله : البرودة والحرارة والجوع والمرض والمسافات . وعندما يفقد الإنسان عقله فإنه يصبح ضعيفًا كأى حيوان آخر .

ومع ذلك فهناك حشرات استطاعت أن تقاوم كل عناصر الطبيعة وأن تتغلب عليها . فالخنافس – مثلا – وهى أكثر الحشرات انتشارًا فى العالم وأكثرها تنوعًا ، استطاعت أن تبقى بملايين الملايين فى كل مكان . لأنها قادرة على التكاثر وعلى التعايش مع البيئات المختلفة ولكن هذه الخنافس وغيرها من الحشرات والحيوانات لم تتقدم فى شىء آخر فهى هى منذ ظهرت على الأرض من ملايين السنين .. لا حياتها تغيرت ولا أشكالها تطورت ولا مساكنها تبدلت . على عكس الإنسان ..

والإنسان يعرف معظم أسباب مرضه ومعظم أسباب قوته . ويعرف أنه سيموت لا محالة ولكنه يحاول أن يقاوم الموت . بينما هناك حيوانات قد اكتسبت عبر ملايين

السنين مناعة طبيعية . ولا تزال هذه المناعة سرًا لا يعرفه أحد .

فمثلا : العقارب تعتبر من أكثر الكائنات تحملا للأشعة الكونية والأشعة الذرية وإذا كانت هناك أشعة ذرية قادرة على قتل الإنسان فى دقيقة واحدة ، فإن هذه الأشعة لا تقتل العقرب إذا تعرض لنفس الأشعة عشر سنوات .

ولو أن قنبلة هيروشيما التى ألقاها الأمريكان على اليابان قد انطلقت أشعتها على مستعمرة للعقارب فإن هذه الأشعة ستقتل كل كائن حى فى طريقها ، وتبقى العقارب ، كأن هذه الأشعة نسيم عليل هزها برفق ..

وقد اكتشف أحد العلماء الفرنسيين من فترة أن هناك نوعًا من العقارب فى صحراء الجزائر لا تقتلها الأشعة الذرية المعروفة حتى الآن . فهل سبب ذلك أن بها نسبة عالية من السموم ؟ وبذلك تكون السموم سلاحًا لوقايتها من الإنسان ومن الحيوان ، وفى نفس الوقت سلاحًا لوقايتها ضد أحدث الأسلحة ؟ ربما .

والعلماء – طبعًا – سيقتلون مئات العقارب لمعرفة سر السموم التى تحملها للاستفادة منها فى وقاية الإنسان من العقارب ومن القنابل الذرية . فإذا نجح العلماء فى ذلك . فسوف يبحث علماء آخرون عن وسيلة للقضاء على هذه الأسلحة الوقائية ويتفننون فى ابتداع أنواع من القنابل تحطم المناعة المستخرجة من العقارب .

كأنه مكتوب على الإنسان أن يعيش فى خطر .. فى خوف من الإنسان . وكلما اكتشف الإنسان سلاحًا ، راح يفتش عن الوقاية منه .. فإذا اهتدى إلى الوقاية راح يبحث عن سلاح يحطم الوقاية .. كأن الحياة حرب علمية تدمر الإنسان بالخوف من الوقاية وبالخوف من العلاج .. □

فقط : ساعة من الوقت !

الأديب الإنجليزى سومرست موم كان يقول : إننى أستطيع أن أكتب قصة عن أى إنسان أجلس معه ساعة من الوقت ..

وهو يقصد بذلك أنه لابد أن يجد شيئًا فى أى إنسان. وأن هذا الشيء من الممكن أن يجعل منه قصة أو نكتة . إنه يستطيع أن يروى قصة حركات وجهه ويديه . إنه يستطيع المقارنة بينه وبين الآخرين وأن يجعل هذه المقارنة مادة للفكاهة . إنه يستطيع أن يتخيله فى مواقف وأوضاع لا أول لها ولا آخر .

وأى فنان بدرجات متفاوتة يستطيع أن يفعل ما يفعله سومرست موم .

ولكن الأدباء يختلفون فى مدى استجاباتهم للواقع . فكل واحد يتأثر بالواقع بشكل خاص على طريقته ووفقًا لحساسيته وتجاربه ومزاجه الخاص .

وكل قصة يكتبها أديب لابد أن يكون لها أساس من الواقع . والقصص العالمية المشهورة لها أسس من الواقع . بل إن بعض أبطال هذه القصص كان لهم وجود حقيقى ..

بطل قصة (روبنسون كروزو) لدانيل ديفو كان ضابطًا معروفًا .

بطلة قصة (مدام بوفارى) لجوستاف فلوبير كانت تعيش فى عصره ..

بطل قصص (شرلوك هولمز) للكاتب الإنجليزى سيرآرثر كونان دويل كان طبيبًا معروفًا وصديقًا للمؤلف نفسه .. قصة (دكتور جيكل ومستر هايد) للكاتب الإنجليزى روبرت لويس استفنسون كان صديقًا للأديب نفسه .. وكذلك أدباؤنا المعروفون أبطال قصصهم معروفون لديهم .. رجالا ونساء .

وبعض الأدباء يكتب فى الصفحات الأولى من قصصه : إن أى تشابه بين الأبطال فى هذه القصة هو مجرد صدفة .

وهذه الجملة كاذبة مائة فى المائة فى أية قصة .. فالتشابه ليس صدفة ، إنما التشابه حقيق وعن عمد . فالأديب يستخرج مادته من الحياة . والحياة هى الناس فى تفاعلهم اليومى . والأدب صورة الحياة . وإذا تشابهت الصورة والأصل ، فليست هذه صدفة .. إنما هذه حقيقة علمية !□

طرزان المعامل الحديثة

أفلام

جيمس بوند تعجبنا لأنها خيالية وممكنة فى نفس الوقت . فهى تعتمد على العلم الحديث . والحيل التى نجدها فى هذه الأفلام هى نوع من الذكاء . فإذا رأينا جيمس بوند يطير بمقعد فى الهواء . فالعقل الآن يستطيع أن يطير المقعد ، فالطائرة بها عشرات المقاعد . وكلها مقاعد طائرة يكفى أن تركب للمقعد محركًا نفاثًا . أو تضعه فوق صاروخ موجه .. فهذا المقعد الطائر ممكن من الناحية العلمية

والذى يضحكنا فى هذه الأفلام هى أن فيها « شقاوة » الأطفال والشقاوة معناها استخدام العلم الحديث فى أغراض صبيانية . أى أننا نضحك لأن العلم أصبح ضعيفًا كأنه قط أو كلب .. وأن الذى يستخدمه أو يعبث به طفل شقى !

وهذه الأفلام أصبحت تستهوى الكبار والصغار . فالكبار كانوا صغارًا أيضًا . ثم إن العلم الحديث أصبح يحقق أشياء خرافية .. فالأقمار التى تنطلق إلى القمر وتبعث بألوف الصور من مسافة ربع مليون ميل . وتغير وضعها . وتنفخ فى سطح القمر

لتصور التراب الذى يتطاير ، إن كان تراب ثم تلتقط لنفسها صورًا ، والتى تقفل نوافذها وأبوابها وتغمض عدساتها تنفيذًا لأوامر صدرت من الأرض فى ليالى القمر المظلمة والتى تصل فيها درجة الحرارة إلى مائتين تحت الصفر . ويسكن القمر الصناعى ويجمد كأنه ثعبان أو ضفدعة فى حالة « بيات شتوى »

وكل هذه الأعمال العلمية العظيمة تكاد تقترب من الخرافة . ولكنها حقيقة . ولم يحدث فى عصر من العصور أن الحقيقة قد اقتربت من الخرافة كما حدث فى هذا العصر . فقد تقدم العلم بصورة مذهلة . أى بصورة جعلتنا لا نصدق مانرى . كأن الذى نراه خرافة !

والشبان والأطفال هم أكثر تأثرًا بجيمس بوند . ولذلك لم أندهش عندما قرأت عن اثنين من الطلبة فى لبنان يستخدمان راديوهين ترانزستور فى الغش .. تمامًا كما رأينا فى أحد أفلام جيمس بوند فتاة ترى الورق الذى مع اثنين من المقامرين وتخبر أحدهما عن طريق جهاز إرسال ترانزستور ...

وجيمس بوند ليس إلا طرزان فى غابات المصانع والمعامل الحديثة .. وطرزان وجيمس بوند ليسا إلا صورة جميلة لأحلام الطفولة عند كل متفرج ! □

اللامعقول فى مؤتمر القارات !

لابد أن يكون تفكيرهم عالميا فأساس مسرح اللامعقول – أو مسرح العبث – هو أن اللغة عاجزة عن التعبير . فالمعانى لا يمكن تحديدها وعند تحديدها بالكلمات فإن الكلمات لا تفى بهذا الغرض .

وإذا نجحت الكلمات فى أداء معظم المعانى ، فإن الناس لا يتفقون على فهم هذه المعانى . ومعنى ذلك أن الاتصال بين الناس صعب . وأن الناس ليسوا متقاربين كما نتصور . وأن التفاهم ليس سهلا . وأن المسافات بين الناس قريبة كما نتصور . أوكما نحب أن نتصور ، وفرق كبير بين آمالنا فى التقارب بين الناس ، وبين تحقيق هذا التقارب ..

هذا هو أحد أسس فلسفة اللامعقول فى المسرح ..

ويكفى أن تجلس فى إحدى لجان مؤتمر القارات الثلاث وتسمع المناقشات التى تدور بين مندوبى ٨٠ دولة ، مفروض أنها متفقة من البداية وقبل أن تجىء إلى كوبا – على محاربة الاستعمار القديم والاستعمار الجديد ، واستغلال القوى للضعيف

ومحاربة التفرقة العنصرية .. إلخ . لا خلاف بين الدول على هذه الخطوط العريضة .

ولكن كثيرا ما دارت مناقشات صارخة حول تعريف التعايش السلمى أو حول معنى التعايش وحول معنى السلام وتتفرع المناقشات إلى موضوعات لا تخطر لك على بال . وتنتهى نهايات ليست فى حسابك لدرجة أنك من كثرة التعب تحس أنك فى أحد مسارح اللامعقول . وأن المؤلف الحقيقى هو يوجين يونسكو وليس التضامن ، بين القارات الثلاث . لقد بلغت بى الحيرة أثناء بعض المناقشات أننى تخيلت أن جارى شديد الشبه بصمويل بكيت (الكاتب اللامعقول المعروف) !

ولكن رغم صعوبة التفاهم التام . فإن هناك تفاهمًا إلى حد كبير ..

وأمل الناس جميعًا أن يكون التفاهم تامًا . وهو ولا شك أمل الإنسانية كلها ..

ولو عرضت هذه الجمله الأخيرة على إحدى اللجان لاختلف الكثير على معنى (كلها) ! □

موضوع لكل الألسنة !

عندما ولد الملك إدوارد الثامن دوق وندسور فى ٢٣ يونيو سنة ١٨٩٤ وقف أحد أعضاء مجلس العموم واسمه كاير هاردى وهز كتفيه ساخرًا ليقول : أمير جديد ؟ ملك آخر لبريطانيا . لا نعرف عنه أى شىء . ولن يعرف عنه الشعب شيئًا ، إنما سيتعلم أن تكون هناك مسافة بينه وبين الناس .. وسوف يتعلم أيضًا أنه من طراز آخر .. ومن دم آخر .. وعندما يكبر سوف يبعثون به فى رحلة حول العالم . ومع هذه الرحلة تمتلىء الدنيا بالشائعات أنه تزوج زواجًا عرفيًّا . فمن الذى سوف يدفع الثمن ؟.. نحن الذين سنجد أنفسنا مرغمين على دفع الثمن . أليس ملكًا علينا ؟..

ويقول دوق وندسور فى مذكراته التى نشرها وهو فى السادسة والخمسين من عمره .. إن هذه النبوءة قد صدقت مائة فى المائة .. فهو قد سافر حول العالم وأقام خارج بريطانيا ولكنه لم يتزوج زواجًا عرفيًّا . وإنما تزوج مطلقة أمريكية . وبسببها وجد نفسه مضطرًّا إلى أن يتخلى عن العرش وبهذا العمل الغريب العجيب يكون

من أبناء القرن ١٩ أو القرن ١٨ . وهو يعترف بذلك فى مذكراته . فهو لم يعرف مصباح الكهرباء إلا فى الثامنة من عمره ، ولم ير الطائرات إلا وهو فى الخامسة عشرة وفى الثلاثين استمع إلى الراديو .

وهو أولا وآخرًا ليس أديبًا . ولكنه إنسان وجد نفسه موضوعًا سهلا لكل الألسنة ، وجد امرأة تتحدث إليه بلا مسافة كبيرة وبدلا من أن تقول له : سموك أو جلالتك كانت تقول له : حضرتك أو أنت يا .. هذه البساطة الأمريكية هى التى أعجبته . وهى التى جعلته يلقى بنفسه من فوق العرش ليجلس على الأرض إلى جوارها وليكن ما يكون .. ثم كانت قصة حب طولها ٣٦ عامًا . إنه ملك أراد أن يكون مواطنًا عاديًّا .. ولم يكن مواطنًا عاديًّا طبعًا ، إنما فقط أراد ألا يكون ملكًا ويدفع الثمن ولم يكن غاليًا ... □

فليتحرك الكاتب المصرى

الكاتب المصرى – أى الفرعونى – نعرف صورته جميعًا . إنه رجل جلس مقرفصًا . وهو ينظر إلينا ، كأننا نلتقط له صورة وهو لا يكتب . فليس من الضرورى أن يمسك الإنسان قلمًا لنعرف أنه يكتب أو يضع أذنه على راديو لنعرف أنه يسمع ..

ولكن الكاتب المصرى كان شخصية هامة جدًّا فى حياة مصر ولابد أنه كان أمل كل أب أن يكون ابنه كاتبًا أو كاهنًا وإن كان الكهنة كتبة فى نفس الوقت .. وأصبح الكاتب الآن هو الذى يكتب المقالات فى الصحف أو يؤلف الكتب .. وفى نفس الوقت هو الذى يمسك أى قلم ليكتب أى شىء .. ولذلك كنا حريصين فى العصر الحديث على أن نفرق بين كاتب – أديب – وكاتب حسابات . فنقول كاتب : وجمعها كتاب .. وكاتب : وجمعها كتبة ! !

ومن أهم معالم العصر الحديث : الإدارة .. التى يقوم بها الذين يجلسون على المكاتب وهم فى نفس الوقت أكبر عقبة . فالذين يديرون قادرون على أن يعطلوا .

تمامًا كما نقول إن المواصلات مرفق هام .. هام جدًا إذا وجدناه وخطير جدًا إذا عطلناه .

ومن مشاكل العصر هؤلاء الكتبة الذين يجلسون إلى مكاتبهم ويركنون الأوراق أو يكدسونها أو يعطلونها أو يضيعونها . أو ينامون تحت أثقالها .. وأصبح الكتبة هم نموذجًا للخلل الإدارى ، ولذلك فالعلم الحديث يحاول أن يتخلص من الإنسان ومن متاعب الإنسان وعيوبه بقدر الإمكان .. فالعقول الإلكترونية و « التوجيه عن بعد » والسير نظيفًا كلها محاولة من الإنسان لإبعاد نفسه عن سير العمل لكى يمشى العمل أسرع وأدق .. ولابد أن العلم الحديث فى المستقبل سوف يعتمد على الأجهزة الدقيقة السريعة . حتى لا يعطله الإنسان .. حتى لا يكون ضحية للجالسين إلى المكاتب .

وحتى نصل إلى ذلك اليوم لابد من توسيع شرايين العمل بين إدارة وإدارة .. أو بين هيئة وهيئة .. وأن نزيل رواسب البيروقراطية — أى الخلل المكتبى الروتينى بينهما .. فالكاتب المصرى يجب أن يقف وأن يتحرك .. فليس من المعقول أن يظل طول الوقت جالسًا ، كأن الدنيا من أولها لآخرها ثلاثة أنواع من الناس : كتبة جالسون القرفصاء ومصورون متربصون لهذا الكاتب وأصحاب مصالح لا يجدون من ينجزها لأن الكاتب مشغول بالمصور والمصور مشغول بالكاتب ..

إن تنظيم الإدارة وحل عقدها أملنا الطويل .. ولكن هذا الأمل لن يتحقق إلا بنا ... نحن الذين يجب أن نساعد القوانين الجديدة . وبذلك نساعد أنفسنا .. ونساعد دولتنا التى زادت همومها وأعباؤها .. ونحن أقسى أعبائها ! □

الناس « عهدتهم » !

ما معنى أن نعتدى على رجل من رجال الأمن ؟..

أو ما معنى أن نعتدى على رجل من قواتنا المسلحة ؟

المعنى واحد .. أى أننا نحن المدنيين لا نشعر بأى احترام للقانون .ولا نشعر بأى امتنان للذين يسهرون ويتعبون ويتعذبون ويضحون بحياتهم من أجلنا . ومعناه أننا نتصور أن رجل الأمن قد ولد من بطن أمه ليعش طول الليل فى الشوارع والحارات فى الحر والبرد ليحرس بيوتنا وممتلكاتنا وأرواحنا . وأنه مكتوب عليه ذلك . وأن هذا واجبه .. ومعناه أن الجندى المقاتل الذى شرب المر صيفًا وشتاء وترابًا ورمادًا ودخانًا ونارًا من أجل أن يكون قادرًا على حمايتنا محكوم عليه بأن يموت . منتهى الظلم . ومنتهى الجحود . ومنتهى الجهل أيضًا .. إن هؤلاء الجنود بيننا أو على خط النار ، قد نذروا أنفسهم لحماية المواطنين . وحماية ممتلكاتهم . لا يملك الواحد منهم شيئاً ومع ذلك يدافعون لأن هذا هو واجبه المقدس ، أما واجبنا فهو أن نحميه هو أيضًا . نحمى إيمانه بنفسه وبوطنه . نحميه من

أنفسنا حتى لا يتسرب إليه الشك فى مثله العليا .

إن رجال الأمن الذين ذهبوا إلى ملاعب الكرة : **ذهبوا يعملون لأن ذهابهم** عمل . فلم تكن عيونهم على الكرة وإنما عيونهم على الناس . إنهم **ذهبوا لخدمة** الذين يلعبون والذين يتفرجون على اللاعبين .. ذهبوا ليستمتع الناس **وهم أنفسهم** لا يستمتعون . فالناس « عهدة » .. وسلامتهم واجب وأمنهم **هدف .. ذهب** رجال الأمن فى عمل الحماية اللعب ..

والاعتداء على رجال الأمن اعتداء على القيم الوطنية والأخلاقية .. **اعتداء على** الصورة المثالية لأداء الواجب . إن الكرة التى لم تعلم الناس احترام **الحكم وقواعد** اللعبة لم تعلمهم أيضًا احترام القانون .. إن الذى ينقصنا كثير .. **وأكثره قيم** أخلاقية !. □

اللعب الجاد !

كنت أول من دعا لعودة كرة القدم بعد النكسة مباشرة . ويومها أصدر وزير الشباب بيانًا هاجمني فيه ثم دعاني وشرح لى وجهة نظره . ولكنى لم أقتنع وعادت كرة القدم .. وكانت أسباب إلغاء كرة القدم أن الشعور العام ضد اللعب وضد الضباط الذين كانوا مسئولين عن الكرة وعن النكسة فى نفس الوقت .وهذا هو الخطأ . والنكسة شىء والرياضة شىء آخر . ولو كنا أحسن لاعبين فى كرة القدم ما كان هذا حالنا فى الحرب . لأن الرياضة على الرغم من أنها لعب فإنها : لعب جاد . تمرين شاق واستعداد مستمر . واحترام للقانون . احترام لقانون اللعبة . احترام للأصول . ثم إن كرة القدم لعبة جماعية يشترك فيها الجميع من أجل هدف واحد يوافق عليه الجميع بمجرد أن شخصًا إسمه الحكم أطلق صفارته . فهو القاضى الذى لاراد لحكمه .. لأنه هو القانون واحترام القانون شىء مقدس ولكن نحن الذين أفسدنا كرة القدم . هى جماعية فجعلناها فردية . هى رياضة فجعلناها عبثًا هى احترام للقانون فأسأنا إلى القانون ورجال

القانون . هى محاكمة فألقينا الطوب على القاضى والمحلفين والحراس . هى غالب ومغلوب . ونحن جعلناها إما غالبًا وإلا فلا . كانت الرياضة فرصة لتحويل الجماهير إلى حشد جماعى .. إلى فرحة جماعية .. الى بهجة جماعية .. إلى احترام جماعى .. إلى تقبل للنصر والهزيمة على أن هذه من شروط أية لعبة .. إلى إذابة للفوارق بين الناس .. إلى امتصاص مضايقات الناس وقرفهم ، إلى انشغالهم عن الشعور بالذنب والندم والعار بسبب الهزيمة .. وانصرافهم إلى أعمال أخرى إيجابية غير البكاء والعويل على الذى راح وانشغالنا عن الذى فى أيدينا ، وعن مستقبلنا .. إلى جمع الشباب من الشوارع ومعاكسة البنات والتطلع والتنطع على النواصى ، وإلى الجلوس فى الهواء الصحى والشمس النافعة فى انتظار الانفعالات التى تصدمه وتغسله وتعصره وتنشره كأنه ملابس مبللة .. لكى يعود إلى عمله أحسن وأصح وأقوى من أجل أن يكون نافعًا لبلده . هذا هو الشيء والمعنى ، ولكننا أسأنا إلى كل معنى . □

الفن أطول عمرًا !

بيكاسو

واحد من كبار المسئولين عن ظهور اللوحات والتماثيل « الملخبطة » الألوان والأشكال والأحجام . وقد عرض فى باريس ألف لوحة بمناسبة عيد ميلاده الخامس والثمانين . اللوحات قيمتها ٢٥ مليونًا من الجنيهات ..

وبيكاسو لم يبدأ حياته الفنية سيرياليا . إنما بدأ يرسم كأى إنسان عاقل جدًّا . الخطوط ناعمة والفرشاة ثابتة والألوان صريحة .. ويوم عرض لوحاته الأولى لم يتردد إنسان فى أن يصفه بأنه أستاذ .. وبأنه سوف يكون عظيمًا .

وانتقل بيكاسو بصورة واضحة من لوحات فيها ملامح الوجه واضحة ، وكل عين فى مكانها ، وكل أذن فى مكانها .. والأسنان بين الشفتين .. والرأس فوق الكتفين . وبعد ذلك انطلقت هذه الملامح كل واحدة فى مكان . أو كلها فى جانب واحد من الوجه .. واختلطت النسب : فالرأس أصغر من العين .. والعين أكبر من البطن .. والذراعان فى ضخامة جذوع الشجر هذا إذا كانت اللوحات مفهومة . أما

لوحاته التجريدية ، فهى تعبر عن المعانى وليس عن الأشخاص . عن الفرح : ليس عن الإنسان الفرحان ، عن الجوع : وليس هذا الإنسان الجائع .

وحاول كتابة الشعر والمسرحيات . وأنا ترجمت له مسرحية منذ ١٩ عامًا اسمها . «اللذة من ذيلها» . وهو فى هذه المسرحية قد سبق الكثير جدًا من مسرحيات «العبث» .

وهو رجل حريص على المال . ومن الممكن أن يقال إنه بخيل . وزوجاته يروين نوادر كثيرة عن بخله .. واحدة قالت : إن بيكاسو يتمنى لو كانت السماء حبرًا أزرق يغمس فيه فرشاته حتى لا يضطر إلى شراء علبة ألوان واحدة

وزوجة أخرى قالت : إنه لا يرهق نفسه أبدًا . إنه يفضل أن يقرأ عن قبلة فى قصيدة على أن يقوم هو بتقبيل أعز الناس عليه .

وعندما تقدم له أحد الشحاذين أخرج بيكاسو ورقة مالية صغيرة من جيبه ، ثم رسم عليها شجرة وعصفورا ووقع بامضائه عليها . وقال للشحاذ : فى استطاعتك أن تبيعها بمائة جنيه احجز لى نصفها .

وهو من المؤكد رجل ظريف ومحب للحياة والمرح . ولابد أنه رجل عملاق واثق من نفسه . وهو يقول عن نفسه : إن هناك اثنين من الناس لا يستطيعان مقاومتى : التاجر والمرأة .

وقد تجاوز بيكاسو التسعين من عمره ، وهو حريص على صحته وعلى ماله وعلى عواطفه أما لوحاته فستبقى بعده بآلاف السنين .. فالفن أطول عمرًا من الفنان . □

حسن الظن !

لابد أن حسن الظن من المسلمين فى جزيرة بالى هو الذى جعلهم يجتمعون فى بيت واحد منهم بعد صلاة العشاء ويبعثون فى طلبى . وجاءنى فى الفندق وفهمت منه أن الدعوة عاجلة . وضغط على كلمة عاجلة . وفهمت أنه لاداعى لأن أرتدى الكرافتة وأن أكتفى فقط بالبنطلون والقميص . وأمسكت المشط فى يدى وسألته إن كان ممكنا أن أسوى شعرى . ويبدو أنه لم يدرك بالضبط معنى هذه الإشارة . فأنا أعبر عن شعور داخلى . فشعرى أكرت وشعورهم كلها سايحة سوداء ، لامعة ، وأنا أريد أن أرتفع إلى مستوى الشعور الناعمة . وإننى لاأريد أن أبدو أفريقى الشعر . وذهبنا معًا إلى بيت واحد من أبناء حضرموت الذى سكن جزيرة بالى الأندونسية من أربعين سنة .

ونهض الناس واقفين . وترددت السلامات والتحيات . وهى جميعًا باللغة العربية .. وعلى الفور اقترب شاب صغير وقدم لى ابريقا من الماء لكى أغسل يدى . وغسلت يدى دون أن أفكر . وقدم لى فوطة . وجففت يدى . وجلست أنتظر

الخطوة التالية . وساد صمت رهيب . وأحسست كأنه من المطلوب منى أن أتكلم ، ولم يتكلم أحد . ولاحظت أننى لا شعوريًا قد جلست مقرفصًا . ثم متربعًا كما يفعل القارئون .. وبسرعة أنزل رجلى حتى لا يتصور أحد أننى سوف أتلو القرآن .

وتساءلت : خيرًا إن شاء الله ؟

وقالوا : إن شاء الله

وأشاروا إلى كبيرهم أن يبدأ هو بالسؤال .

وهز رأسه وقال : إنما أردنا أن نستوضح منك معنى آلم .. و .. آلر .. و .. كهيعص .. و .. طسم .. فقط .. وكان ردى أن أحدًا لا يعرف معنى هذه الكلمات وأن أكثر العلماء تعمقا فى الدين يقول : إن الله أعلم .. وفهمت من كلماتهم الأندونيسية ولهجات الامتعاض وعدم الارتياح . وسمعت كلمة مصر تتردد عشرات المرات ولابد أنهم يقولون : كيف تكون من مصر بلد الأزهر الشريف ولا تعرف معانى هذه الكلمات ؟!

وأنا بالفعل لا أعرف ولا أحد يعرف وخرجت عائدا إلى الفندق وحدى ، دون أن يرد واحد منهم السلام . فسامحهم الله . والله أعلم ! □

المهم : « كيف » الخلايا !

تنفيذًا لتوجيه العالم الكبير أينشتين فتح الأطباء رأسه وأخرجوا مخه ووزنوه . وحللوه . ولم يجدوا أية فوارق بين مخه من ناحية الشكل والتركيب وبين أى خادم لأينشتين ، أو أى — كلب من كلابه التى كانت تلعب فى حديقة بيته .

إذن أين تكمن عبقرية الإنسان وأين توجد بلادة الحيوان ؟

لا يمكن أن يكون كبر حجم المخ هو السبب . فمخ الفيل يزن خمسة كيلو جرامات . والإنسان مخه يزن كيلو جرامًا ونصف . والغوريلا مخها يزن نصف كيلو جرام والكلب مخه يزن ١٣٠ جرامًا والقط مخه يزن ٣٠ جرامًا أما الفار فمخه يزن نصف جرام . ولكن الحيوان الضخم المسمى بالديناصور : والذى يزن حوالى عشرين طنًا ، فإن مخه فى زنة مخ الفار ..

وعلى الرغم من التطور الهائل الذى حققه الإنسان فى العشرة الآلاف سنة الأخيرة ، فإن مخ الإنسان لم يزد جرامًا واحدًا . فلا يزال متوسط وزن المخ هو كيلو

جرام ونصف ، ونادرًا ما يصل إلى كيلو جرامين . ولكنه لم يزد على ذلك . ولا تغيرت ألوان المخ ولا تغيرت مادة المخ . ويمكن أن يقال إن عدد خلايا المخ هي عبارة عن ١٤ ألف مليون خلية وإن الزيادة فى الخلايا ضئيلة جدًا .

ومن الغريب أن مخ بعض العباقرة صغير الوزن بصورة مذهلة . وأن مخ بعض المجانين كبير الوزن . وقد اختلط الأمر على بعض الأطباء عندما شرحوا مخ طبيب قتله مجنون ثم انتحر . فوضعوا مخى الاثنين متجاورين . ووجدوا أن مخ المجنون أكبر . ومخ الطبيب أصغر . ثم إنهم لاحظوا أن الفارق فى الوزن كبير . إذن ليس وزن المخ . وليس التطور الإنسانى هما الزيادة فى وزن المخ أو فى عدد خلاياه . ولكن التطور هو هذه العلاقات المعقدة الإبداعية بين الخلايا ..

وهذه العلاقات لا تمكن رؤيتها بالعين ولا بالميكروسكوب .. إنما هذه العلاقات تظهر آثارها فيما يفعله صاحب المخ المعقد التركيب ، وصاحب المخ البسيط التركيب . والعقول البسيطة تتكون من أشرطة تسجيل متجاورة . ولكن التطور فى العقول الكبيرة تشبه أشرطة تسجيل متفاعلة .

ومن هذا التفاعل تخرج الأفكار الجديدة والخيالات الرائعة ..

فليس التطور هو فى « كم » الخلايا ولكن فى « كيف » الخلايا .. ليس فى وزن ما يصدر عن المخ ... □

الأسلاك العالية .. هناك !

ذهبت أتفرج على أحد معسكرات الاعتقال النازية فى مدينة داخاو بالقرب من ميونخ وهو يشبه السجن الذى رأيناه فى فيلم محاكمة نورمبرج « أسوار من الأسلاك العالية المكهربة وقنوات من الماء تفصل بين السجن والأسوار وأنوار كاشفة لكل شىء وغرف الغاز لحرق الأسرى من الألمان وليسوا جميعًا من اليهود فهو سجن لكل من يخالف هتلر فى الرأى من المدنيين والعسكريين والمسيحيين واليهود .

وفى السجن « محارق » للأسرى وفى الحديقة الصغيرة التى فى السجن طرق مرشوش عليها فحم أسود ليتذكر الناس أن هناك ألوفًا أحرقوا بالنار وتحولوا إلى رماد أسود .

وهناك معرض بالصور النادرة للأسرى وللتعذيب وهناك صور لهتلر وقد فقأ الزوار عينيه رغم التحذيرات الشديدة لهم ألا يفعلوا ذلك .

ولا تزال أعمال البناء والإنشاء مستمرة فمن المنتظر أن يقيم الألمان جناحًا آخر

لمحاكمات نورمبرج وربما لمحاكمة أيخمان فى إسرائيل وربما استخرج الألمان وثائق جديدة نادرة من مخازن وزارة الخارجية الألمانية .

وكل شىء فى هذا المعسكر مخيف .. ويحفر بالنار ذلك الشعور بالذنب عند الألمان ، وبدلا من أن ينسى الألمان هتلر والنازية فإن صورة هتلر والنازية ومعسكرات الاعتقال والكتب المدرسية . وفى المعارض - لقد رأيت أربعة معارض فى همبورج - كلها تصور التعذيب والعذاب لليهود ورأيت معرضًا افتتحته بريجيت باردو لفنان حديث ، لا يمكن أنّ يكون قد عرف شيئًا عن معسكرات الاعتقال ومع ذلك فقد جعل لوحاته عن معسكرات الاعتقال وكل لوحاته سوداء النفس كالنفس الإنسانية الخائفة الحائرة القلقة بعد الحرب الثانية وقبل الحرب الثالثة .

إن كل ألمانى تتحدث إليه عن هذا التعذيب المستمر لهم يقول لك ماذا نفعل ؟ إننا دولة محتلة وإن هتلر كان مجرمًا وإن رءوس الأموال التى تدير الإذاعة والتليفزيون والصحف ليست فى أيدينا فاعذرونا .

وهم معذورون ولكن من الصعب علينا نحن العرب أن نقبل أعذارهم .. □

الزكام المقدس !

قرأت تصريحًا غريبًا للدلاى لاما ، الذى كان الإله الوحيد للتبت ،وقد طردته الصين منذ سنوات . وتصريح الدلاى لاما ليس على لسانه هو طبعًا إنما على لسان رئيس وزرائه . ويقول رئيس الوزراء إن قداسة الدلاى لا يصاب بالزكام . وليس صحيحًا أن أقراص الأسبرو هى التى تحميه من الزكام !

كذاب ألف مرة !

فأنا أعرف الدلاى لاما شخصيًّا . وأعرف رئيس وزرائه . وهو رجل يتكلم الفرنسية بطلاقة وهو الذى تعاون معى ضد سلطات الأمن الهندية لكى أتمكن من رؤية الدلاى لاما والجلوس معه ساعتين .

وقد استطعت أن أجلس مع صاحبة القداسة والدته . وأن أصورها فى ملابس نايلون .

والله يعلم أننى أصبت بالزكام الشديد جدًّا . فقد كان قداسته مزكومًا . وعندما

تشرفت بمصافحته انتقلت إلى أيدى وأنى وملابسى ملايين من ميكروبات الزكام ولابد أن شعب التبت قد حسدنى على هذا الشرف العظيم : أى العطس المقدس .

وفى ذلك الوقت تصورت أن الزكام سببه أننى تنقلت فى يوم واحد بين جبال نيودلهى ، وبين برودة جبال الهملايا وهضبة التبت . ولكن الحقيقة المؤكدة هى أن قداسته كان مصابًا بزكام شديد . وهو كأى إنسان يبرد ويعطس ويرشح وينقل العدوى إلى الآخرين !

أما صاحبة القداسة والدته فقد كنت أول صحفى تحدث إليها وأول من التقط لها صورًا ، وقد طلبت إليها أن تخلع ملابس القداسة وأن ترتدى ملابس الناس الطيبين . وقد أسعدها هذا الاقتراح . فقد تلقت هدية من القمصان النايلون . وارتدت قمصانها وخجلت أن ألتقط لها صورة وهى شبه عارية . فهى أم . وطلبت إليها أن ترتدى ملابسها الأولى . وترددت . ثم راحت تغير ملابسها وتعطس !

وأصبحت إصابتى بالزكام مؤكدة ..

فالدلاى لاما وأمه وأبوه أيضًا يصابون بالزكام ككل مخلوقات الله

ولابد أن رئيس الوزراء قد حاول أن يقلد شارلى شابلن عندما شكا إحدى شركات الأدوية لأنها ادعت أن أدويتها هى سبب حيوية شارلى شابلن . وقد كسب شابلن القضية .

ومن المستحيل أن يكسب الدلاى لاما مليمًا واحدًا من شركة أسبرو فليس أسهل من إصابته بالزكام .. إنه مريض بالحساسية الشديدة . وأى إنسان ينفخ فى وجهه يعطس فورًا . □

من شدة البكاء : يطول عمرها !

ذهبت مع صديق لمقابلة الطبيب .. وأشار صديقى بأن أتولى أنا وصف الحالة أما الحالة فهى أن طفلا صغيرًا يشكو من مغص دائم . وأنه يتلوى وأنه يتأوه كأنه رجل عاقل وأن أم الطفل تتمزق بكاءً عليه . وأن هذا الصديق يكاد يموت كمدًا على الاثنين . وأنه لذلك عاجز عن أن يقول للطبيب أى شىء .

وجاء الطبيب وتقدمت وسألنى : أنت ؟

قلت : صديقى له طفل يعصره الألم .. ويلفه كأنه فوطة بين يدى غسالة ريفية . وأم الطفل دموعها تملأ طشتًا . وأبو الطفل فاقد للنطق وقد أتى بى لأترجم مشاعره ..

وأشار الطبيب فى هدوء أن نجلس .. وهدوء الأطباء سببه أنهم قد رأوا مثل هذه « الحالة » ألوف المرات . فهى ليست شيئًا جديدًا . ولا مثيرًا . ولا تهز عواطفهم . ولا تحرك قلوبهم .. إنما هى حالة عادية تتكرر فى اليوم الواحد عشرات

المرات وتتكرر فى العمر عشرات الألوف .. ولكن هذه « الحالة » هى حادث جلل جدًّا فى حياة أب وأم طفل واحد ..

وتصفحت مجلة بينما وقف صديقى يروح ويجىء . ومع كل خطوة قدم نفخة من سيجارته ، وأنفه يعلو ويهبط كأنه يرسم علامة تعجب من هذا الطبيب الذى انشغل عنه وعن ابنه وعن زوجته .

وحاول الصديق أن يبرر مسلك الطبيب بأن قال إنه مثل كل السويسريين عبارة عن آلات دقيقة . المهم أن تكون دقيقة . وأن تمشى بنظام وألا ينفذ إليها الماء أو الهواء وألا تتأثر بالمغناطيسية . ومن المؤكد أن هذا الطبيب لم يتأثر بألم الأب ودموع الأم ومغص الطفل . إنه طبيب آلة سويسرية دقيقة . بلا إنسانية

ومن الغريب أن الطبيب جاء ليقول لصديقى نفس الكلام الذى حشرته فى أذنيه لأنه لا يريد أن يسمعه . فقد قال له الطبيب : إن مرض الطفل عادى جدًّا . وإن صراخ الطفل لا يضره .. وإنما يقوى حنجرته وصدره وينشط الدورة الدموية .. فاتركه يصرخ كما أن الدموع لن تقتل الزوجة . إن المرأة محظوظة لأنها تفرج عن همومها بالبكاء ولذلك فالمرأة أطول عمرًا من الرجل لأنها تبكى .. ولو عرفت المرأة الكمد الذى يمارسه الرجل لماتت فى عز شبابها .. ولكنها حكمة الله أن تعيش المرأة بعد زوجها لكى تربى أطفاله ولكى تزداد عيناها لمعانًا ويطول عمرها من شدة البكاء . □

الدنيا لن تتغير.. إذا !

لم ألاحظ أى تغيير طرأ على الدنيا بعد أن اختفت السيجارة من فمى السماء فى مكانها . والأرض فى مكانها . وأنا فى مكانى من الأرض ومن الناس والأشجار والأحجار . ولا أزال أمشى على قدمين وأرى بعينين . ولا أزال أرى السجائر فى أفواه الناس فلا أتحول إلى إنسان بدائى أخطف هذه السيجارة وأضعها فى فمى أو أدوسها بقدمى . لم يتغير فى الدنيا أى شىء ..

ولم يكن الإنسان قبل ظهور السجائر حيوانًا ثم أصبح بها إنسانًا .

وامتنعت أيضا عن شرب الشاى . وقد شربت الشاى بمتعة فى القارات الخمس . وكنت أسخر من الإنجليز فى بلادهم عندما لا أجد الشاى – مظبوطًا – من ناحية اللون والطعم والرائحة . واتخذت لنفسى وظيفة الأستاذ الفاهم لأصول صناعة الشاى . فكنت أقول بأستاذية واضحة : يجب أن يغلى الماء مرة واحدة ولمدة نصف دقيقة . وبعدها يوضع الشاى الجاف . وبعد ذلك تتركه ثلاث دقائق وتصبه

فى الأكواب ذهبى اللون عطرى الرائحة قوى الطعم .

وفجأة وجدت أن من الضرورى أن أتخلى عن الشاى وأستاذية الشاى . وبعد أسبوع من استبعاد الشاى من حياتى ، لم ألاحظ أن الدنيا تغيرت . لا بالنسبة لى ولا بالنسبة للناس كلهم . وكان الشاى من العادات القبيحه جدًّا فى أوربا فى القرن التاسع عشر .

وكانوا يحرمونه . ولقد دخل الشاى مصر عن طريق طلبة الأزهر القادمين من المغرب العربى فى القرن الثامن عشر . وكانوا يشربونه سرًّا . وكانوا يرون أن الشاى كالمال والبنين زينة الحياة الدنيا !

وعندما أشار الطبيب إلى فنجان القهوة صرخت قائلا : فى عرضك يادكتور .. إلا القهوة

وامتنعت عن القهوة . ولم يتغير شىء فى الدنيا .. فى دنياى وفى دنيا الناس ..

وفى حياتنا أشياء كثيرة نراها ضرورية . مع أن من الممكن الاستغناء عنها ، فإذا استغنينا عنها اعتدنا على الحياة من غيرها . فليس كل الناس يدخنون . وليس كل الناس «كييفى» قهوة وشاى ! .

ولا أعرف الآن طعم الدنيا عندما أعود إلى القهوة وإلى الشاى وإلى السجائر . من المؤكد أن الدنيا لن تتغير .. ومن المؤكد أننى سوف أحلم باليوم الذى أتحرر فيه من سجن أبيض لامع فى حجم الفنجان . □

اجتمعوا على فأس واحدة !

أول فأس ضربت فى الأرض التى تقوم فوقها بور سعيد الآن كان يوم ٢٥ أبريل منذ أكثر من ١٠٠ سنة وأعلن حامل الفأس أن مشروع حفر قناة السويس قد بدأ . والمشروع قديم من أيام الفراعنة . وقد حاولوا كثيرًا . ولكن كان من الصعب عليهم أن يكملوه ، وكان الفراعنة مشغولين بإقامة مشروعات أخرى فوق سطح الأرض .. لها علاقة بالموت أكثر مما لها علاقة بالحياة . وبالحياة بعد الموت . فالمعابد أقيمت للموتى . والأهرامات للموتى والمصاطب للموتى . ونصف الأطعمة والذهب والأحجار الثمينة كلها دفنت مع الموتى .. ونصف مابذله الفراعنه من مجهودات كانت فى صيانة المقابر وكنوزها .. والتفنن فى إخفائها من عيون الجائعين من المواطنين ، ولصوص الأجيال القادمة .. ولو اتسع الوقت عند الملوك والمهندسين والكهنة لفتحوا قناة السويس هذه من وقت طويل ، ولفعلوا ذلك فى جرأة . فلم يكونوا قد اكتشفوا بعد نظرية مستوى سطح المياه فى العالم كله . وأن مياه البحار والمحيطات كلها فى مستوى واحد . وهذا ما لم يكن

يعرفه علماء الحملة الفرنسية . فقد تصور بعضهم أن ماء البحر المتوسط أعلى من ماء البحر الأحمر بعدة أمتار . ثم جاء بعضهم وأعلن أن الفوارق بين البحرين لا تتجاوز الشبر الواحد . ثم تأكد لدى العلماء والمهندسين أن المياه كلها فى مستوى واحد وأنه لا خوف على مصر من الغرق إذا انفتح البحران المتوسط والأحمر فى قناة صغيرة .

وتردد صدى الفأس الصغيرة فى كل بنوك إنجلترا وفرنسا ، وفى قصر الخديو وفى بيت القنصل الفرنسى وفى الفاتيكان . والذى جمع كل هؤلاء على فأس واحدة هو الفلوس والنفوذ . فالطريق الذى يصل البحرين هو أقصر الطرق إلى الشرق الأقصى . وهى قناة هوائية أيضًا .. تتنفس منها بريطانيا وفرنسا معًا .

وتوالت الفئوس وانحنت الرءوس على الأرض المصرية . وتساقط عرق الأجير واندفن الكثيرون تحت أعين الكثيرين . ولم تتوقف الفئوس ولا الكرابيج ولا العرق ولا الدم . وعندما ارتفعت آخر فأس فرقعت زجاجات الشمبانيا بين يدى الخديو والإمبراطورة الفرنسية والباشوات ، وبعدها تدفقت الأموال من خارج مصر إلى خارج مصر ، ويوم أممنا القناة انتقمنا للألوف الذين تعذبوا ، وللملايين التى سرقت وللكرامة التى أريقت ثم تدفقت المياه بين البحرين .. وأما الأموال فلم تعد « تعبر » بلادنا إنها ترسو على شاطىء اقتصادنا فى حمى استقلالنا ، ومتوجة بكرامتنا . □

الصيد كبير !

من النادر أن يصادف الإنسان فتاة قررت أن تكون ملكة ثم صارت ملكة فهذه الفتاة عندما كانت فى العشرين من عمرها قابلت أحد أقاربها فى مدريد . نظر إليها نظرت إليه . لاحظ أن أنوثتها بدأت تتحدث بفصاحة فى أماكن مختلفة من جسمها الملفوف . هزت رأسها ثم قالت له : لابد أن نكون زوجين ..

هز رأسه إنه لا يريد أن يتزوج قالت له : سوف تندم .

قال : الندم كلمة ليست فى قاموسى ..

قالت : سأكون الطبعة الجديدة من قاموسك . وسأجعل الندم الشديد أول كلمة فى أول صفحة .

قال : لم ترفضنى فتاة من قبل .

قالت : أنت لست أول من أرفضه لو طلب يدى لقد رفضت قبلك عشرين نبيلا ومليونيرًا . ولن أقول : نعم إلا لرجل واحد ..

قال أعرفه .. عزرائيل :

قالت : بل ملك له عرش :

وضحك وضحكت . وافترقا .. وأخذت أمها تعرضها على كل القصور فى باريس . وفى مدريد . وفى فيينا . الأم تؤكد لابنتها أن أباها رجل مفلس وأنه لا سبيل إلى إنقاذ الأب إلا بكنز من الذهب الخالص .. أو بمليونير عجوز أو بملك مغفل شاب .. وطلبت إلى ابنتها أن تختار فريستها بسرعة وطلبت إلى ابنتها أن تتدرب على الصيد الكبير ولما سألت البنت أمها : مامعنى هذا ؟ أجابت الأم بصراحة :

ليس على الأرض ملوك كثيرون ، فجربى أسلحتك مع ملايين المواطنين . وإذا اهتز قلبك لأى إنسان فدوسى على قلبك . فكل الذين استمعوا إلى قلوبهم عاشوا فقراء وماتوا مجانين :

وفى يوم قررت الفتاة وأشارت : هذا الرجل . وقالت لها الأم انت متأكدة ؟؟ أجابت البنت : أنا تلميذتك . وتعانقت الأم والابنة ..

أما الرجل الذى أشارت اليه الابنة فهو الامبراطور نابليون الثالث الذى تحدى الشعب الفرنسى بزواجه من هذه الفتاة الأسبانية . ومزق الإمبراطور استقالة وزرائه الذين احتجوا على هذا الزواج .

أما الفتاة فهى : الإمبراطوره أوجينى التى انتقمت من كل الذين اعترضوا على زواجها وكل الذين حاولوا إقناعها بأن تكون عشيقة لعرش فرنسا بدلا من أن تكون ملكة عليه ..

أما الرجل الذى قررت أن تعلمه الندم فهو فرديناند ديليسبس الذى حفر قناة السويس فى مثل هذا اليوم من أكثر من ١٠٠ سنة حتى معركة العدوان الثلاثى . □

التفاهم « فوق » !

في كل مرة ينطلق صاروخ إلى القمر يؤكد العلماء أن هذا الصاروخ معقم حتى لا ينقل جراثيم الأرض إلى هذا الكوكب الذى يبعد عنا ربع مليون ميل والذى إذا قورن بحجم الأرض كان مثل حبة ترمس إذا وضعت الى جوار بيضة أوزة ..

والعلماء يقولون إنهم يعقمون الكلاب والقرود التى سوف يرسلونها إلى القمر أيضًا . ولنفس السبب . ولكن ما الذى يحدث إذا انطلق الإنسان إلى القمر وهبط هناك . طبعًا سيكون معقما ضد الأمراض . أى أنه خال تمامًا من الجراثيم . وهذا ممكن . ولكن سيبقى هناك شىء مهم جدًّا لم يتم تعقيم الإنسان ضده . وهو الإنسان نفسه . وهل هذه الرحلة القصيرة بين الأرض والقمر ستغير من طبيعة الإنسان ؟ هل ستحوله من إنسان إلى ملاك ؟ إن عددًا كبيرًا من رواد الفضاء قد قطعوا مئات الألوف من الأميال حول الأرض . ثم هبطوا . ولم تغير هذه الرحلة من طباعهم شيئًا ، لقد ارتفعوا إلى الفضاء الخارجى بشرًا ، وهبطوا إلى الأرض بشرًا أيضًا . بل

أكثر حرصًا على الحياة من أى وقت مضى .

ومعنى ذلك أن الإنسان إذا هبط على القمر فهو انسان بكل ما تعنى هذه الكلمة من شر وخير وحب وكراهية وتفرقة عنصرية .. أى بكل ما للانسان من تاريخ ..

ولابد أن يتحول القمر إلى منفى للمجرمين والساسة ، تمامًا كما كانت استراليا وأمريكا منفى للمجرمين من الإنجليز . وبذلك سيصبح القمر أعلى سجن فى العالم . سجن شمسه تطلع أسبوعين وتغيب أسبوعين . بارد جدًّا وحار جدًّا .

ولن يلبث هذا المنفى المرتفع أن يتحول إلى مكان جميل يتمناه كل مواطن أرضى . فاستراليا أجمل من إنجلترا ، وأمريكا أروع من إنجلترا .. لقد رأيت الناس فى استراليا أرق وألطف من الانجليز . ورأيتهم يكرهون الإنجليز بنفس الدرجة التى سيكرهنا بها سكان القمر ..

ولكنى لا أستبعد أن تتحقق المعجزة القمرية .. وذلك بأن يتآلف الروسى والأمريكى « فوق » بعد أن عجزوا عن التفاهم « تحت » ومن هذا الانسجام على سطح القمر سيولد شعب أفضل .

صحيح أن الإنسان سيحتفظ بكل أمراض الإنسانية النفسية والجسمية وكل عقدها التاريخية ولكن الظروف التى تغيرت ستؤدى حتمًا إلى أسلوب واحد فى التوافق مع البيئة من أجل الانتصار عليها فى النهاية . □

سيكلوجية الفن !

ما الذى فعله صانع التماثيل الفرعونية القديمة ؟
إنه أعلن الثورة على الموت . وتماثيله تؤكد هذا التحدى فقد مات الفنان وبقى الفن .
فما الذى بقى من الفنان ؟ بقى هذا التمثال . والتمثال ليس قطعة من الحجارة مشحونة بالعواطف . ولكن التمثال معناه أن العالم فى ذلك الوقت كانت تدور به معان كثيرة وقد سجلها العالم بأصابع الفنان .

ومع ذلك فنحن لا نعرف إلا القليل جدًّا عن دين مصر الفرعونية . وهذا الدين ليس إلا موضوعًا من موضوعات البحث . ونحن لا نعرف ماذا كانت تعنى هذه التماثيل الفرعونية بالنسبة لصانعها . ومن المؤكد أن هذه التماثيل ومدلولاتها ليست فقط ألغازًا يتولى حلها رجال الآثار والباحثون ، إنما هى أعمق من هذا بكثير .. فمعانى هذه التماثيل صوت يدوى فى آذاننا وفى أجيال من بعدنا .. هذا الصوت لم يكن يدرى به الرجال الذين صنعوها .. وماتوا قبلها لتعيش بعدهم .

إن هذه التماثيل تؤكد هذا الإصرار الهائل من جانب الإنسان لكى يعيد خلق العالم الذى يراه والذى يحس به .. ولا يمكن أن يكون هذا الإصرار . شيئًا تافهًا . فلا شىء حقيقيًّا بعد موت الفنان والملايين من معاصريه والملايين من بعده إلا هذه التماثيل ، فالتماثيل أكثر مصرية من المصريين . وتماثيل الكنائس أكثر مسيحية من المسيحيين . وتماثيل ميكلونجلو أكثر تعبيرًا منه عن نفسه .

فهذه التماثيل يتردد صدى همسها وصراخها فى أجيال قادمة للإنسانية لا نعرف مداها ، وليست الإنسانية معناها أن يقول الإنسان إن الحيوانات لا تستطيع أن تفعل ما أفعله أنا ، ولكن الإنسانية معناها أن يقول الإنسان : إننى أرفض أن أفعل ما توحى به الحيوانية فى أعماق ، وإنى قادر على أن أقف فى وجه كل شىء رغم كل شىء .

هذا الإنسان يرى روعة السماء ويسمع موسيقى النجوم ، ومع ذلك يتجه إلى الأحجار يسجل عليها هو الآخر موسيقى لا يعرف هو مدى أعماقها .. إن هذا الإنسان يلمع فى الأحجار عبر القرون .

فما أكثر ماقاله الفنان المصرى القديم عندما صنع تماثيله وطواها على معان كثيرة صاخبة . صاحب هذه الكلمات الجميلة هو ضيفنا العظيم أندريه مالرو ، وقد جاءت فى الصفحة الأخيرة من الجزء الثانى من كتابه الرائع « سيكولوجية لفن » . □

الجوع : سهام ونبال !

من أيام نوح عليه السلام ونحن ننظر إلى الحمام بامتنان تاريخى . فالحمام هو الذى عاد إلى نوح أيام الطوفان وفى منقاره غصن زيتون .. ومعنى ذلك أن الماء قد انحسر عن الدنيا ، وأن الأرض قد ظهرت . وأن فى استطاعة أهل نوح أن يستأنفوا الحياة على أرض تطهرت من شرور الناس !

وعلى بعض المساجد توجد سفن صغيرة للدلالة على أن صاحب المسجد بحر من بحار المعرفة والإيمان . وكثيرًا ما امتلأت السفن الصغيرة بالقمح الذى تعيش عليه أسراب الحمام .

وأمام الكنائس الكبرى فى أوروبا توجد ميادين واسعة تغطت بألوف الحمام الذى اكتسب مع مئات السنين الهدوء والطمأنينة . تمامًا كما اكتسبت الأبقار فى الهند نفس الهدوء والطمأنينة على حياتها ..

ثم حدثت كارثة ..

لقد غرقت مدينة البندقية . غرقت شوارعها القليلة وغرق ميدان القديس

مرقص .. وغرقت مدينة فلورنسه ، وغرق ميدان الكاتدرائية . وطارالحمام ، بالألوف بعيدًا عن الأرض ، فلا طعام ولا ناس . لقد انشغل الناس عن إطعام الحمام بطعامهم هم . وانشغل الذين وجدوا الطعام بإنقاذ اللوحات الفنية والكتب الأثرية .

وعرف الحمام الجوع . وعرف الوحدة والقسوة . لم يجد الطعام السهل . ولم يجد ألوف السائحين يضعونه على الأيدى والأكتاف . فتحول الحمام فجأة إلى طائر برى . وتحولت الأجنحة إلى كرابيج ، ومناقيره إلى سهام . وراح ينقض على البيوت ويحطم النوافذ . ويخطف الطعام من أيدى الناس .. ويفقأ عيون الأطفال ، ويمزق الملابس . لقد عرف الحمام الجوع فأعاده الجوع إلى أيام ما قبل الطوفان . أيام كان طائرًا بريًّا شرسًا .. والجوع هو الذى يحول الكلاب إلى ذئاب ، ويحول القطط إلى نمور ..

وتحولت مدينة البندقية العائمة إلى كهف مظلم غارق فى الماء .. وتحولت مدينة فلورنسه التاريخية إلى بقايا مدينة .. فقد عرفت مئات الألوف من أبنائها الجوع والعزلة والبرودة والتيفود والموت .. وأصبح الليل مخيفًا مظلمًا ترفرف فيه طيور غريبة .. لا تحمل أغصان الزيتون فى قلب هذا الطوفان .. إنما تحمل سهامًا ونبالا . لقد عضها الجوع ، فراحت تنهش الناس ! □

الضباب الأبيض

ممثلو : السينما والمسرح والتليفزيون يعجبون جدًّا بالرجل الذى اكتشف استراليا وجزر هاواى . هذا المكتشف اسمه : كيرك . فهذا الرجل عندما ذهب إلى جزر هاواى ورأى الناس سفينته الكبيرة أحسوا أنها جزيرة عائمة . وأن هذه معجزة . فركعوا له . وعندما نزل إلى الجزيرة ووضع يديه فى جيوبه كأى إنجليزى متغطرس . ركع له الناس مرة أخرى . فقد تصوروا أن هذه معجزة إذ كيف يضع إنسان يديه فى أحشائه ثم يخرجها دون أن تسيل منه قطرة دم .

أما لماذا سجد أهل الجزيرة كلهم بعد ذلك ثم استسلموا له نهائيًّا ، فلأنه أشعل سيجارًا ضخمًا وراح ينفث الدخان من فمه ومن أنفه . وهنا سجد الناس لهذا الإله الجديد . الذى يضع النار فى فمه ولا يحترق !

والممثلون عندنا لا يكاد الواحد يخلو بالبطلة أو ينتظرها أو يفكر فيها حتى يضع يديه فى جيبوبه ، ثم يتطاير الدخان من أنفه وفمه . ويملأ به الشاشة . إنه هو الآخر

يفكر فى أن يسقط قلب المرأة تحت قدميه . وأن ينهار الجمهور أمام قدرته الخارقة !

ولابد أن مخرجى الأفلام والمسرحيات هم أيضًا أشد الناس إعجابًا بالمكتشف الإنجليزى ولذلك فهم يحرصون على أن يملأوا الدنيا بهذا الضباب الأبيض وهذا الضباب يجعل للشاشة شيئًا من الغموض . وفى هذا الغموض يتسلل الحب إلى القلب . أو يختنق الحب . تمامًا كما يحدث فى المعارك الحربية . وتحت الضباب تتسلل قوات المعركة . ويسقط شىء . أو يسقط أحد . هذا الشىء أو الاحد هو قلب الفتاة التى يحبها بطل الفيلم أو بطل المسرحية !

لا مانع أن يتوهم المخرج والممثلون أن للدخان هذه القوة السحرية مادام الموقف تمثيلا فى تمثيل !

ولكن ما الذى يتوهمه الناس العاديون عندما يركبون الأتوبيس أو القطار أو عندما يذهبون إلى السينما وتمتد أيديهم إلى جيوبهم إلى أفواههم وهات يانفخ . إنهم لا يتوهمون إلا شيئًا واحدًا هو أنهم وحدهم فى جزيرة . وأنهم أحرار يفرضون روحهم ومزاجهم على الناس . فماداموا يحبون التدخين ، فمضايقة الآخرين لا تهم إنهم يدخنون فليحترق غيرهم من الناس !

وبعد أن ثبت أن السجائر ضارة مائة فى المائة ، فهل يكون كل من يدخن هو شخصية انتحارية . أنه يريد أن ينتحر على مرأى من الناس . إنه يريد أن يجعل من كل الناس شهودًا على وفاته .. فالرجل الذى يدخن رغم ضيق الناس بالسجائر ، إلى جانب أنه قليل الذوق ، يريد أن يلف الناس فى أكفان من الدخان الأبيض ، قبل أن يموت والسيجارة فى فمه ! □

عهد الكرة الشراب !

الإنسان يلعب . والحيوانات تلعب أيضًا ..

وعلماء النفس حول هذه الغريزة قد انقسموا إلى مدارس . ولكن المعنى العام : أن اللعب هو نشاط فائض عند الإنسان . هو فى نفس الوقت فرصة للتفريج النفسى عن متاعبه . واللعب لغة . لأن الذى يقوله الإنسان بيديه ورجليه لا يستطيع أن يقوله بشفتيه ..

ثم إن اللعب إجازة يعطيها الإنسان لنفسه .. واللعب خروج : من البيت من المكتب من المصنع إلى مكان أوسع . فيصبح الصدر أوسع . إلى أناس آخرين . ومع الآخرين يشعر الإنسان براحته .. وأهم من ذلك أن التنافس فى اللعب هو نوع من ترويض الإنسان . أو على الأصح : ترويض الحيوان المفترس فى داخل الإنسان . فنحن حيوانات . وإذا كان عندك شك فى ذلك ففى استطاعتك أن ترى ذلك أمام المجمعات الاستهلاكية وعلى الشواطىء وفى ملاعب كرة القدم . أى حيث الطعام والجنس والرغبة فى السيطرة .

فإذا كان الإنسان قديمًا إذا اختلف مع إنسان آخر قتله فورا . ويكون سبب الخلاف هو الطعام أو المرأة أو السيطرة على القبيلة ، فإننا الآن نفتعل أسباب الخلاف . ثم نفتعل أسباب الانتصار ونفرح فى النهاية . فالرياضة - هى ترويض لغرائز الحيوان فى داخلنا . أى تحويل المعركة إلى تمثيلية ، وتحويل الغنائم إلى كرات : قدم ويد وطاولة وماء وطائرة .. ثم النصر فى النهاية هو هذا الشعور بالارتياح لأننا قد فزنا بشىء .. نحن الذين فزنا أو أصدقاء لنا .

ولكن إذا حولنا هذه المعارك التمثيلية إلى معارك حقيقية فكأننا ما نزال حيوانات . كأننا لم نروض أنفسنا . ولم يروضنا أحد . وكأننا ما نزال فى حاجة إلى رياضة .. إلى مزيد من الرياضة . وأن الملاعب مهما اتسعت .. ولو كانت الملاعب فى حجم « ستاد ناصر » فإنها ماتزال حوارى ضيقة وإننا ما نزال نلعب فيها بالكرة الشراب .. وإننا ما نزال فى عهد الكرة الشراب فى الرياضة والأخلاق والعمل وكل شىء آخر . □

الإنسان : حديقة حيوان !

إذا أخطأ بعض المتفرجين فليس معنى ذلك أن كل الناس بهذا السوء أو بهذا الشر. وليس معنى ذلك أن كل الملايين لا تكن لرجال الأمن عظيم الامتنان والاحترام.

ولكن معناه أن حالات الغضب تحول الناس إلى طبائعهم الأولية : إلى وحوش .. والإنسان وحش . بل الإنسان حديقة حيوان فيها الأسد وفيها الكلب ، وفيها الثعبان وفيها القرد . ولكن لا أحد يعرف بالضبط متى يظهر الأسد ومتى يظهر الأرنب . والفرق بين الإنسان المتحضر والإنسان الهمجى هو أن الإنسان المتحضر لديه أقفاص من حديد كالموجودة فى حديقة الحيوان لحماية الناس من الوحوش فى أعماقه ، ولحماية نفسه أيضًا . وعند الانفعالات الجماعية يجد الإنسان نفسه قد تشجع فارتفعت درجة حرارته .. وطال عنقه كالزرافة وأنفه كالفيل وذيله كالحمار ، ومنقاره للشر،وارتفع صوته كالأسد وراح يمشى على أربع ككل الحيوانات الأخرى .. ومع ذلك فليس كل الناس كذلك . بعضهم فقط . أوكلهم . ولكنهم

يضبطون غيظهم ووحشيتهم .. ويحولونها إلى شيء آخر إلى صراخ إلى هتاف .. إلى حرق دم .. إلى شراب .. إلى تدخين .. إلى حرق أوراق الصحف فى انهيار . لا أكثر ولا أقل :

وأمامنا كل شعوب العالم التى تلعب كرة القدم أحسن منا ألوف المرات : إنهم لا يعتدون على الأرواح .. على الملكيات العامة . وإذا حدث فالصحف وكل أجهزة الإعلام والجماهير تستنكر ماحدث .. أى تستنكر هذه الحوادث الفردية .. ولكن يظل اللعب مستمرًا . لأن اللعب غريزة والرياضة ضرورة تربوية وأخلاقية ونفسية . والإنسان يظهر جوهره أمام ثلاثة أشياء : الفلوس والنساء والقهوة . والكرة تثير فى اللاعب والمتفرج كل هذه المعانى . □

العين تسمع والأذن ترى !

نقول لذيذ ..
عن أشياء كثيرة مختلفة : عن الصوت وعن الموسيقى وعن الفاكهة وعن النكتة . مع أن هذه الكلمة تدل على الطعم على اللسان .. ولكننا نستعير فى كثير من الأحيان الكلمة الواحدة للدلالة على المعانى المختلفة .

وكأننا نضع كل شىء فى أفواهنا .. أو كأن كل شىء يتحول إلى طعم : ماتراه العين وماتسمعه الأذن وما يشمه الأنف وما تلمسه الأصابع ..

والصوفى العربى القديم الحلاج كان يتحدث عن (الحالة) التى تتحول فيها العين إلى أذن ، والأذن إلى عين ، فيرى الله بأذنيه ويسمع بعينيه – ممكن أن نقول ذلك فى حالات عادية ..

وقد توقف د . ثروت عكاشة عند هذه العبارة التى استخدمها الحلاج وجعل موسوعته الفنية التاريخية الكبرى بعنوان « العين تسمع والأذن ترى – تاريخ الفن »

بل إنه استوقف تاريخ الفن الإنسانى كله ليضع عينه وأذنه عليه .. ومد صدر المجلد الأول عن « الفن المصرى » والمجلد فى أكثر من ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير ولأول نظرة يشعر المتفرج على المجلد أو من يحمله بين يديه أن هذا جهد ضخم . فى التجميع والاستقراء والعرض والمتابعة وأن أحدًا فى تاريخ الفن المصرى لم يفعل ذلك . ولا استطاع ولذلك فله الفضل الأول فى الريادة .

وله الفضل الأول فى أن يكون أول من أقام معرضًا عالميًّا فى كتاب عربى وأول من قدم الفن المصرى مشروحًا وموجهًا نحو هدف واحد : كيف يعبر الإنسان المصرى القديم عن نفسه نفسيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا وأدبيًّا أيضًا . وإذا كان د . ثروت عكاشة يشبه نفسه بالنحلة جمعت الرحيق من كل الزهور لتقدم هذا المتحف الحى ، فإنه فى كثير من الأحيان قدم الزهور نفسها واحتفظ لها بعطرها ولم يشأ أن يمتص رحيقها . إنما ترك ذلك لأصحاب الأذواق المختلفة من فنانين وأدباء ومؤرخين .. إن فى الكتاب لوحات كثيرة تحتاج إلى أن يتخذها القارىء قاعدة انطلاق نحو معان أخرى لم تخطر على بال المؤلف أى مؤلف اللوحة ومؤلف الكتاب . وهذه إحدى فوائد عرضها حية تثير الفكر والذوق والخيال ..

إن هذا العمل الضخم الذى قدم د . ثروت عكاشه باكورته ليحتاج إلى الالتفات والمتابعة وعظيم التقدير . □

من مرحلة إلى مرحلة !

لا يمضى وقت طويل حتى نقول : إن هذه مرحلة .. وبعد فقرة أخرى نقول : هذه مرحلة جديدة ، ونصف كل حالاتنا بأنها انتقالية . ولابد أن يكون المعنى فى أذهاننا : أننا نريد أن نشعر جميعا بأننا نتحرك . بأننا ننتقل من حالة إلى حالة . أننا انتقلنا فعلا . وبأنه من الضرورى أن ننتقل .

ونحن نشبه الذى ينظر من القطار أو من السيارة إلى أرقام الكيلو مترات لأنه يريد أن يشعر بأنه اقترب من هدفه .. أى أننا انتقلنا من الكيلو كذا إلى الكيلو كذا .. أى أننا ننطلق بسرعة أو ببطء نحو الهدف وهذا معناه أننا ندعو أنفسنا الى الانطلاق ، وليس أسهل من الانتقال من مكان إلى مكان . وليس أصعب من الانتقال من مكان الى مكان أفضل . فالانتقال من المكان تستطيعه سيارة ، بل تستطيعه أقدامنا .. ولكن الانتقال من الفوضى إلى النظام ، من الكسل إلى النشاط ، من الإسراف إلى الادخار ، من الطفولة إلى الرجولة . من الانتظار إلى

الاستعداد . من الاستعداد إلى التقدم - كل ذلك يحتاج إلى جهود كثيرة متضافرة ، إلى جهود واعية طويلة صابرة . فحماستنا وغضبنا وحدهما لا يكفيان . وأيدينا وحدها لا تصد ، وسلاحنا دون أيدينا ودون صعود معنوياتنا لا ترد ولا تصد . إن هناك عناصر كثيرة ضرورية لكى ننتقل من مرحلة إلى مرحلة .. والمهم أن ننتقل وأن نحرص على ذلك . أما إذا ظللنا نقف فى أماكننا ونتخيل علامات الطريق ونقول : مرحلة .. ومرحلة .. فنحن إذن لسنا واعين .. لكننا فى حاجة إلى أن نتعاون جميعًا من أجل وضوح الطريق أمامنا .. لا لنرى الطريق فقط بيننا وبين عدونا ، ولكن بيننا وبين أنفسنا . فنحن يجب أن نحارب متحدين ، لا متفرقين . واعين لا نائمين وكلنا جنود . ولذلك فمن الضرورى أن نعرف وأن نتدرب على كل مستوى ! □

كل شيء من كل انسان

الحديث النبوى الشريف يقول ابدأ بنفسك ثم بمن تعول . أى عليك أن تبدأ بالنظام والنظافة والتدبير فى حياتك أنت ، وبعد ذلك أطلب هذا من أى إنسان آخر فى بيتك أو فى مكتبك ، أو بعبارة أخرى كن أنت النموذج الصحيح لما تطالب به غيرك من الناس . أى يجب أن تكون قد اقتنعت أولا ، وعن طريق اقتناعك تستطيع أن تقنع الآخرين ..

وهذا الحديث من الممكن أن يكون إجابة عن السؤال الذى له ماض سحيق ومستقبل طويل عريض إن شاء الله وماالذى نفعله من أجل مصر !

فى استطاعتك أن تفعل أى شىء وكل ما تستطيع . لماذا ؟ لأن الذى تحتاج إليه مصر هو كل شىء من كل إنسان .. من الورقة التى نلقيها فى الشارع إلى إقفال الحنفية حتى لا يتساقط الماء فى بيتك إلى عود الكبريت تصنعه وتبيعه وتستهلكه . وكل هذه أشياء صغيرة ولكنها ليست تافهة فكل شىء مترابط ببعضه فى المجتمع كترابط أظافرك بالمراكز البعيدة فى مخك .. كل شىء مترابط ولكنك تنسى ذلك ،

أو لا تدريه ..

مثلا : إن انكسار حنفية المياه فى ميدان التحرير قد أدى إلى وفاة تلميذ صغير فى شبرا .. تلميذ وحيد أبويه قد اشتريا بكل ما فى وسعهما ملابس جديدة .. وبجواره على عتبة الباب .

ثم حدث ما حدث . لماذا ؟ لأن الحنفية عندما انكسرت فى ميدان التحرير تحولت كل المواصلات وتزاحمت وتعطلت وتغيرت الطرق .. واختنقت شرايين المرور فى وسط القاهرة وفى شبرا مما أدى إلى أن طفلا صغيرًا مات فى مكان بعيد عن انفجار ماسورة المياه ..

إن الأديب الألمانى اشبتسلر له قصة معروفة تقول إن فراشة استطاعت أن تنقل التاج من رأس إلى رأس فى إحدى الممالك .. لقد هربت الفراشة أمام إنسان يلهث فى طريق خطأ فوق أحد الجبال فطارت الفراشة ودخلت نافذة غرفة نوم ولى العهد والولى طفل صغير . ولم يكن قد رأى فراشة فى حياته .. فلما فوجىء بها مات .. وانتقل العرش إلى أسرة أخرى ، والسبب أن رجلا أخطأ طريقه إلى قمة الجبل فى مكان بعيد عن ولى العهد وعن الخلافات فى الأسرة المالكة ..

فكل شيء مرتبط بعضه ببعض .. أنت والذين حولك فى أسرتك وفى المجتمع وفى مصر كلها ؟ □

كلام فى كلام !

الكلام هو وسيلة المواصلات بين الناس .. وكما تكون المواصلات مزدحمة .. فكذلك العبارات . وكما يقف الناس على السلالم .. ويركبون على ظهر القطار كذلك بعض المعانى تركب على السلالم وبعضها يتساقط من فوق الألفاظ .. وكما أن وسائل المواصلات تكون فى جمال المرسيدس ..

وخنقة الأوتوبيس وتكييف القطار المجرى ، فإن هناك عبارات مثل عربات الكارو والحناطير .. وكما أن بعض المواصلات تأخذ الركاب وتنزل بهم فى النيل .. فهى مهلكة .. كذلك بعض العبارات والمقالات والاجتهادات مهلكة أيضًا .

ولابد من الكلام .. أى لابد من أن تكون هناك صلة ومواصلات .. ولكن المواصلات وسيلة إلى غاية .. لأننا ننتقل بها من مكان إلى مكان .. أى أننا لا نركبها طول الوقت .. ويصبح الركوب هو الغاية فقط ..

ومصيبتنا الكبرى القديمة فى الشرق الأوسط .. أو الشرق العربى .. أو مصيبتنا

نحن العرب .. أننا ولدنا وكبرنا ومتنا فى هذه المواصلات .. فى الكلمات .. فى العبارات نعيش بها . ونموت عليها . كلام فى كلام .. نتشبط على الكلمات ونسقط تحت عجلاتها .. ونلعن الكلمات .. ونلعن الذين يقولونها والذين يدرسونها .. والذين يموتون بها .. ويموتون تحتها .. وكله كلام فى كلام ؟

لو كان العرب يقطعون من ألسنتهم بضعة سنتيمترات لبضع سنوات ويركزون عيونهم على أيديهم ويفعلون شيئًا آخر .. لو كانوا يتوقفون عن فلسفة البيضة قبل الكتكوت .. لو كانوا يعلمون أن العدو قد توحدت خطوطه ونحن قد تفرقت خطوطنا .. لو كانوا يعلمون أن مصر وحدها استطاعت أن تقف .. وأنها سوف تقف .. وأنها سوف تواجه .. وأنها سوف تضحى .. وأننا اخترنا ذلك لأنه قدرنا .. وأن هذا الاختيار ليس وقفا علينا .. ففى استطاعة كل دولة أن تفعل ذلك .. وأن الأرض تتسع للجميع .. وأن السماء تتسع لقذائف وطائرات الجميع

لو .. وألف مرة .. لو ..

إنه قدرنا – مرة أخرى – أن نحارب لنا ومن أجل الجميع .. □

التضحية لها حدود !

حرة جدًّا زوجة أوناسيس . تفعل ماتشاء فهى سيدة ناضجة ، وكانت زوجا لألمع شاب فى القرن العشرين . وكان أمريكيًّا من طراز مختلف . أحبه الناس لأنه كان يحب السلام . وأحبه الناس لأنه من أسرة غنية محسودة وهى لذلك منكوبة فى أبنائها الذين يصيبهم الرصاص الواحد بعد الآخر .. ولأن لهم أختًا فى مستشفى الأمراض العقلية . وهى سعيدة لأنها لا تعرف بالضبط ما الذى أصاب اخوتها وأباها . ولم تدر أن أول قرار اتخذه أخوها الرئيس كنيدى هو زيادة الاعتمادات المخصصة لمستشفيات الأمراض العقلية فى أمريكا .. وكان ذلك من أجلها .

وعندما قررت أرملة كنيدى أن تتزوج تذكرنا يومها أنها لا تريد أن تكون هدفا لكل الصحف وبذلك تفقد حريتها فى أن تبكى أو تحزن بالطريقة التى تعجبها . وتذكرنا أن القسيس الذى كان يصلى على روح زوجها حاول أن يداعبها وأن يمسك يدها ويتلمسها بطريقة لا تدل على حزن على الرئيس بقدر سعادته بنعومة أصابع

الأرملة وانبهاره بساقيها .

وكنت أحد الذين ينادون بمنطق : أن من حقها أن تعيش حياتها . **وأن زوجها** قد عاش ومات من أجل المجد . هذه حياته . وهذا قدره . **ولكن هذه الزوجة لها** حياة خاصة وليست مطالبة بأن تضحى من أجل الزوج . **قد يكون هذا منطقًا** حديديًّا . ولكن من الذى لا يكون حديديًّا حجريًّا ، عندما **يفكر فى نفسه ..** وعندما لا يكون هناك حب بين الزوجة والزوج ، وحتى إذا كان **هناك حب فإن** التضحية لها حدود . وإذا كانت الزوجة تكره أهل الزوج ، **وإذا كانت تتزوج ،** رغم أنها كانت مليونيرة تموت فى الفلوس مثل أرملة كنيدى **وعروس أوناسيس ،** لا أحد يلومها لو فكرت الآن فى مليونير أكثر شبابًا من أوناسيس . **فلا تزال أرملة** كنيدى مصيدة أصحاب الملايين .. ولا أحد يلوم عزرائيل إذا كانت **مهمته فقط أن** يقبض الأرواح . وكذلك جاكلين أوناسيس هى عزرائيل **أصحاب الملايين ..**

ولكن يظن أن بعض الرجال يفضل أن يموت مشنوقًا وبصورة **علنية على يدى** سيدة مشهورة ، على أن يموت سعيدًا هانئًا فى أحضان سيدة **مجهولة ..**

وهناك عدد قليل جدًّا من النساء يعرفن هذا الضعف فى الرجال . **عن نوع من** الرجال عندهم المال وتنقصهم الشهرة .

ولذلك لا يتفق ما تنشره الصحف من أن جاكلين تنظر من وراء **ظهر أوناسيس** إلى ضحية أخرى ! □

روح الجد !

في السنوات الماضية أثيرت قضية فلكية ! كيف كان جو مدينة فيينا يوم مات الموسيقار موتسارت ؟ قيل إن الجو كان عاصفاً . وقيل بل كان عادياً . أما سبب السؤال عن الجو فهو أن المؤرخين يريدون أن يعرفوا : هل صحيح أن زوجة موتسارت لم تشارك فى جنازته لأنها كانت مريضة وكانت أضعف من احتمالها للجو ، أو أنها كانت على خلاف معه ، وأنها كانت عشيقة لرجل آخر !

وأثبت العلماء أن الجو كان معتدلا وأنه كان فى إمكانها أن تشارك فى الجنازة دون أن ترتدى بالطو من الفراء !

ومنذ فترة يبحث المؤرخون صحة القصة التى رواها ابن القائد ولنجتون الذى هزم نابليون فى معركة واترلو . فقد ذهب ابن ولنجتون إلى روسيا ١٩١٢ بمناسبة الاحتفال بمرور مائة سنة على معركة بورودينو التى هزم فيها نابليون فى روسيا . ويقول ابن ولنجتون إن رجلا قابله وقال إنه كان فى الثانية عشرة من عمره عندما أمسك

حصان نابليون وعاونه على أن يعبر النهر . وقد لاحظ هذا الطفل أن نابليون كانت له لحية . لم يتسع وقته ليحلق لحيته . وأن لحية نابليون كانت بيضاء . وهذا الطفل كان من جورجيا وهى إحدى الجمهوريات التى اشتهرت بالناس الذين تتجاوز أعمارهم المائة . والمؤرخون يتساءلون هل صحيح أن نابليون الذى بلغ من العمر ٤٣ سنة فى ذلك الوقت كانت له لحية بيضاء . أم أن هذا هو الجليد وخيال الطفل المبهور بالقائد العظيم ؟

أما سبب البحث عن صحة هذه الحكاية فلأن بعض الأثريين قد عثروا أخيرًا على شعرات من لحية نابليون . وهذه الشعرات بيضاء . أو نصف بيضاء . ويتساءل الأطباء هل الزرنيخ الذى وضعه الإنجليز لنابليون فى طعامه حتى مات ؛ جزيرة سانت هيلانه فى سنة ١٨٢١ يؤدى إلى أن يتحول الشعر الأصفر الذهبى إلى أبيض أو نصف أبيض ؟.. أو هل مات نابليون أو قتل .

أذكر أننى رأيت شعرات من لحية نابليون هذه فى متحف بمدينة هافانا بكوبا . ولم تكن هذه الشعرات ذهبية اللون . كانت بنية صفراء .. أو حمراء .. وكانت الشعرات رفيعة ناعمة خفيفة .. ولم يدهشنى ذلك . ولكن أدهشنى جدًّا عندما رأيت ملابس نابليون إنه كان قصير القامة لا هو عملاق ولا رأسه فى حجم الجبال !

إن هذه القصص ليست هى التى أعجبتنى . ولكن الذى أعجبنى هو روح الجد والجدية أن يكون الإنسان – كل إنسان – جادًّا فى عمله . وبهذه الروح تتقدم شعوب على شعوب ، وتعيش حضارات وتنقرض أخرى . والحياة علم . والموت جهل . □

اضحك .. ترقص معدتك !

يوم مجنون من أوله لآخره .. صحيح أن الأيام والشهور لا توصف بالجنون . وإنما مانفعله فيها هو الذى يوصف بالجنون . ولذلك فقد ارتكبت مجموعة من الأفعال الانتحارية كلها جنون فى جنون .

لقد تعبت من السندوتش أبو جبنة .. ومن السندوتش أبو طماطم وقرفت من القهوة أم لبن التى اشربها على أنها نوع من الحلوى بعد السندوتش وقررت أن أتناول وجبة دافئة متوسطة الحال . وتحت تساقط المطر فى مدينة لوجانو بسويسرا لجأت إلى أحد المطاعم . وجاء الجرسون . وطلبت شوربة ساخنة جدًّا . وقطعة لحمة وبعض السلطة الخضراء وبس .

وأكلت على مهل كأننى أطبق التعليمات الصحية التى كانت مكتوبة على ظهر الكراريس المدرسية ، والتى تطالبنا بأن نمضغ الطعام جيدًّا ، وأن يكون ذلك على مهل ، لأن كل الذين يشكون من آلام المعدة إنما هم أناس (يظلطون) الطعام ولا يمضغونه فتتعب معداتهم .

وأضفت أنا إلى هذه النصائح نصيحة أخرى قرأتها للدكتور أحمد زكى وهى اضحك ترقص معدتك» .

أى إذا صحكت وكنت سعيدًا أثناء الأكل أو بعد الأكل ، فإن هذا ولا شك يسهل مهمة المعدة فى هضم الطعام . وفعلا رحت ابتسم ببلاهة محاولا أن أسهل مهمة المعدة ومحاولا أن أنسى ثمن هذه الوجبة واستمرارًا فى سياسة الضحك طلبت فنجانًا من القهوة باللبن . وجاء اللبن فشربته قبل القهوة . ثم القهوة . ومع آخر قطرة من القهوة توقف المطر . أما الحساب فهو مايساوى ثلاثة جنيهات مصرية .

وهرشت فى رأسى ودفعت . وتذكرت أننى لم أحلق رأسى ، صحيح أن شعرى لا يمكن أن يوصف بأنه طويل فى أوروبا فكل الشعور أطول من شعرى . ولكنها ليست منكوشة مثل شعرى . ثم إننى ملك الاعتذارات الكاذبة عن طول شعرى . وذهبت إلى الحلاق . وأسلمته رأسى وتساقطت منه كميات كثيرة متكرمشة . وأسلمت رأسى ليضعه تحت الحنفية ثم راح يمشطه ويلقى عليه بعض العطور .. ثم نعيمًا ياسنيور !

وشكرته ودفعت مايساوى جنيهين مصريين . ودفعت أول الأمر دون دهشة . فقد توهمت أن الحلاقة والغداء معًا بجنيهين . ولكن اكتشفت أن الجنيهين للشعر فقط .. وندمت .. وندمت على أن الخنافس ليست موضة فى مصر . □

القوى الاحتياطية !

ما الذى تريده لشيخوختك ؟ هل تريد أن تقضى هذه الشيخوخة فى المدينة .. أو فى الريف . فى بيت صغير حوله حديقة . بين أولادك أو بين أحفادك .. فى الصلاة .. فى القراءة .. فى النوم .. فى الانسحاب من الحياة نهائيًا .؟

ربما لم يخطر على بالك هذا السؤال لأنك ماتزال شابا أو لأنك بلغت الشيخوخة ولا تريد أن تعترف بها . ومن الأفضل ألا تعترف بأنك شيخ . فقد استطاع الكثيرون من الشيوخ أن يحققوا المعجزات فى الأدب والفن والعلم والاكتشافات والمغامرات . وكأن هؤلاء الشيوخ . قد أخفوا قدراتهم الخارقة على شكل قوى احتياطية . وعندما أنفقوا كل قدراتهم الظاهرية ، استدعوا هذه القوى الاحتياطية . فأعادت إليهم شبابهم المجنون قبل الشيخوخة .

إننا - الذين لم يشيخوا بعد - نتصور أن الشيخوخة هى انسحاب من الحياة . انسحاب يائس . انسحاب الإنسان المخدوع المغرور . وأن الشيخوخة هى الإدراك

الحقيقى للحياة وهدف الحياة ، وأنها فترة الانتظار القانع الذى يسبق الموت . ولكننا عندما نفكر فى الشيخوخة الآن ننظر إليها كرجال متعبين مرهقين خادعين ومخدوعين كارهين ومكروهين .. وأن نتمنى أن نستريح من هذا الصراع بالزهد فى الدنيا كلها .

ولكن الشيوخ لا يفكرون فى ذلك إنهم يتمنون أن تعود بهم المعجزة الى حياتهم من جديد . مهما كانت متاعبهم . ومهما كانت أوجاعهم . فأوجاع الشباب يشفيها النوم . ومتاعب الشباب يخففها النسيان . ولكن أوجاع الشيوخ لا يخففها شىء وأمراض الشيخوخة لا علاج لها .

هل تعرف ما الذى يفعله الشيوخ فى سويسرة ؟ إنهم يشتغلون فى ترويض الكلاب وفى العناية بالأطفال بدلا من الأمهات .. وبعضهم يذهب الى مدارس الحلاقين ويجلس لكى يتمرن فيه الطلبة مقابل مبلغ من المال .

فعندما أكون شيخًا سأكون نادمًا ولا شك على أننى لم أستمتع بشباب القلب والعقل فقد ولدت لأحبو على أبواب الشيخوخة . □

العصب الحائر !

يجب أن أعترف بيني وبين نفسي أنني لا أفهم الطب .. وقد اعترفت .. ويجب أن أعترف أيضًا بأن معلوماتي الطبية ليست إلا اجتهادًا وإلا صدى لعدد من الكتب . أعترف بذلك ، ويجب أن أؤكد لنفسي أنني يجب أن أتوقف عن معالجة نفسي بنفسي .. وعن التطوع لعلاج الآخرين .. وأعترف بأنني متردد في هذه المسألة إلى حد كبير . لأنني يجب أن أروى تجاربي للناس .. يجب أن أقول إنني عانيت وجربت . وبذلك يستفيد الناس من تجاربي . فحياة أي إنسان ليست إلا تجاربه وتجارب الآخرين . فاكتب أي تجارب للآخرين . والطب هو تجارب الآخرين ..

وقد دفعني إلى التشكك في معلوماتي الطبية أنني ذهبت إلى أحد الأطباء الكبار في لندن . ووضعت يدي على الجانب الأيسر من بطني وقبل أن يلمسني قلت : آه .. دكتور الحقني !

ولم يفتح الطبيب فمه .. ومضيت أفتح فمي وأقفله وأستعرض معلوماتي الطبية .

ولم يستغرق هذا الاستعراض الطبى إلا دقائق .. وسألنى الطبيب : ما الذى تشكو منه قلت : المصران الغليظ يادكتور وأشار لى الطبيب أن أتمدد فتمددت .. وأن أتعرى فتعريت . وأن أتكلم فى أى شىء فأعدت على مسامعه ماقلته من قبل ، وسألنى إن كنت أشعر بأى ألم .. فقلت أين ؟ قال : هنا .. قلت أين ؟ هنا فى عينك اليمنى أو اليسرى ؟

ولم أشعر بأى ألم لا فى اليمنى ولا فى اليسرى .. وطلب منى الطبيب أن أنهض وعندما نهضت قلت : آه .. دكتور عينى .

ولم أشعر بأى ألم فى اليمنى – فالذى يتمدد أمامه – أنا – ولم يكن يعرف أننى أعانى من أوهام لاحد لها .. أوهام جسمية نفسية وعقلية واجتماعية .. ولا يعرف حاجتى إلى شىء أهم من كل علاج .. حاجتى إلى النوم دائمًا .. وبعد أن فرغ الطبيب من كتابة روشتة وضع يده على كتفى وهز رأسه كما كان يفعل آباؤنا وهم ينصحوننا أيام الامتحانات .. فقال : اسمع أنت لست مريضًا بالمصران الغليظ .. أنت عندك وجع فى العصب الحائر الذى يربط بين العين والمعدة والقلب وأصابع أحد القدمين .. إلخ ..

وأنا مضطر أن أقطع كلام الطبيب لأبحث فى المكتبات عن كتاب أو دائرة معارف تتناول تاريخ وأوصاف وعلاج العصب الحائر . □

أعظم الآثار الفنية ؟ !

استمعت إلى أديبة فرنسا « مرجريت ديرا » وهى سيدة قصيرة القامة وملامحها كلها دائرية . فحاجباها قوسان واسعان فى دائرة . وفمها دائرتان مطبقتان . ورأسها مستدير . وجبهتها مستديرة . وجلستها متكورة .. ومنظارها أكبر من عينيها الواسعتين .. وأكثر الكلمات ترددًا على لسانها كلمة : نعم . حتى عندما تريد أن تقول : لا .. فإنها تتكلم هكذا . نعم . أنا لا أوافق .

سألتها مذيعة التليفزيون السويسرية الجميلة : هل من الضرورى أن يقول الكاتب كل شىء ؟

فأجابت مرجريت : كل شىء عن ماذا ؟

وسألتها المذيعة : عن حياته .

وكان رد مرجريت ديرا : أن الكاتب لا يعرف كل شىء والذى يعرفه لا يكتبه عادة ، فليس كل ما أعرفه أكتبه . وليس كل ما أكتبه كنت أعرفه قبل أن

أكتب . فأنا أحيانًا أكتشف أشياء جديدة وحوادث جديدة لم تخطر لى على بال ..

وعادت المذيعة توضح ما تريد فقالت : أقصد عن غرامياته .. أنت مثلا ؟

وقالت مرجريت ديرا : إن غرامياتى تافهة جدًّا إذا قارنتها بالقصص أو فى أفلامى . إن كل قصص حب الفنان ليست إلا نوعًا من النكت . ولكن تصبح هذه القصص شيئًا له قيمة باقية ، إذا أضاف لها الفنان خياله . فأصدق قصص الحب هى الكاذبة .. أى التى لم تحدث للفنان نفسه !

إن الشاعر الإيطالى دانته له قصة حب تافهة جدًّا . إن حبه للفتاة الصغيرة بياتريشه ليس إلا حبًّا صبيانيًّا . وكان الشاعر عاجزًا تمامًا .. ولكن دانته قدم للإنسانية أعظم الآثار الفنية عندما نظم ملحمة « الملهاة المقدسة » بأجزائها الثلاثة ... فحبه يعتبر شيئًا تافهًا إذا قارناه بحبه الخيالى الفلسفى ..

فالفن أقوى وأروع من الواقع .. والحب الخيالى أجمل وأبقى من الحب الذى وقع للفنان . □

أكثر حيوانية !

إحدى حدائق الحيوانات فى أمريكا أحصت عدد الوفيات فى داخل الحديقة بسبب عبث الزائرين .. فلاحظت أن أحد صغار الكانجارو قد هرب من الكيس الذى تحمله أمه بسبب الطوب الذى يلقيه الزائرون .. ومات من شدة البرد .. وأن بطة برية قد أصابها سهم فى بطنها فماتت .. وأن غزالة أجهضت بسبب البومب الذى ألقاه الأطفال بالقرب منها .. كما أن عددًا من الزائرين قد ألقوا أعقاب السجائر على أحد الزواحف فكان يتقلب عندما تقترب النار من جلده وأن السيد قشطة قد ظل يسعل حتى الموت ، لأن أحد المتفرجين قد ألقى فى فمه كرة تنس .

ليس هذا فى أمريكا وحدها . ولكن فى كثير من عواصم العالم . وفى القاهرة أيضًا .

وحاول أحد مراكز الإحصاء أن يعرف أى نوع من الناس هؤلاء .. ليسوا من أبناء الريف ولا من رعاة البقر . ولكن من أبناء المدن ، ليسوا من الفقراء ، ولا من

أصحاب الملايين إنما من جميع الفئات والطبقات . وهذا معناه أن حب الاستطلاع غريزة عند الجميع . وأن الشر مثل حب الاستطلاع عام ، وأن الإنسان صياد بطبعه . فعلى الرغم من أن هذه الحيوانات لم تعد فى غابة . إنما فى أقفاص ، وهى لم تعد فى حاجة إلى من يصيدها مرة أخرى ، فإن الإنسان مصمم بعد أن حبسها على أن يقتلها ! علينا أن نتساءل حقيقة : من هو الحيوان ؟ هل هو الذى فى القفص أو هو الذى صنع القفص ووقف يتفرج عليه ..

إننى اتذكر نهاية مسرحية « القرد الكثيف الشعر » للكاتب الأمريكى أونيل ففيها نجد أن واحدًا من أبطال المسرحية يدخل قفص القرود . ويتساءل من هو الحيوان ؟ والسؤال وجيه فعلا .. لأن هناك أكثر من حيوان : هو وبقية الحيوانات الأخرى .

فالحيوان ليس مؤذيًا بطبعه . إنما إذا اضطر إلى ذلك دفاعًا عن النفس ، ولكن الإنسان شرير دون حاجة إلى أن يستفيد من هذا الشر — إننا بذلك أكثر حيوانية من الحيوان . □

ممنوع قطف الزهور !

هل صحيح أننا لا نحب الحياة ونقدس الموت .. أو الطريق الذى يؤدى إلى الموت ؟

هل نحن نحطم الأشجار ونتزعها ، ونمزق أزهارها وندوس على الأعشاب ، ونبنى العمارات على الأرض الصالحة للزراعة بدلا من أن نبنيها فى الصحراء ، لأننا نكره الحياة .. فى النبات وفى الحيوان أيضًا !

لابد أن عشرات الألوف من الصغار والكبار قد رأوا فى أوروبا الخضراء كيف إنهم يحبون الأزهار . ففى هولندا مثلا ! وهى أجمل حديقة زهور على هذه الأرض . نجد الزهور فى النوافذ وعلى الأبواب وفى السيارات وفى أيدى وصدور الفتيات . وكأن هذه الزهور الموجودة فى كل مكان لا تكفى ، فهم يرسمون الزهور على الملابس أيضًا ؟

أما نحن فلا نفعل شيئًا من ذلك مع أن مشكلتنا الكبرى أن أرضنا الزراعية ضيقة . وأن الصحراء وحش يزحف علينا برماله . وأن معركتنا الكبرى هى غزو

الصحراء لزراعتها وإطعام مليون مولود كل عام .. وهذا الخطر الرهيب لا يجعلنا نحب النباتات ولا الزهور ولا نحترم اللافتات التى تقول : ممنوع قطف الزهور .. ممنوع المشى على الأعشاب ..

حتى فكرة ظهور ممثلة على الشاشة وفى يدها زهرة تقطع أوراقها واحدة وراء وأحدة وهى تقول : إنه يحبنى .. إنه لا يحبنى .. إنه يحبنى .. إلى آخر الأوراق ، ليس إلا عذرًا زائفًا لحكم الإعدام على زهرة ..!

ومنذ فترة نشرت صحيفة الديلى ميل موضوعًا عن أن أحد سائقى اللوريات اكتشف زهرة نادرة فى شمال إنجلترا اسمها « زهرة الحب » . وهى تنبت على شجرة طولها متران وأزهارها لونها أصفر . وهى زهرة جميلة . وقد اهتم بها علماء النباتات وسافروا إليها .

ونقلوها من مكانها ووضعوها فى إحدى حدائق النباتات . وكانت هذه الزهرة زينة على صدور الفتيات اللائى يخفن على قلوبهن .. بل إن الفتيات فى تشيكوسلوفاكيا حتى الآن يرسمن هذه الزهرة على حقائب اليد رمزًا على الحب ، أو أملا فى أن يبقى الحب .. وتستخدم هذه الزهرة أيضًا فى العطور التى تزيل العرق . أما فى القرنين ١٧ و ١٨ فكانوا يغلون هذه الزهور لتيسير الولادة العسرة !.

وقد حدثنا الرحالة ابن بطوطة عن جماعة فى الهند يجلسون تحت شجرة تسقط منها ورقة واحدة كل سنة . فإذا سقطت فى أيديهم حلت البركة بالبلاد .. والبركة تحل لأن ورقة واحدة فقط هى التى سقطت وليست ملايين الأوراق والأشجار والنباتات والزهور كما يحدث فى بلادنا – مع الأسف ! □

الذى تراه .. تمثيل !

ماذا يحدث عندما نذهب إلى المسرح ؟ إننا نتفرج على أناس يتكلمون ويروحون ويجيئون ويحكون أشياء قد وقعت لهم ويتضايقون ويضحكون . وقد يذهب بعضهم إلى أن يقتل البعض الآخر ، أو يحبه ويتزوجه . ما هذا ؟

إنه تمثيل فى تمثيل . فلا شىء مما نراه يحدث أو قد حدث . ولكننا قبل أن ندخل المسرح نعرف هذه الحقيقة : أن كل مانراه أمامنا كذب فنى . فلا شىء حدث ولا شىء يحدث .

ومن المؤكد أننا ننفعل لما نراه على المسرح أو على الشاشة . فنحب ونكره . ويدق قلبنا من الفرحة ومن الخوف .. ونتنفس بارتياح عند نهاية الفيلم فقد انتصر واحد على واحد . انتصر الخير على الشر . أو الحب على الكراهية .

ونفس الشىء يحدث فى ملاعب كرة القدم : فقبل أن نذهب إلى هذه الملاعب نعرف تمامًا أننا أمام تمثيلية .. أمام فريقين يتخانقون على كرة .. هذه

الخناقة هى مجرد تمثيل . فليس صحيحًا أن اللاعبين الاثنين والعشرين يريدون هذه الكرة . وليس صحيحًا أن ملايين المشاهدين والمستمعين يريدون هذه الكرة سليمة أو ممزقة . ولكنها تمثيلية .

ونحن ننفعل معها ونروح ونجىء بعيوننا وقلوبنا . ونحن قبل أن نذهب إلى الملاعب قد هيأنا أنفسنا لذلك . فلا أحد ينزل ليخطفها من اللاعبين . لأن اللاعبين أنفسهم لا يخطفونها . إن الكرة فى أقدامهم وفى أيديهم كأنها كرة من النار . فيلمسونها ولا يمسكونها . والذى يمسكها بسرعة يتخلص منها تمامًا كما يحدث فى المسارح وفى السينما .. وكما نفعل فى بيوتنا ونحن نتفرج على التليفزيون .. لا أحد يقوم ويضرب البطل قلمين .. أو يأخذ من البطلة قبلتين . لا شىء من ذلك يحدث ..

لأن الذى أمامنا تمثيل .. وأننا نعرف ذلك .. أما الذى يفعل غير ذلك ، فهو جاهل لا يفرق بين التمثيل والحقيقة .. لا يفرق بين ما يقع على المسرح أو على الشاشة أو على أرض الملعب ، وما يحدث فى الحياة – وليس هذا عجيبًا فإن الأميين أغلبية ساحقة فى مصر ! . □

أنت على حق !

إذا سمع عشرة أشخاص قصة واحدة ، أو حادثة واحدة ، فإنهم سيروون هذه الحادثة بأشكال مختلفة .. ومن المؤكد أنهم سيتفقون على معناها العام . ولكن الخلاف سيكون فى طريقة سردها .

وإذا كان واحد منهم طرفًا فى هذه الحادثة فسيرويها بشكل مختلف . سيضع فيها رأيه . وموقفه ويضيف إليها . ولذلك فكل الأحداث والحكايات والقصص التى بين الأصدقاء والزملاء والأقارب ليست دقيقة .

ولا تروى على صورة واحدة . فهم جميعًا مشتركون فيها . وكل واحد يرويها أو يفهمها على هواه . وهذه الخلافات تحدث كل يوم بين الناس . وكل يوم يتساءلون : أنا قلت كده ؟ .

وأناس يندهشون من هذه الخلافات الشديدة على أشياء واضحة ومحددة . ولكن لا شيء محددًا ولا واضحًا بين الأصدقاء والأقارب . فكل العلاقات الإنسانية ليست بديهية كالعلاقة بين رقم ٢ ورقم ٤ أو بين أربعة و ٤٤ .

وقد شعر الناس بالخجل عندما شاهدوا فيلم (أندريه كيات) عندما ظهر الفيلم فى دارين متجاورتين . الفيلم الأول يروى الخلافات الزوجية من وجهة نظر الزوجة . والفيلم فى الدار الأخرى يروى نفس الموضوع من وجهة نظر الزوج . وكلاهما منطق ومعقول . فالزوجة روت قصتها التى تجعلها مظلومة أمام زوج أنانى لا يفكر إلا فى العمل والأكل والنوم .. ومشغول بنفسه ولا يدرى بزوجته مطلقًا .

والكلام معقول والتسلسل منطق . وجميع المتفرجات يقلن : مضبوط .. تمام .. معها حق ! .

والفيلم فى الدار الأخرى يروى القصة من وجهة نظر الزوج الذى يجد زوجته مشغولة طول الوقت فى الزينة وفى المكالمات التليفونية وفى الشكوى منه لأنه يتركها ويذهب إلى المكتب ولأنها ترى أن انشغاله معناه أنه يفكر فى فتاة أخرى فى حين أن هموم العمل والحياة اقسى من ألف فتاة . ولا يملك الزوج أمام سيدة عصبية إلا أن يبتلع لسانه وينطوى على همومه ويسكت .. وإلا أن يشعر بأن راحته المؤكدة هى أن يجد نفسه فى الشارع فهو وحده الذى ينقذه من هذه المحكمة اليومية ،

ويقول الرجال : تمام . معه حق . بالضبط ده !

أما الفيلم الذى لم يعرض حتى الآن فهو الذى يتواجه فيه الزوج والزوجة ويقول كل منهما للآخر : آسف .. أنت على حق ! □

روح الفريق !

ما معنى عمل معسكرات للاعبى كرة القدم . معناه عزل هؤلاء الشبان الصغار عن كل ما يشغلهم عن الرياضة .. أى عن تحقيق اللياقة البدنية . كالسهر والتدخين والشرب والعمل أيضًا .. ومعناه أيضًا تعميق الشعور بالندم عندهم . فلا يقام المعسكر لأى ناد رياضى إلا على أثر هزيمة شديدة لحقت به . أى صدمة عنيفة لجمهوره الذى يتحمس له فى كل مكان : ويتحدى به ومن أجله الأندية الأخرى . ومعناه أيضًا تقديم ترضية لجمهور هذا النادى . وتقدير عملى بأن يكون هذا النادى عند حسن ظنه . وعند حسن تشجيعه .

ومعناه أيضًا أن الفن الرياضى ليس موهبة فقط . وإنما هو تنمية لهذه الموهبة فلا يكفى أن يكون اللاعب فاهمًا أو واعيًا . فمعظم المتفرجين شديد الفهم والوعى . وإنما يجب أن يطبق هذا الفهم والوعى .

ومعناه أيضًا تثبيت روح التعاون . أى روح اللعب معًا . روح الفريق . فكرة

القدم ليست كرة فى قدم لاعب واحد . إنما كرة واحدة فى أقدام اللاعبين . وإذا سجل أحد اللاعبين هدفًا فهذا الهدف هو تتويج لجهود الفريق كله .

وليس فى كرة القدم لاعب واحد موهوب . إنما فيها فريق موهوب . وموهبة الفريق هى عن تفاهمه وتماسكه ولا يمكن أن ينجح لاعب أو فنان أو طالب دون أن يكون له « مثل » هذ المعسكر .. هذا المعسكر الإجبارى . لابد للطالب وللكاتب وللفنان من أن ينعزل .. من أن يبتعد عن كل ما يبدد قواه ويشتت اهتمامه وبذلك تتحقق له اللياقة البدنية والنفسية والعقلية وهو ينشد هذه اللياقة لأنه مخلص لفنه ، ولأنه ملتزم أمام جمهوره ! □

بالنيابة عن رأسها !

أدوات التجميل الحديثة أدت إلى إضعاف شعر المرأة ، فالمرأة تذهب إلى الحلاق مرة كل أسبوع أو مرتين أو أكثر .. وعند الحلاق تحتمل ألوانًا من العذاب من التسخين والتبريد . والكى بالماء الساخن . والكى بالنار . والدبابيس الحديد والأمشاط العنيفة .. ساعة وراء ساعة ، وبعد ذلك يجىء دور المواد الكيماوية التى توضع لنعومة الشعر وتثبيت شكله . والمراهم والدهون والعطور .

وقد انتشر الصلع فى أوروبا وأمريكا بين السيدات . والصلع عند الرجال مختلف تمامًا عن الصلع عند النساء . فمن الممكن أن يكون الصلع وراثيًّا عند الرجل . ولكنه ليس كذلك عند المرأة . ومن الممكن أن تؤدى بعض الأمراض إلى تساقط الشعر عند الرجل والمرأة .

ومن الممكن أن يؤدى الخلل فى الغدد الصماء إلى تساقطه عند الجنسين ، وكذلك الضعف العام . أما عند المرأة فى العصر الحديث فالسبب هو أدوات

التجميل الكثيرة العنيفة . ولذلك كان لابد أن تغطى المرأة هذا العيب باستخدام الباروكة .. والباروكة من الممكن إرسالها إلى صالون الحلاقة بالنيابة عن رأس صاحبتها . ويقوم الحلاق عادة بإجراء عملياته الطويلة العنيفة . دون أن يحدث للباروكة أى ضرر . حتى هذا الباروكة قد أدت إلى إضعاف شعر المرأة التى تستخدمها .. لأن الباروكة تحتاج إلى دبابيس وإلى ضغط وإلى خنق لبصيلات الشعر . ولكنه على كل حال أهون بكثير جدًّا من العذاب الذى يلاقيه الشعر الطبيعى !

والباروكة هى شعر طبيعى وارد من قارة آسيا ، حيث يوجد أجمل وأفخم شعر فى العالم . وإذا كان شعر المرأة الأوربية لكى يطول عشرة سنتيمترات يحتاج إلى أربعة أسابيع ، فإنه يحتاج إلى نصف هذه المدة فى آسيا . ولاشك أن العالم الأمريكى الذى أعلن أن نسبة الذهب فى شعر المرأة الأوربية أكثر من نسبة الذهب فى شعر المرأة الآسيوية .. يقصد طبعًا الباروكة التى هى من آسيا ، والتى هى تاج مستعار مصبوغ فى لون الذهب .. قد باعته آسيا بالدولارات والاسترلينى حتى لاتبدو أوربا وأمريكا قرعاء وصلعاء ! ولا أحد يعرف بالضبط ما سوف يحدث للمرأة الأوروبية ، إذا أصيبت نساء آسيا بالصلع ؟؟ □

عصر الشعوب !

الدليل

على أن العصر الذى نعيش فيه قد حدثت فيه تغييرات هائلة من أجل الإنسانية ، أن له عددًا كبيرًا من الأسماء .. ففى أوائل هذا القرن استخدم الإنسان الكهرباء فى الصناعة . ولذلك سمى عصر الكهرباء .. وعلماء الطبيعة عندما شطروا الذرة وحرروا منها الطاقة الهائلة ، أطلقوا عليه اسم : عصر الذرة .

وعلماء الرياضيات أطلقوا عليه اسم : عصر الآلات الحاسبة .. وعصر الإنسان الآلى .. وعصر العقل الإلكترونى .

وعلماء الكيمياء أطلقوا عليه اسم : عصر النايلون أو العجائن أو اللدائن – أى البلاستيك . وعلماء الفلك أطلقوا عليه : عصر الفضاء .. والفلاسفة أسموه : عصر الحرية .. والأدباء أسموه عصر القلق .. والساسة أطلقوا عليه : عصر الشعوب لأن الكثير من الشعوب قد تحرر واستقل ..

وكل هذه الأسماء صحيحة . فعصرنا قد حدثت فيه كل هذه التغييرات

الهائلة .. فالإنسان قد اكتشف قوانين الأشياء وأضاف علومًا جديدة .. ولكن العلم ليس هو الذى يغير المجتمع ، وليس هو الذى يضيف الجديد إلى خير الناس وسلامهم . ولكن المجتمع هو الذى يستخدم العلم فى صالحه . وشكل المجتمع هو الذى يتحكم فى توجيه العلم ، فإن كان المجتمع رأسماليًّا ، فإنه يستخدم العلم لصالح عدد قليل من الناس . أى فى صالح الأقلية القادرة . وإذا كان المجتمع اشتراكيًّا . فإنه يستخدم العلم من أجل الناس جميعًا ، ولم يحدث فى عصر من العصور أن أصبح العلم فى خدمة كل الناس ، كما فى هذا العصر . فكل قوى الشعب وقدراته تعمل من أجل كل الناس . فنحن فى عصر الذرة والفضاء والحرية .. ولكننا فى العصر الذهبى للشعوب ! □

قصة كل العصور !

في التحليل النفسى يطلب الطبيب من (المريض) أو من (الزائر) أن يتمدد وأن يجلس على راحته تمامًا وأن يقول كل مايخطر على باله دون ترتيب .. أى شىء .. أى أن الطبيب يطلب من المريض أن يعطى لعقله إجازة .. أو يطلب إليه أن يرفع رجله من فوق الفرامل العقلية .. ويترك أفكاره وخواطره تنطلق كسيارة بلاقيود .. أو أن يرتد إلى ماضيه . ذهابًا وإيابًا .. ويقول .. أو أنه يطلب منه أن (ينفرط) كحبات عقد أو حبات فى عنقود حياته ..

ويستطيع الطبيب بماله من خبرة أن يربط بين هذه الأحداث والحوادث أو الحبات المتناثرة ويصنع منها صورة لما يعانيه المريض أو لمتاعب المريض .. أو أوجاع المريض .

والتنويم المغناطيسى يحقق هذه الغاية أيضًا . فالمريض يرتد بسرعة وبعنف إلى ماضيه .

ويبدو أن الإنسان ينام مغناطيسيا أمام أشياء كثيرة من بينها : المال والجنس

وعلى مائدة القمار مثلا تجد صورة مخيفة للناس . إنهم وحوش . يقتلون . أو يضحون بكل شيء من أجل الفلوس .. أو من أجل النصر أو التفوق فى الكسب .

وأمام المرأة ومعها ومن أجلها ضاعت عروش وأبيدت بلاد وأهدرت أرواح . فأمام الجنس بضعف أكثر الناس قوة .

ولذلك فإن قصة شمشون ودليلة ماتزال قصة كل العصور ، فأعداء شمشون لم يعرفوا أين تكمن قوته ولكن دليلة استطاعت أن تعرف ، فأمام دليلة ضعف شمشون وباح لها بالسر الذى حطمه بعد ذلك ، وفى كل مكان عاشت دليلة لأنها استطاعت أن تقهر شمشون لصالح شمشون آخر . لا لأنها قوية ولكن لأنه هو ضعيف أمامها ، وربما كان السياسى النمساوى مترنيخ هو أول من استخدم الغانيات موظفات فى الدولة يجمعن له أخبار ودسائس أعدائه وخصومه .

وقد امتلأ بلاط الملوك بهذا النوع من الجاسوسات الحسناوات .

ومن أسرار الحرب العالمية الثانية ذلك القرار الذى اتخذه تشرشل فى وقت عصيب عندما طلب إلى جنوده أن يحاصروا ماخورًا يتردد عليه ضباط روميل قبل أن يفتح الحلفاء الجبهة الثانية فى أوروبا . ولم يكن تشرشل رجلا عابثًا . إنما هو رجل جاد ويريد أن يعرف عن طريق الجنس عن طريق دليلة ماالذى يفعله شمشون وعرف عن طريق الغانيات مالم تكن تعرفه المخابرات .

إنه ضعف الرجل أمام كل دليلة فى كل مكان ، وفى كل وقت . □

حلم المجتمع الواحد !

الرحالة

النرويجى ثور هايردال ليس رجلا جريئًا فقط ، ولكنه صاحب نظرية . ويريد أن يثبتها بنفسه .. فقد وجد أن بعض النظريات العلمية التى استقرت كتمثال من الرخام فى متاحف التاريخ ، ليست صحيحة . ولم يكتف بذلك . بل قرر أن يقوم بنفسه لإثبات العكس ..

حاول ذلك بنجاح فى رحلته المشهورة على زورق خشبى اسمه « كون نيكى » من الشاطىء الغربى لأمريكا إلى جزر فى المحيط الهادي .

وحاول مرة ثانية وثالثة بالزورق المصنوع من أعواد البردى : رع الأول ورع الثانى . وكانت فلسفته هذه المرة . أن الفراعنه عبروا المحيط إلى أمريكا . وأن هذا ممكن . وقد أفلح فى أن يعبر المحيط أيضًا .

وهايردال ينتسب إلى هيئة تنادى بالعالم الواحد . أو بوحدة العالم . ولذلك حاول فى رحلته هذه أن يجمع المسلم والمسيحى واليهودى والملحد . الرأسمالى

والشيوعى . الأرثوذكسى والكاثوليكى والبروتستانتى . الأوروبى والآسيوى والأمريكى والأفريقى وبعض الطيور وقردًا . وكان المسلم هو عبد الله جبرين والمسيحى الأرثوذكسى هو المهندس المصرى جورج سوريال ..

وكانت رحلته هذه ، رغم كل الصعوبات التى واجهتها محاولة عملية لتحقيق هذا الحلم العجيب للمجتمع الواحد فى مواجهة الأهوال والأخطار المشتركة وكتبت عن ذلك . وأعجبت بالرجل وطموحه .

وجاءنى عبد الله جبرين وشكا كثيرًا من الرحالة النرويجى . وتأثرت . وكتبت فى « آخر ساعة » أعيب على الرحالة الفيلسوف موقفه من هذا الأفريقى البسيط الأمى . وترجمت هذه المقالة إلى هايردال الذى يعيش فى إحدى الجنات فى إيطاليا . وتألم الرجل . هكذا قال لى جورج سوريال والصديق عادل طاهر وكيل وزارة السياحة حينئذ . وكتبت أصحح موقفى لصالح هايرد ال بعد أن سمعت من جورج سوريال الجانب الحقيقى من مغامرات وتهورات عبد الله جبرين ومشاكله مع زوجاته فى تشاد وفى مصر ..

ودعانى سفير النرويج إلى مكتبه ليقدم لى هدية من الرحالة ثورهايردال وكانت الهدية كتابًا ممتعًا عن حياته . عنوان الكتاب « السنيوركون نيكى » فقد أطلق عليه أهله هذا الاسم أما مؤلف الكتاب فهو أمريكى من أصل نرويجى واسمه أرنولد جاكوبى .

والذى أعجبنى فى الرحالة النرويجى هو حرصه على أن يصحح كل ما يقال عنه فى أى مكان . إن صورته التى علقها العالم قد اتخذت مكانها لا بين الرحالة ولا بين المكتشفين ولا بين الفلاسفة ولكن بين أصحاب الدعوات إلى السلام والتعايش بين كل الأديان والألوان والمذاهب .. وهو حريص على أن تبقى صورته هناك .. فوق .. عالية ، وهى بالفعل كذلك .. □

مكتب العقاد .. ابتدائى !

أمامى

صورتان لا يمكن أن أنساهما .. صورة المكتب الذى كان يجلس إليه أستاذنا الكبير عباس العقاد : وصورة المكتب الذى كان يجلس إليه الأديب السويسرى فريدريش ديرنمات ..

أما مكتب الأستاذ العقاد فهو قطعة من العذاب الحقيقى . مكتب صغير مثل مكاتب طلبة المدارس الابتدائية .. لا يمكن أن يجلس إليه أحد ، انما يجلس أمامه . ثم ينكسر عليه .. لا أقول ينحنى عليه .. فالعقاد بقامته الطويلة لابد أن يتقوس على هذا المكتب ولابد أن يجعل رأسه متدليًّا بعنف . أما المقعد الذى كان يجلس عليه العقاد فهو صغير . وغير مريح أيضًا .

ومن المؤكد أن العقاد لم يكن يستريح إلى هذا المكتب بسبب الساعات الطويلة التى ينكفئ فيها فوق المكتب قارئًا أو كاتبًا . ولكن العقاد فى نفس الوقت لم يتسع وقته لكى يفكر فى البحث عن مكاتب أخرى . أو لعله لم ير هذه المكاتب فى أى مكان .. ولابد أن تكون آلام المصران الغليظ قد تضاعفت بسبب الضغط العنيف

والتوتر المستمر أثناء القراءة أو الكتابة .. وأذكر أننى مرة داعبت الأستاذ العقاد فقلت له : عندك آخر كتاب عن سفن الفضاء وعندك أول وابور جاز دخل مصر .

وكان يضحك ولكنه لم يفكر فى أن يغير وابور الجاز أو المكتب .

أما مكتب أديب سويسرا ديرنمات فهو ألوان ودرجات من الراحة فى الجلوس والراحة فى تقليب الكتب أو الصفحات .. المكتب عريض جدًّا .. وهو عندما يجلس إليه يزحف تحته .. ثم إذا أسند ذراعيه أثناء الكتابة أو القراءة فهو يضيف إلى جسمه مزيدًا من الراحة وبذلك لا يبذل أية طاقة فى محاولة الجلوس أو الاعتدال أثناء الجلوس قارئًا أو كاتبًا . وإنما يصبح همه الأكبر هو أن يقرأ أو يكتب .. وهو فى غاية الراحة .

إننى أعتقد أن نصف التعب من القراءة والكتابة – للمدمنين مثلى – يرجع إلى المقعد غير المريح أو المكتب الذى يرفض أجسامنا وينبذها ويجعلها معذبة فى الانكسار على الورق ، فليست القراءة مؤلمة ولا الكتابة هى العذاب وإنما المكاتب هى أقسى درجات العذاب .

ولا أنسى صورة عرش ملك إيران فى طهران . إنه مرصع بالأحجار الكريمة وثمنه بالملايين ولكن أحدًا لا يستطيع أن يجلس عليه .. إنه مجموعة من الأحجار الباردة الموجعة . فهو غال جدًّا ومرهق جدًّا .

لقد فكرنا فى كل ما نقرأ ولكن مهندسًا واحدًا لم يفكر فى أن نجلس على مقعد مريح ونحن نقرأ أو نكتب .. وفى استطاعتك أن تنظر إلى الذين يجلسون إلى مكاتبهم كيف يجلسون ساعات طويلة وما الذى يشعرون به بعد ذلك فى الظهر والبطن والكتفين – والمفاصل بعد ذلك إن شاء الله . □

هزيمة نفسية

تابعت باهتمام المباراة الدولية فى الشطرنج بين أسباسكى الروسى وفيشر الأمريكى وكلاهما يهودى . وكنت من المؤمنين بأن الأمريكى هو الذى سوف يكسب فى النهاية . ولا أدعى أننى من أبطال الشطرنج إنما أشاهد المباريات الدولية المشهورة كلما وجدت وقتًا لذلك . ومن المؤكد أن اللاعبين ممتازان . وأن لديها قدرات خارقة على نقل قطع الشطرنج . بل إن النقاد يقولون إن كلا منهما قد ابتدع دفاعات جديدة لم تكن معروفة من قبل .

ولكن اللاعب الأمريكى استطاع أن يهزم الروسى قبل أن يلعب . فقد جاء إلى أيسلندة حيث أجريت المباراة – بزفة عجيبة غريبة . فقد أتى بعدد من الأفعال الشاذة . والأعمال الوقحة وهاجم اللاعب الروسى فى تفكيره وفى تكوينه . واتهمه بالبلادة واتهم مستشاريه . وأعلن أنه يرثى لحال البطل الروسى لأنه إذا انهزم فسوف يضعونه فى زنزانة فى سيبيريا . وأنه يؤسفه ذلك . وأنه كان يتمنى أن يساعده لولا أنه يحلم منذ طفولته بأن يكون سيد الشطرنج فى العالم .. ومن العدل أن يقال إن

اللاعب الروسى لم يعلق على ذلك بشىء . وإن كان طبعًا قد ضاق به ولكنه كتم هذا الغيظ . وفضل أن يدخر قواه للعب وللفوز على المنافس الأمريكى ..

واستخدم البطل الأمريكى كل الحيل لتحطيم أعصاب الروسى .. فارتدى الملابس الزاهية المنفرة الألوان ، لكى يشتت انتباه الخصم . وأتى بمقعد خاص لا يكف عن الحركة والدوران .. ثم إنه كان ينهض من مقعده ويظل يدور فى الحجرة .. وكان يصرخ يطلب من الأطفال الصغار فى الشارع أن يتوقفوا عن الصياح .. ويطلب من مصابيح التليفزيون أن تبعد .. بل إنه طلب من الحكم الدولى أن يغير الكرافتة لأن ألوانها فاقعة .. وحتى لا تفشل هذه المباراة الدولية ، وهى مباراة القرن العشرين ، فإن اللجنة الدولية للشطرنج أجابت البطل الأمريكى إلى كل نزواته بما فى ذلك عصير البرتقال الذى شكا أكثر من مرة أنه مثلج أكثر مما يجب .. مع أن هذا العصير قد أتى به من أمريكا هو والثلاجة الخاصة الموضوعة فى غرفته بالفندق الذى غيره هو الآخر ثلاث مرات ..

ولم يستطع البطل الروسى أن يحتمل كل هذه الإهانات ولا كل هذه الحرب النفسية الخاطفة .. أو هذه الغارات فى العمق . فضج . ولم يصدق أن حالته النفسية قد ساءت إلى هذه الدرجة وأعلن أن البطل الأمريكى قد استعان عليه بأجهزة علمية قد أخفاها فى المقعد الخاص ، وأن هذه الأجهزة تطلق موجات خاصة تعطل تفكيره تمامًا .. فهو يرتكب أخطاء كثيرة لا يقع فيها طفل صغير .. وجاء الخبراء وفتشوا المقعد وقلبوه على كل الوجوه .. ولم يجدوا شيئًا .

إن البطل الأمريكى قد هزمه نفسيًّا قبل أن يلتقى به فنيًّا .. صحيح أن كلا منهما عبقرى فى الشطرنج .. ولكن العبقرية أضيفت إليها هذه الحرب النفسية فانتصرت .. فالقوة وحدها لاتكفى – لابد من الحياة بأية وسيلة .. □

حياة بالعافية !

ما الذى يفعله إنسان لم يفلح فى أن ينام طول الليل ولابد إذا طلع عليه النهار أن يعمل ، فإذا عمل كان صافى الدماغ ؟ .

إنه مضطر طبعًا إلى أن يشرب القهوة والمزيد من القهوة لعله يفيق . أو لعله يصبح قادرًا على أن يفتح عينيه بقوة مادة الكافيين .. فإذا شرب القهوة أصبح من الصعب عليه أن يغمض عينيه ظهرًا ، واستحال عليه أن ينام ليلا .. أى أصبح من الضرورى أن يظل ساهرًا ليلة أخرى ..

فإذا احتمل السهر ليلتين متتاليتين فما الذى يفعله لكى يعمل ؟. عليه أن يضاعف كميات القهوة وأن يضاعف قدراته فى أن يسترخى وقت أن ينام حتى لا يسهر ليلة ثالثة ..

وإذا لم يستطع ، ولا أراد ، أن يسهر للمرة الثالثة ، فلابد من أن يتعاطى الحبوب المنومة ، وبذلك يغتصب الراحة بقوة المهدئات أو المخدرات أو المنومات . وإذا تعاطى هذه المنومات واعتاد عليها ، فإنه سيجد نفسه مضطرًا إلى أن يضاعف

كميتها يومًا بعد يوم .. حتى تفقد هذه المنومات قدرتها على تليين أعصابه وإثقال جفنيه .. فإذا أسرف فى تعاطيها ، قام من النوم كسولا بليدًا ، ولذلك لابد أن يعود إلى المنبهات لعل شيئًا من التوازن بين التراخى والتوتر العصبى أن يتحقق . وبذلك يصبح قادرًا على العمل ..

فماهى النتيجة ؟

إنه ينام بقوة المنومات ، ويصحو بقوة المنبهات .. وهو هكذا يعيش بالقوة .. بين الذى يشده إلى المكتب ، والذى يريحه على الفراش

فإذا كانت المنومات ضارة ، والمنبهات ضارة .. وإذا كان هذا التمزق سوف يقضى على أعصابه وعضلاته وقدراته ، فما هو الذى يمكن أن يفعله أى إنسان لكى يعمل بالقوة ويستريح من العمل بالقوة ..

لاشىء سوى أن يقاتل من أجل النوم أو من أجل اليقظة .. حتى الموت .. وفى هذه المسافة الصغيرة بين السرير والمكتب ..

وبعد ذلك نسميها : حياة .. وتقول : إن الحياة كفاح . ولكن من أجل أى شىء من أجل أن ننام بعض الوقت ، حتى ننام إلى الأبد ... □

أول نكتة

صحيح

ما الذى بيننا وبين الأشجار ؟ لماذا كلما رأينا شجرة قطعناها ؟ لماذا كلما رأينا وردة قطفناها ؟ لماذا كلما رأينا عشبًا سحقناه ؟ لماذا كلما رأينا حقلا أقمنا فوقه بيتًا ، وحولنا الأرض الخضراء إلى صحراء ، مع أن لدينا نصف مليون ميل من الصحارى التى تحتاج إلى عشرات الألوف من السنين لكى تصبح خضراء . إن النيل نفسه لم يجعل أرضنا خضراء إلا بعد ألوف السنين وهو الآن عاجز تمامًا على أن يضيف شبرًا أخضر إلى أرضنا . لماذا ؟ .

هل الموت هو المقدس عندنا . والحياة لعنة . هل الفناء مقدس والبقاء مكدس ؟ هل نحن نحتفل بالموت . ولا نحتفل بالحياة ؟ . حتى هذا ليس صحيحًا لأننا نقطع الأشجار ونتركها جثثًا فى الشمس والهواء كما يفعل بعض الهنود عندما يدفنون موتاهم فوق أسطح البيوت طعامًا للغربان والصقور والنسور .. إذن فنحن لا نهتم لا بالحياة ولا بالأحياء ولا بالموت ولا بالأموات . فما الذى نهتم به إذن ؟.

إننا أولاد نكتة ؟ – هذا هو السبب . والنكتة معناها : الرغبة فى التشويه . لأن

النكتة هى الضحك من إنسان .. أى جعله مسخة أو مهزلة أو مسخرة . فأساس النكتة هو كيف تشوه إنسانًا تشوه اسمه وجسمه وسمعته ..

وكذلك نحن نحرص على تشويه الشارع والحديقة والحقل .. هذا هو الأساس . ولا نفعل هذا مع الأشجار فقط أى مع الكائنات الحية . بل نفعل ذلك مع الجماد أيضا .. مع أبواب البيوت والسيارات وأعمدة النور ومقاعد السينما وجدران دورات المياه .. ومع الكتب التى يطالعها الناس فى المكتبات العامة . مع كل شىء لا نملكه نحن شخصيًّا . فكل ما يملكه الغير مستباح تشويهه .. وهذا هو معنى أننا أولاد نكتة .. أى ولدنا لكى نرى كل شىء مشوهًا .. أى لا نستريح إلا إذا كان مشوها .. إلا إذا شوهناه !

وهكذا تتحول النكتة إلى نكبة !. □

النقطة الأخيرة !

لو كان أحد يعرف بالضبط ما الذى يريده من هذه الدنيا ؟ . لوكان أحد يعرف ما هو المطلوب منه ؟ أو ماهو معنى أى شىء يعمله أو يقوله ؟ لو كان أحد يعرف فائدة أى شىء أو الحكمة من أى شىء أو وراءه أو أمامه ؟ ولكن المأساة أننا لا نعرف أى شىء وليس عندنا من الوقت لكى نعرف . وإذا عرفنا فليس عندنا وقت لكى نستمتع بأى شىء ، لا وقت .. ولذلك : لا طعم .. لا معنى .. لا لون . لا أمل . لوكان الكاتب يعرف بالضبط مالذى وراء هذا الذى يراه أو هذا الذى يحسه .. لوكان يعرف ما الذى يريحه .

إن عددًا قليلا من الناس عرفوا مايريدون . وحققوه وانتهت حياتهم فى سن مبكرة .. أنهوها أو وجدوها قد انتهت . إن الشاعر الفرنسى رامبو قال كل ماعنده من المعانى الجميلة فى صورها الجميلة وهو فى السابعة عشرة من عمره . وبعد ذلك عاش يعدد هذه السنوات . ولكن كانت حياته كالموت .. فكأنه قد مات فى

السابعة عشرة . لم يضف جديدًا إلى ما قال واستراح أو لم يسترح . إنما استراح النقاد والمؤرخون إلى أنه قال كل ماعنده فى سن صغيرة : توهج حتى احترق .

ولكن المصيبة أن الإنسان يدور حول أشياء كثيرة يراها أو لايراها . يحسها أو لا يحسها يؤمن بها أو لا يؤمن بها .. ولكنه مشدود . مربوط . محصور . مخنوق . مقبوض . محكوم عليه بما لا يعرفه أو مالا يستحقه . وحياته هى تنفيذ لأحكام صدرت غيابيًّا فى محاكمة سرية تطبيقًا لقوانين مجهولة عقابًا على أخطاء خفية .

وفى يوم من الأيام كنت استمتع بقراءة شعر الأديب اللاتينى لوكريشيوس . وأنظر إليه كرجل صناعته البللور . فهو يمد يده إلى قطرات السحاب فينظمها قطعًا من الكريستال على شكل عقد أو على شكل نجفة بسهولة . وسعادة .. ولكنى عرفت بعد ذلك أن هذا الشاعر لم يكتب سوى قصيدة واحدة . فقط قصيدة واحدة طولها سبعة آلاف بيت . نظمها فى السنوات العشر الأخيرة من حياته . وعند البيت الأخير منها أقفل على نفسه باب بيته وانتحر .

قال آخر كلمة مع آخر نفس وصفى حسابه ولم يعد مدينًا لأحد ، وعندما سقط على الأرض سبقته إليها قطرة دم .. كانت النقطة الأخيرة فى صفحة حياته .

فهل عاش أو مات سعيدًا ... انتهى .. انتهى .. فبعد الموت لا يهم شىء . ! □

إنها طبيعة أى إنسان

دفاع

فى الأنانية – هذا اسم كتاب صدر أخيرًا لكاتبة أمريكية اسمها عين راند، أو لكى أكون دقيقًا فإن عنوان الكتاب هى فضيلة الأنانية – تقول السيدة عين إننا عادة نتهم أى إنسان فنقول إنه : أنانى ... نقصد بذلك أنه لا يقول إلا : أنا . . أنا . .

أى أن هذا الشخص يهتم بنفسه دائمًا . كيف يأكل . كيف يشرب . كيف يكون فى صحة جيدة كيف يبدو أنيقًا . كيف يغزو القلوب . وكيف يحتفظ بها . أوكيف يحطمها ، المهم أنه يريد أن يكون نوح فى قلب الطوفان ..

وتسأل المؤلفة : ولكن من الذى لا يهتم بنفسه .. من الذى لا ينشغل بحاله .. من الذى لا يريد أن ينجح أكثر .. ويكسب أكثر .. ويعيش أطول .. من الذى لا يقول فى أعماق أعماقه : أنا أحسن من كل هؤلاء .. أنا أحق من كل الناس . من الذى لا يقول ذلك لنفسه . . ؟

وتجيب المؤلفة : بصراحة كل إنسان أنانى . ولذلك فالأنانية ليست رذيلة إنها

صفة من صفات الإنسان . ولذلك لا يمكن أن تكون إهانة لأحد . إلا إذا اعتبرنا أن المشى على الرجلين إهانة .. والمنطق إهانة والعقل إهانة ... ونحن لا نفعل ذلك .

ثم إن كل إنسان يتهمك بالأنانية ماالذى يقصده ؟ يقصد أن يقول لك : يا أنانى كيف لم تفكر فى غيرك من الناس .. أى فيه هو مثلا . أى أن الشخص يريد أن يقتسم معك . أى أنه لا يعترض ، على ماكسبت وإنما يعترض على أنك لا تقاسمه .. لا تشاطره . سواء كان على حق فى ذلك ، أو لم يكن على حق ..

فإذا أنت كسبت ورقة يانصيب .. أو ذاكرت فى صمت حتى نجحت وقال لك : ياأنانى .. فهو طبعًا يقصد لماذا لم تعطه بعض ماكسبت ، ولماذا لم تخبره كيف ذاكرت فنجحت ؟ إن الأنانية ليست إهانة لأحد إنها طبيعة أى إنسان . وماهو طبيعى لا يمكن أن يكون عيبًا وإنما العيب هو أن نتظاهر بغير ذلك . ونحن فى أعماقنا وحوش أنانيون ..؟

الحق معك ياسيدة عين ! □

الإنسان لا يقتل إلا نفسه

من المشاكل التى واجهت الباحثين الذين يريدون إصلاح الريف المصرى أن يبنوا بيوتًا للفلاحين بشرط ألا يحتفظوا فيها بحيواناتهم . حتى تكون البيوت نظيفة من مخلفات هذه الحيوانات . حرصًا على صحة الفلاحين . فإذا نقل الفلاحون مخلفات هذه الحيوانات خارج البيت ، ظهرت مشكلة أخرى وهى أن الفلاحين يجعلون هذه المخلفات على شكل أكوام . كل قرية فيها كوم كبير .

أو كل بيت له كوم ينقله إلى الحقل لأن هذه المخلفات أسمدة عضوية وضرورية لإخصاب التربة . وهذه الأكوام مشكلة أخرى لأنها ضارة بصحة الفلاحين عموما . ثم إنها تنفجر بالحشرات الضارة أيضًا ..

وهذه الحيوانات هى (مصانع) الفلاح لإنتاج اللحم واللبن والأسمدة وهى مثل كل المصانع لابد لها من مخلفات . وهذه المخلفات ضارة وضرورية .

ولما تحولت المصانع إلى حديد وصلب ومعادن أخرى ، وأديرت هذه المصانع

بالغاز والفحم ، كانت لها مداخن . وهذه المداخن تطلق فى الهواء هذه السموم التى نعرفها والتى نلمسها يوميًّا فى الشوارع – يكفى أن تمشى وراء أو إلى جوار أية سيارة تدار بالبنزين أو بالسولار .. هذا الهواء الفاسد يخرج من ملايين السيارات ويؤدى إلى إفساد الهواء الذى نتنفسه .. والذى تفعله السيارات فى شوارع المدن ، تقوم به المصانع فى سماء الدول . وفى مياه البحر وفى مياه الشرب . فلا يوجد هواء ليس مسمومًا . ولا يوجد ماء لبس قاتلا . والدول التى تنتج سفن الفضاء حريصة على أن تعقمها كما تعقم الآلات التى يستخدمها رجال الفضاء ورجال الفضاء أنفسهم حتى لايتلوث (جو) القمر والكواكب الأخرى .. لأن الأرض وجوها وماءها وطعامها ملموءة بالسموم .

والمشكلة الآن ليست كيف نتخلص من السموم ، ولكن كيف نجعلها أقل .. وهذه فرصة عظيمة لكى نعتذر للأفاعى والعقارب تلك الكائنات السامة دفاعًا عن النفس – فقد أصبح الإنسان سامًا ولا يقتل إلا نفسه .. □

المشى والمشى والمشى !

رجل ظريف من كندا يلف العالم كله ومعه تابوت . هذا التابوت ينام فيه ويموت فيه إذا جاءت اللحظة المناسبة وبذلك لا يكون عبئًا على أحد . مع أنه سوف يكون عبئًا طبعًا لأن الناس لابد أن ينقلوه من التابوت ويبحثوا له عن مقبرة من مقابر الفقراء ويدفنوه ، وقد يتطوع قسيس ويصلى عليه إذا كان مؤمنًا – أى إذا كان الميت مؤمنًا .

هذا الرجل اسمه الزر دوكيت .

فقد ترك كندا منذ اكثر من ثلاثين عامًا . ووضع تابوتًا على بسكلته . وراح يتنقل بين القارات وفى هذا التابوت أدوات بسيطة للطبخ والحلاقة وراديو وثلاجة صغيرة . وهذا الرجل لا عمل له . ولكنه إذا ذهب إلى مدينة فإنه يختار الشوارع الرئيسية فيها ويقف . ويلتف حوله الناس . ويستمعون إلى بعض أحاديثه ثم يمد إليهم يده يتقاضى حق الأداء العلنى لبعض قصصه ونوادره . ويدفع له الناس . فهو رجل شريف . أما إذا قرر الصحفيون أن يتحدثوا إليه فمن الواجب أن تدفع له

الصحف مكافأة عن كل ما قاله لهم . ومعه حق .. ولم يترك هذا الرجل مكانًا هامًا فى العالم لم يره .. فقد رأى كل معالم آسيا واستراليا وأوربا .

وهو فى صحة جيدة جدًّا وهذا هو الأهم . يقول : السبب هو المشى والمشى والمشى ، فقد سار على قدميه ربع مليون كيلو متر فى ٣٣ عامًا . وهو فى هذه الفترة لم يشك من أى مرض حتى الصداع . وهو يرى أن الصداع مرض - مع أنه شىء بسيط ومتوافر عندنا جميعًا ، يكفى أن تقابل أحد زملائك ليصاب كل منكما به وبسرعة .

ويقول إنه لا يخاف شيئًا أو أحدًا - وأنا أعتقد أن هذا هو أعظم دواء وشفاء فى الدنيا كلها . فليس كالخوف مرضًا وليس كالخوف عقابًا ولا سجنًا . فنحن نعيش فى عصر الخوف من كل شىء ومن كل شخص ومن كل يوم - أعوذ با لله من هذا العصر ومن أهل هذا العصر فى أى بلد . □

ما وراء الحس ؟!

نحن فى عصر المادة . كل شىء نلمسه مادة لها أشكال وأحجام وألوان وفوائد مختلفة والفرق بين دولة ودولة هو فى استخدامها للمواد .. التى تتحول إلى عربات كارو أو سفن فضائية .. وهذا الاستخدام الحديث للمواد أو الأدوات وتطويرها هو الذى نسميه : التكنولوجيا .. ولكن الدول المتطورة جدًّا مشغولة « سرًّا » باهتمامات أخرى غير مادية .. بأشياء عقلية أو نفسيه أو نفسانية أو روحية ..

وأمامى كتاب ضخم صدر أخيرا عنوانه « الاكتشافات النفسية وراء الستار الحديدى » أى فى روسيا والدول الاشتراكية الأخرى . الكتاب فى ٥٠٠ صفحة ومن تأليف شايلا اوستراندر ولين شريدر .

والكتاب مثير ومذهل وممتع جدًّا لأنه يعرض التجارب السرية البعيدة عن العيون والضوضاء التى يقوم بها العلماء عن التنويم المغناطيسى وعن الرؤية عن بعد والاستماع عن بعد – أو الجلاء البصرى والجلاء السمعى .. وكيف ترتفع أجسام

الناس عن الأرض دون مساعدة من أحد .. والعلاج الروحى .. والتنبؤ والاستشفاف والتنجيم والعلاج بالإبرة الذهبية والسحر والاحساس عن بعد ..

وهناك تجارب أخرى عن الحشرات عند الحب والكره والموت .. وتجارب عن النبات عند النمو والنضج والذبول ..

إن التقليب فى هذا الكتاب يؤكد أن الأشياء المادية ليست مادية كما نتصور إن إشعاعات غريبة « إرادية » تصدر منها وكأنها كائنات عاقلة .. وأن هناك « إحساسًا » متبادلا بين الأشياء والأشخاص .. وأن هناك رسائل خفية بين الأشخاص والأشخاص على مسافات متباعدة جدًّا . كيف يحدث ذلك وكيف يمكن أن يحدث . مامعنى ما يقوله رواد الفضاء إنه أمكنهم أن يتحدثوا بعضهم إلى البعض دون أن ينطق الواحد منهم بكلمة .. كيف إن أحد رواد الفضاء أحس أن صديقًا له فى مدينة تبعد عنه ألوف الأميال قد « قرصه » فى ظهره .. وكيف إن هذا حدث بالفعل ؟ وإن العلماء سجلوا ذلك .

إن عالمًا آخر اسمه عالم « ما وراء الحس المباشر » يدرسه العلماء فليس الإنسان مادة من لحم ودم ، وليس اللحم والدم مادة لا إحساس بها – والله أعلم .. □

مشغولون بالمستقبل

كثير من العلماء مشغولون بمستقبل البشرية .

ومن ضمن هموم العلماء مثلا : كيف تكون الصداقة بين الناس ؟ وهل ستكون هناك صداقة أو مجرد زمالة ، أو مجرد حسن الجوار . والذى يرونه فى العالم الآن يدل على أن الصداقة قد فقدت معناها . فليس عند الناس وقت لكى تنمو علاقة وتصبح قوية . فإذا أصبحت قوية ، أدرك الأصدقاء أنهم ضروريون وأنه لاغنى عنهم . كالماء والهواء والطعام والحروب . ولكن لأن المجتمعات الإنسانية متحركة . والناس يذهبون من مكان الى مكان ومن دولة إلى دولة ومن قارة إلى قارة وغدًا من كوكب إلى كوكب ، فإن الضروريات كالأصدقاء والزوجات والأبناء لا يمكن أن ينقلهم الإنسان معه من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان وعلى ذلك فالصداقة سوف تكون أملا من آمال الناس . أو سوف تكون سببًا قويًّا من أحزان الناس على العصور الذهبية التى كانت تحمل شعارات تقول : حياة بلا أصدقاء ، هواء بلا أوكسيجين .. أو حياة بلا ماء ..

وأحد العلماء المشغولين بالبحث عن المستقبل اسمه « الفين هوفنر » فى كتاب له اسمه « صدمة المستقبل » أو « المستقبل صدمة » . فهو يرى أن الصداقة والمحبة يجب أن نترحم عليهما ابتداء من اليوم ، هذا إذا كانت عند الناس أية قوة فى البكاء على الماضى ..

ويقول هوفنر : ولكى يصبح الإنسان قادرًا على امتصاص صدمات المستقبل يجب أن يروض نفسه على الحياة بلا أصدقاء ، حتى لا يبكى على فراق صديق ، أو يفرح للقائه .

ويقترح الأستاذ هوفنر أن يبدأ الآباء بأن يحرروا أنفسهم من التعلق بالأطفال . وأن يعلموا الأطفال كيف يستغنون عن الآباء ....

ومن الغريب أن الأستاذ هوفنر يرى أن المسألة سوف تكون صعبة أول الأمر ، ولكن بمرور الزمن سوف نعتاد عليها ..

ويتنبأ بأن علماء الكيمياء سوف يصنعون حبوبًا للصداقة – مثل الأسبرين – هذه الحبوب تجعل الإنسان يحب إنسانًا آخر لمدة ٢٤ ساعة . وبعد ذلك يفتر هذا الحب ويذهب ، كالصداع .. وهكذا ..

أما لماذا يحرص العلماء على أن يطلقوا على حياتنا هذه كلمة « حياة » فهذا شىء عجيب .. فلا هى حياة ولا معنى لها ولا طعم ولا ضرورة ..

فالعلماء مشغولون جدًّا بأن يخففوا علينا من الآن هذا « الموت » الذى نسميه حياة .. فليفعلوا ما يشاءون فإن واحدًا من القراء لن يعيش حتى هذا اليوم .. □

مزاجنا الهوائى !

عاطفيون جدًّا نحن المصريين ، أو نحن العرب . والأمثلة على ذلك لا أول لها ولا آخر .. لها أول هو تاريخنا ولها آخر هو نهاية التاريخ ، إلا إذا حدث فى تجاربنا الحيوية ما يردنا ويصدنا ويغير طبيعتنا . فنتحول من أناس تأتى بهم كلمة وتذهب بهم كلمة إلى أناس آخرين

مثلا : احترقت دار الأوبرا . وكان من الممكن أن تحترق قبل ذلك بعشرين سنة .. أو بعد ذلك بعشرين سنة . وتأثر الناس وبكوا عليها - الذين دخلوها والذين لم يدخلوها . والذين يعرفون من بناها والذين يلعنون من بناها . ولم نتجاوز حد البكاء عليها . ومضت على هذا الحريق سنوات عديدة فلم نر أثرًا لهذا الحزن العميق .. ولا كتابًا ولا لوحة ولا قصيدة ولا مسرحية ولا بنشر لتاريخ الخديو إسماعيل والأسرة المالكة فى مصر .. ولا سخرية من بكاء الناس الذين دمر العدو أرضهم فى بورسعيد واحتل سيناء .. والتى قنابله فى أعماق مصر وفى أعماق الناس ولم ينفعلوا بمثل هذه الدرجة - لاشىء من ذلك ! وطالب الناس - بشىء من

التحدى – أن تقام الأوبرا فى نفس المكان وأحسن ، ولم نفهم من الذى يتحدونه : الخديو اسماعيل .. المطافىء .. الزمن ... النار ... الإهمال .. لم نفهم شيئًا من هذا كله ! .

وبعد ذلك قرأنا أن مكان الأوبرا سوف يكون موقفًا للسيارات – وهذا شىء منطقى ومعقول . وكان لابد أن يحدث ذلك .. فالعاصمة خانقة ومخنوقة . والشوارع ضاقت فقد تراكمت على جانبيها السيارات كما يتراكم الكولسترول فى الأوعية الدموية فيجعلها ضيقة وخانقة وصلبة .. ولذلك مميتة . !

ويبدو من مثل هذا الموقف من الأوبرا – أنه موقف نموذجى أو « نمطى » وأننا عادة نفعل ذلك .. فننفعل ونذوب دمعًا . ونتصور ونتوهم ونقرر .. وبعد ذلك وبسرعة تجف الدموع وتهدأ النفوس ونتخذ قرارًا معقولا ويكون هذا القرار نوعًا من الاعتذار لاندفاعاتنا السابقة ، أو خجلا من مزاجنا الهوائى .. ولكن كم مرة نلتزم بالعقل .. أوكم مرة نستدرك بالعقل ما قررناه بالجنون ! ليس كثيرًا . □

.. معتمدا على الشركات الطبية !

غضب الممثل العالمى شارلى شابلن (٨٣ سنة) عندما أعلنت إحدى المجلات أنه يتعاطى مقويات ، ثم غضب مرة أخرى عندما أعلنت إحدى الشركات الطبية أن شبابه وحيويته بسبب العقاقير التى أعدتها له ورفع أمره إلى القضاء واعتذرت الصحيفة والشركة الطبية .

ومعنى ذلك : أنه يريد أن يقول إنه قوى بلا مقويات . وإنه يمشى على رجليه هو وليس متساندًا على الفيتامينات والهرمونات ورحيق ملكات النحل .

ونشرت له المجلة الفرنسية حديثًا أقرب إلى الاعتذار إليه . قالت وماهو سر حيويتك . وكان . جوابه : أننى أنام مبكرًا وأصحو مبكرًا . (٩٠٪ من الفلاحين فى العالم يفعلون ذلك . وهم رغم ذلك يتمتعون بأكبر نسبة من الجوع والمرض والجهل .

وسألته الصحيفة : وروح المرح التى ماتزال تحتفظ بها فأجاب يرجع إلى أن زوجتى مرحة جدًّا والرجل مرآة لزوجته .

وهى تحية رقيقة لزوجته . ولا أظن أن هذا هو السبب الحقيقى ، فقد كان مرحًا ، ويبعث على الضحك قبل أن تولد زوجته بأربعين عامًا !

وكان لابد أن تسأله الصحيفة : لابد أنك تمارس بعض الألعاب الرياضية كل يوم وبانتظام ؟ وكان رده على ذلك ! أنه بالفعل يمشى كثيرًا حول الفيلا التى يسكنها وأن المشى هو رياضة الكسالى والباعة المتجولين وأنها أنسب نشاط لكل الذين تجاوزوا الخمسين من العمر . وهو ينصح أيضًا بتعاطى الخمور الجيدة . والاعتدال فى كل شىء .

وقد نشرت الصحف العالمية صورة له وقد هبط مطار لندن ، ولكنه هذه المرة كان يمشى على قدميه هو ولذلك كان يعرج .

ثم لم يستطع أن يقطع المسافة بين الطيارة والسيارة فحملوه على مقعد له عجلات . ولم يفت شارلى شابلن أن يقول لنفس الصحفى الذى قال إنه يتعاطى المقويات : الآن فقط أمشى معتمدًا على الشركات الطبية !

ومثل أب رفيق حنون قال له : عندما تكون فى مثل سنى سوف تكره كلمة الطب والأطباء وشركات الأدوية ! والمعنى : أنه اعترف بعد ست سنوات بأنه يتعاطى مقويات نادرة ! وهذا طبيعى ! □

الموت .. ثمنا للحياة !

هناك مثل عالمى يقول : دخلت ، يجب أن تفكر كيف تخرج أو معناه أنه يجب أن نحتاط .. أن تدخل برجلك – أى برجل واحدة وتظل الأخرى خارج الباب . أى يجب أن يكون لك عين فى الداخل وعين فى الخارج .. أو يجب أن تجلس إلى جوار الباب .. أى يجب أن يكون عقلك على لسانك .. وعقلك على قلبك .. وان تضع عدادا على كل حركة وكل إشارة وكل فكرة وكل خطوة تصدر عنك . والسبب فى هذا كله أن تضمن السلامة لنفسك ولجسمك ولعقلك ولحياتك . أى من أجل سلامتك يجب أن تتعذب كل هذا العذاب . وبعد أن تتعذب بسبب هذا كله تكون قد حققت لنفسك الأمن والامان والسلامة والسلام !

ولكن من هذا الذى يستطيع أن يكون بهذا الحرص والاحتراس .. من الذى لا يتعب من القيود فيمزقها ويتمزق بها ومعها . من الذى لا يترك لسانه يقول لأنه تعب من اعتقاله وراء أسنانه .. من الذى لا يلقى بنفسه على الأرض لأنه تعب من

المشى .. من الذى لا يسحق الأبواب لأنه لا يقوى على أن يراها مغلقة ولا يحب أن يراها مواربة .. من الذى يعد كل لقمة يأكلها وكل قطرة يشربها .. ومن الذى يمسك قلبه بأصابعه .. ويمسك عقله بأظافره .. من هذا القادر على أن يكون سجانًا لكل وظائفه .. من هذا الذى لا يشترى الصواب وعدم الخلط باعتقال نفسه فى داخل نفسه .. كل ذلك من أجل أن يكون على الصراط المستقيم .. أن يكون قريبًا من الصواب مستخدمًا أسلوبًا واحدًا هو ألا يخطىء وذلك بألا يفعل أى شىء !..

لا يقدر على ذلك غير الموتى .. فهم وحدهم الذين لا يعرفون الخطأ لأنهم لا يعرفون الصواب أما الأحياء فإنهم بطبعهم متطرفون .. لأن لهم أطرافًا يمدونها على آخرها .. اللسان على آخره .. واليد على آخرها .. والعين إلى أقصى مداها .. والأذن يركبون لها سماعات وتليفونات ..

والأحياء لا يعرفون الحلول الوسط .. لأن الحلول الوسط هى التى تقطع الوسط .. أما التطرف فهو الذى يريحهم – عادة – ولو كانت هذه الراحة الأبدية .. إنهم بشر .. ومن طبيعة البشر أن ينطلقوا مهما كان الثمن .. وكثيرًا ما دفعناه .. الموت ثمنًا للحياة .. لأية حياة . □

مطربة القوات المسلحة

قليلون جدًّا من يعرفون المطربة الإنجليزية فيرالين . إنهم يسمونها مطربة القوات المسلحة .

فقد كانت تغنى فى الإذاعة للجنود فى الحرب العالمية الثانية . وكانت مصدر السعادة للملايين ولا يوجد جندى أو ضابط إلا يذكر لها أغنية . ويربط هذه الأغنية بحادث سعيد أو أليم ثم أصبح سعيدًا فى حياته الشاقة . إن هذه المطربة كانت تقوم بعمل نبيل للقوات البريطانية وراء البحار .

ولا يكاد الجندى فى الملجأ أو على أو وراء أو تحت الدبابة أو فى الطائرة يستمع إلى برنامجها . « أطيب تحياتى » حتى تضىء الدنيا له . وحتى يلمس النصر على عدوه بيديه .. بفضل صوتها الساحر الصادق . وانتهت الحرب وتفرق الجنود فى كل بيت ، وكل واحد يضع إصبعه على جرح ويحاول أن ينسى ما كان .. ومع هذا النسيان اختفت مطربة القوات المسلحة .. فسافرت إلى أمريكا وراحت تغنى للذين يحبون القديم ويحنون إلى الوطن الإنجليزى . وفى أغنياتها موسيقى الجاز الجديدة . وفى

الستينات ظهرت موسيقى الروك اندرول . وبعد ذلك ظهرت الخنافس فى بريطانيا . ومنها إلى امريكا وأوربا بأكملها . وتغيرت أمزجة الناس . فلم تعد الأغنية ذلك اللحن الشعبى . إنما الأغنية أصبحت سريعة تحكى حكاية جميلة . ولم يعد بطل الأغنية عملاقًا يهد الجبال ويعبر المحيطات من أجل المحبوبة . إنما يجلسان على شاطىء نهر يرميان الماء بالظلط وتغرب الشمس ويشعر كل منهما بشىء من الخوف أن تغرب حياته دون أن يعانقها . فيعانقها ويجىء نسيم البحر يكشف عن ساق المحبوبة . ويشعران بالسعادة هما والعصافير والفراشات ويدوسان أوراق الخريف معًا ..!

وكان من الصعب عليها أن تعود إلى الإذاعة والتليفزيون . ولكن حدث شىء غريب فقد عادت مطربة القوات المسلحة إلى الميكروفون ، وأحس الرجال والصغار بكثير من الامتنان للسيدة التى أسعدت الرجال فى محنتهم . عادت بأداء جديد . وبروح خفيفة . واحتشد الجد والأب والحفيد يستمعون إلى المطربة فيرالين .. أما الجد فمعروف لماذا يستمع إليها وكذلك الابن . أما الحفيد فلأنه ابن العصر الحديث . وأبناء العصر الحديث أذواقهم أكثر مرونة وثقافاتهم الموسيقية أوسع .. وهم يستمعون إلى القديم والجديد جدًّا بنفس الحماسة .

ويشعرون لكل فنان جيد ، بنفس الدرجة من الامتنان .. وهذا هو الذوق السليم !.. □

آلة بشرية .. !

أول إنسان هبط على سطح القمر زعلان جدًّا . لأن حكومته قد فوتت عليه الدرجة ! هذا الرائد الأمريكى ادوين الرين (٤٠ سنة) ثانى إنسان هبط على سطح القمر ، وأخطأ فى النحو عندما نطق أول عبارة له على سطح القمر ، قرر أن يعتزل إدارة مدرسة رواد الفضاء . لأن حكومته انتهزت فرصة صعوده إلى السماء وهبوطه على سطح القمر وانشغال ثلاثة آلاف مليون نسمة بالنظر له والاستماع إليه ، وأعطت درجته العسكرية لضابط آخر على الأرض .. ولابد أن أول شىء عرفه عندما وصل إلى الأرض أنه بسبب تغيبه عن مكان عمله خارج الكرة الأرضية ، قد أعطيت درجته لواحد آخر لم يغب لحظة واحدة عن هذه الأرض . شىء مضحك أن يفكر إنسان دخل التاريخ وحقق هذا المجد الإنسانى الذى لا يمكن أن تحدده درجة أو كادر فى أن الحكومة لم تعطه مائة دولار علاوة شهرية .

مع أن الهدايا التى تلقاها من الشركات والجمعيات ووكالات الأنباء والسينمات

تقدر بملايين الدولارات .. ثم إن المجد الذى حققه لنفسه ولشعبه وللإنسانية لا يمكن أن يقدر بثمن !

طبعًا إلى جانب أن موقف حكومته سخيف ، ولا يمكن الدفاع عنه ! ولكن لابد أن رائد الفضاء هذا - وهم جميعًا كذلك - هم أناس ناقصو التركيب العقلى . لأنهم يتحولون إلى حيوانات مطيعة .

حيوانات قد تم تجريدها من إرادتها . وذلك عن طريق العقاقير الكيميائية التى تجعلهم يتصرفون كأنهم مغمى عليهم أو كأنهم منومون مغناطيسيًّا شهورًا وسنوات طويلة . وهذا ضرورى . فرائد الفضاء يجب ألا يفكر فى أى شىء إنما أن يطيع فقط . لأن العقول الالكترونية والخبراء قد أعدوا له كل شىء ومطلوب منه فقط أن يجيب عن أسئلتهم .. أى أن يكون آلة بشرية وسط ألوف الآلات الأخرى .

ولكن بعد أن توقف عن تعاطى العقاقير الكيماوية السحرية اكتشف الحقيقة التافهة - ولكنها حقيقة - ولذلك غضب لكرامته كإنسان ، ولم يسعد لمجده كحيوان .

ثم إن الوصول إلى القمر لا يكون إلا مرة واحدة ، وبعد ذلك يصبح شيئًا عاديًّا .. فهو أول إنسان فى العالم وهذا يكفى ! . □

دق الأجراس !

فوجئت فى أحد شوارع الجيزة بأن عددًا من الأطفال يطاردون فتاة لأنها نزلت من بيت « واحد » ويصفونها بأبشع الصفات . وهذه الفتاة لا ترد عليهم . ولكنها سعيدة بأن الأنظار قد التفتت إلى ما فوق الركبة من لحم يكاد يمزق الجوب أو يقفز من البلوزة .

وهذا شيء عجيب جدًّا . مثلا أذكر أننى رأيت ذلك منذ كنت طفلا فى ريف المنصورة .. وكان من المألوف فى ذلك الوقت أن نجد عددًا من الأطفال يقومون « بتجريس » رجل أو امرأة– والتجريس والجرسة معناها : دق الأجراس ولفت النظر إلى شخص اعتدى على القوانين الأخلاقية . فالتجريس هو الفضيحة أو هو الانتقام الجماعى ضد أى شخص .

والتجريس عادة قديمة جدًّا .. عمرها ألوف السنين . ولابد أن الإنسان القديم كان يؤمن بأن من يخالف الأخلاق أو الدين سوف يؤدى إلى خراب البيوت وكساد التجارة وبوار الأرض المزروعة ، ولذلك لابد من استنكاره وفضحه وطرده .

الناس من الوف السنين يدفعون الأجراس أو يدقون آنية الطعام بالحديد أو بالشوك والسكاكين. ويطردون أعداء المجتمع. أو يصنعون لهم نماذج من الورق أو الخشب.. ويفضحونهم حتى يتركوا القرية أو المدينة وبذلك لا تحل بهم اللعنة أو غضب السماء!

ومن الغريب أن آخر حادث «تجريس» سمع عنه العالم كان فى سنة ١٩٥٨ فى قرية قديمة قريبة من مدينة أكسفورد ببريطانيا. فقد اعتدى طفل على طفلة بالقرية. وجاء أبو الطفلة وظل يضرب الطفل حتى أسقطه على الأرض. وعلى إثر ذلك أصيب الطفل بالتهاب رئوى. ولجأت أم الطفل إلى القضاء. ولم ينصفها القضاء ولم يسترح أهل القرية. وتقول «دائرة المعارف للخرافات»: إن أهل القرينة قاموا بتجريس الطفلة ووالدها.. وظلوا يدقون الأجراس والطبول حول بيت الرجل وأمام الكنيسة وفى الشوارع العامة حتى فضحوا الرجل. واضطر الرجل إلى أن يترك القرية نهائيًّا. واستراحت القرية كلها فقد انتقمت لنفسها. وتحقق العدل..

ثم اختفت هذه العادة لتظهر فى الجيزة. وسوف تختفى نهائيًا لأن أحدًا لم يعد يخجل من شىء. ولذلك لا فضيحة! □

على نار هادئة !

جلالة

الإمبراطور هيلاسلاسى .. لا نظير لما فعلته له الرياضة والنظام فى الأكل والشرب والنوم المبكر والمشى ساعتين كل يوم . فقد رأيت جلالة الإمبراطور فى مصر أكثر من مرة .. ولكنى رأيته أقرب وأوضح عندما كنت فى إيران . فقد كان وراء كلبه الصغير ، يمشى فى مدينة الخيام . والآن أصف الإمبراطور من الذاكرة : أميل إلى القصر . نحيف يزن ٦٣ كيلو جرامًا بالضبط . مشدود القامة . مرفوع الرأس . يخرج اللمعان من عينيه بحساب . وتخرج المعانى من رأسه حسب الطلب .

أى أنه رجل قرر ألا يبدد فى طاقته . إنما أن ينفق منها حسب احتياجاته والذين جلسوا إليه وجدوه لا ينفعل . لأن الانفعال معناه : إعطاء المعانى أكثر مما تحتاج من الحماسة . أو بعبارة أخرى رفع درجة الحرارة بما يفسد الطعام الفكرى .. فهو يخشى على أفكاره أن « تشيط » .. ولذلك فأفكاره وأقواله وانفعالاته موضوعة بإحكام على نار هادئة !

وفى الخرطوم رأيت الإمبراطور من بعيد .. لم ألاحظ أى اختلاف عن صورته من عشر سنين .. والذين رأوه من عشرين سنة يقولون إنه ازداد شبابًا .. وهو حاكم وعنده مشاكل . والحكم والسلطة تهد الجبل وتقطع النفس وتقصر العمر فكيف تحققت هذه المعجزة ؟.

اختلفت الآراء .. ولكن الآراء المعقولة هى : الاعتدال فكان معتدلا فى كل احتياجاته .. ولديه فرامل على قدرته . وضوابط على طاقته وليس أصعب من أن يكون الإنسان معتدلا فى الامتناع عن أى شىء ، خصوصًا إذا كان الإنسان امبراطورًا . ولكنه استطاع ذلك . فاستقام عوده وارتفع رأسه .. وطال عمره !

ليتهم سرقوا الهرم !

نحن غير آسفين طبعًا على أن كل متاحف العالم قد امتلأت بالآثار المصرية القديمة . متاحف لندن وباريس ونيويورك وموسكو . وكذلك ميادين لندن وباريس و الفاتيكان . فهذه الآثار المصرية القديمة تلقى ما تستحقه من العناية . معروضة فى أماكن رائعة وأمام الملايين .. وقد نشرت فى ألوف الكتب وطبعت على ملايين البطاقات وطوابع البريد ، ولا أحد يدعى أنها غير مصرية . إنما هى مصرية انتقلت عبر البحار إلى هذه الأماكن . كيف نقلت ؟ لابد أنها قصة مسلية . هل سرقوها ؟ سرقوها واحترموها وغمروها بالنور ولفوا حولها قلوب الناس وعلقوا فيها عيونهم . وهى هناك غريبة عن أرضها ، ولكنها أكثر احترامًا .

ولابد أن ملكة بريطانيا وهى تفتتح معرض توت عنخ آمون بآثاره الخمسين وبمناسبة مرور خمسين عامًا على اكتشاف الإنجليز له فى مصر ، قد قرأت عن الملك الشاب وعن عصره وعن زواجه وعن وفاته أو مقتله .. ولابد أن الصحف العالمية

قد هيأت ملايين الناس فى القارات الخمس إلى هذا اللقاء التاريخى . وكذلك التليفزيون والإذاعة والسينما وشركات السياحة ودور الأزياء وصناعة أدوات التجميل .. كل العالم يعرف وسوف يعرف أكثر عن هذا الملك الشاب الذى ليست له أية مزايا تاريخية غير أن مقبرته قد نجت من اللصوص .

والذين كانوا يتفرجون عليه من الناس سوف يعرفون أن كل العادات والتقاليد الحديثة قد سبقهم إليها هذا الملك وزوجته ومعاصروه . فالمرأة كانت ترتدى الفساتين الواسعة إلى ماتحت الركبة ، والشفافة والمتعددة الكسرات من الأمام ومن الخلف ، وكانت تضع الباروكة ، وكانت تصبغ شعرها وكانت تضع الأبيض والأخضر على الخدود والشفاه وكانت تضع الرميل فى العينين وكانت تضع « ألوان الأساس » تحت العين ، وكانت تضع الكريمات على البشرة ، وفى مقبرة توت عنخ آمون توجد جوانتيات ومراوح . وكان يضع هو أيضًا وزوجته كذلك المانيكير والبديكير

وإذا كانت ملكة إنجلترا قد خلعت حذاءها ذا الكعب العالى حتى تتمكن من الوقوف طويلا أمام كل المعروضات فقد كان من عادة أمراء مصر أن يخلعوا أحذيتهم أمام الملوك ليكونوا أقصر من الملك .. وأما طوال القامة من الأمراء فكانوا ينحنون أو يركعون ليظل الملك أعلى قامة وأشمخ رأسا فالذى تفعله الملكة هو عادة فرعونية أيضًا ..

إن الذين سرقوا آثارنا ، نقلوها من الظلام إلى الاحترام ، ومن نور شمس مصر إلى نور السينمات والتليفزيون . ألا ليتهم يسرقون الهرم أيضًا ! □

قضية حيوية !

من الطبيعى أن أختلف معك . لأننا مختلفان . وقد أفلح فى إقناعك . وقد أفشل . فليس من السهل أن أفرض رأيى عليك . وليس من السهل أن تقبل رأى الآخرين .. أو أن تتقبل الهزيمة من الآخرين وتكون سعيدًا كأنك انتصرت .. قليلون فى الدنيا من عندهم هذه الروح السمحة والأفق العريض والتواضع أمام الحقيقة ، ومن المؤكد أنه لا أنت ولا أنا من هذا الطراز النادر من الناس !

ولكن هناك بعض القضايا الحيوية .. قضايا الإنسان . قضايا الشعب . ويمكن الخلاف عليها . هذا طبيعى أيضًا . فنحن أيضًا مختلفون . درجة حرارتنا ليست واحدة بدرجات متساوية . وهناك اجتهادات كثيرة بين القضايا السياسية والاقتصادية وبين القضايا الوطنية التى هى أكثر وأعقد .

واختلافنا ممكن . واتساع هوة الخلاف ممكنة أيضًا . وإذا كانت هناك هوة تباعدت المسافة بيننا وإذا تباعدت الأرض تحت أقدامنا ابتعدت قلوبنا وعقولنا .

وفجأة وجدنا أنفسنا صفين متواجهين أو متضادين كأننا عدوان أو كأننا معسكران . كل هذا ممكن . وفى هذه الحالة – مع الأسف يكون كلامنا هكذا : أنا وهو .. أنا وطنى .. وهو ليس وطنيًّا .. أنا مصرى وهو ليس مصريًّا .

وتصبح قضيتنا بالضبط هى : أنا .. وهو .. مشاكل الـ (أنا) .. ومصائب الـ (هو) .. ومن الممكن أن تصبح هذه العبارات لها طعم النار والشرار ...

وننسى شيئًا أهم من ذلك .. ننسى (نحن) ننسى قضية الحياة كلها .. ننسى واجب الحفاظ على (نحن) وكل ما يتعلق بأرضنا وعرضنا وتاريخنا نحن .

إن (نحن) أهم بكثير جدًّا من (أنا) و (هو) ويوم نعرف أن (أنا) و (هو) طريق وممر إلى (نحن) سوف نرتفع من تحت الأنقاض .. أنقاضنا لكى نبنى مصر التى يجب أن نقيمها علينا وبنا ومن أجل (هم) أى الأجيال القادمة . □

التعساء على القمة !

لكى تعرف معنى أن تكون حاكمًا . انظر إلى الصور التى تنشرها صحف العالم لهؤلاء الحكام . ما الذى تراه ؟ لا يمكن أن ترى إلا الهم والغم والتعب والأرق . وإذا كنت ترى بعض الصور الضاحكة ، فالإنسان يضحك أحيانًا ، والممثلون يضحكون عندما يواجهون الجماهير ويضحكون مهما كانت المسرحية التى يؤدونها مؤلمة . والضحك معناه : شعور بالامتنان لاهتمام الناس . ثم معناه أيضًا أن الحاكم يريد أن يطمئن المحكوم على أنه فى صحة جيدة . وأنه عند حسن ظنه . وأنه قادر على أن يحمل المزيد من الأعباء ..

ولكن الحاكم عندما يعود إلى فراشه ويسحب الغطاء على جسده ، فإنه لا يستطيع أن يسحب الهموم فى الاتجاه الآخر : فتتكوم تحت قدميه ثم يضربها كالكرة بعيدًا عنه حتى الصباح .

يقول الدكتور موراى طبيب تشرشل الخاص : إن الزعيم البريطانى كان يئن بصوت مرتفع . وكنت أشعر أمامه بالضعف ، فأنا أعرف أعباءه ولكن إذا اقترب

أحد من باب الغرفة كان تشرشل يتوقف عن الأنين فورًا . وبقدرة نادرة تتغير معالمه . ولا أعرف من أين يأتى بهذه النضارة المفاجئة وبهذه الابتسامة العريضة على جبينه ، وبهذه الصلابة والتصميم فى شفتيه .. فإذا أحس أن أحدا لم يقترب من الباب عاد بنفس السرعة إلى التأوه !

والذى قاله الدكتور موراى عن مريضه العظيم يصدق على كل من يحمل هموم الحكم مثل تشرشل فى أى بلد .. إن الحكام ليسوا سعداء ، كما يتصور المحكومون . إنهم فوق . هذا صحيح . ولكن ما الذى يجرى فوق ، وما الذى يرونه ، وما الذى يسمعونه وما الذى يجلسون عليه وينامون فوقه . ويتوجعون منه !..

إن آلهة الأوليمب كانوا يجلسون فى قمم الجبال ، فإذا تعبوا من الحياة فوق حولوا أنفسهم إلى بشر ، وإذا تعبوا من البشر حولوا أنفسهم إلى حيوانات ، ونباتات ، وسحب وجبال وحيتان .. إنهم يتنقلون بين أشكال الحياة المختلفة . ولكن البشر الذين يجلسون فوق ولا يستطيعون إلا أن يكونوا بشرًا معذبين ، فما أتعسهم وما أشقاهم بالناس !

وما أقل أن يذكر الناس ذلك ! □

آه من البطيخ !

نحن الآن فى موسم « المصران الغليظ » أى الموسم الذى يصاب فيه الناس بأوجاع وتقلصات فى المصران الغليظ إذا لم تكن لهم سابق معرفة بمثل هذه المتاعب . أما المصابون بالمصران الغليظ – مثلى – من قديم الزمان ، فسوف تزداد متاعبهم بإذن الله فنحن الآن فى موسم البطيخ وهو أعدى أعداء المصران .

وكلما كان البطيخ مثلجًا كان أثره فى المصران مثل عصير جهنم . بل إن البطيخ بأليافه الباردة المتينة سيكون كالحبل الذى التف حول زوجة أبى لهب – كما وصفه القرآن الكريم « فى جيدها حبل من مسد » ..

فألياف البطيخ تتحول إلى حبال تدور وتلف وتتلوى مع الوقت فى داخل الأمعاء وتحتك بها وتلهبها حتى تصبح فى لون البطيخ تمامًا . ولما كان البطيخ لا نأكله عادة إلا مع الجبنة . فإن أملاح الجبنة يكون لها أثر أقسى من لهيب البطيخ . وكثيرًا ما أدت برودة البطيخ وأملاح الجبنة وغيرها من المأكولات الأخرى

إلى الإمساك . والإمساك هو العدو رقم ٢ للمصران الغليظ . ومع الإمساك يجىء الصداع . والصداع له علاج واحد نتوهمه هو القهوة خصوصًا عندما يكون الفنجان من البن الأسود الثقيل - أى له وجه ثقيل - فعلا المنظر جميل والطعم أجمل . ولكن إذا انتقل البن - أى رواسب البن - إلى المصران ، فإنه يكون مثل الأسمنت قد أضيف إلى الرمل والجير . وعليك أن تتصور مادا يحدث داخل المصران الغليظ . الذى يحدث شىء يمكن أن يوصف بأنه تصلب .. أو خازوق من الأسمنت المسلح . أما علاجه فموضوع آخر . والعلاج عادة يكون أقسى والنتيجة مؤلمة . فأى تحريك لهذه الأسياخ الحديدية يؤلم المصران ويلهبه - وأنا لا أدعى العلم ولا أنتحل صفة ليست لى . ولكن صاحب تجربة طويلة . وفى استطاعة أى إنسان أن يعانيها ، وسوف يشكو منها الكثير فى موسم البطيخ والشمام .

ومهما كانت آلام البطيخ عنيفة ، فإنها تعتبر مرحلة تمهيدية تجريبية إلى أن تظهر المانجو - وهى أقصى درجات الألم ..

ملحوظة : لم أشأ أنى أذكر التين الشوكى أو الجوافة أو الملوخية ، لأنها أسماء لحالات متطورة جدًّا من العذاب .. □

المعدة بيت الداء !

كيف تشعر بأنك فى العشرين وأنت فى الأربعين ؟ كيف تشعر بأن قلبك نظيف مع أنك تعب السجائر والهباب والتراب فى كل مكان تذهب إليه ؟ كيف تنهض من النوم مستريحًا كأنك خلقت اليوم وأمس أو أول أمس ؟. كيف تبيت وتصحو مستريح الضمير ، كأنك بلا خطيئة ؟

طبعًا أستطيع أن أستطرد فى أسئلة بهذا المعنى إلى نهاية الصفحة . وكلها أسئلة تدل على أمانى وأحلام ملايين الناس . وهى لذلك تلفت كل عين وتهز كل قلب . ومن أجل الإجابة عن مثل هذه الأسئلة نزلت كل الديانات واجتهدت كل العقول ، وأنشئت المستشفيات والأندية الرياضية وأقيمت الحدائق وبنيت السينمات والمسارح والملاهى .. فمن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة استخدم الإنسان عبقريته الدينية والفنية والعلمية .

ولكن أحد أطباء التجميل والتغذية هو الذى سوف يتولى الإجابة عن هذه الأسئلة . هذا الطبيب شعاره الجمال عن طريق المعدة . أو المعدة بيت الدواء والداء

أيضًا . هذا الطبيب اسمه د . جونساندرسن وهو من أصل دنمركى . يقول فى كتاب بعنوان : كله فى معدتك - أى أن كل مصائب الدنيا من معدتك وهى طريق معدتك - وقديمًا قالوا : المعدة بيت الداء ..

هذه الطبيب يطلب إلى القارىء أولا أن يكون مطيعًا له وأن يثق فى هذا الطبيب الذى حصل على عدد كبير من المؤهلات العلمية والجوائز الأدبية والذى يقرأ كتبه ملايين الناس فى عشرين لغة . ويقول أيضًا يجب أن تكون صبورًا عليه .. ويتعمد المؤلف أن يجعل المقدمة طويلة جدًّا . وهذا الطول هو امتحان لصبر القارىء . ثم هو ينبهه إلى ذلك ويسأله إن كان قد صبر على هذه المقدمة التى يقول فيها المؤلف كلامًا معروفًا معادًا .

ولكن بعد المقدمة يجد القارىء معلومات بسيطة سهلة مفيدة ومجدية أيضًا

مثلا : كوب شاى واحد فى الصباح ولقمة عيش جاف تكفى جدًّا . ثم كوب شاى آخر قبل الغداء بساعة .

والغداء : ثلاث ملاعق من الأرز وطبق سلطة صغير وحبة فاكهة . وأنت حر تأكل اللحم أو لا تأكله .

والعشاء مثل الغداء تمامًا بشرط أن يكون مبكرًا وأن يكون النوم مبكرًا

ويرى أنه لا مانع من أن يسهر الإنسان مرتين فى الأسبوع ..

كلام عادى جدًّا . يستطيع أن يقوله أى انسان دون أن يحمل هذا العدد من المؤهلات العلمية .. ولكن تفسير الدكتور ساندرسن لذلك هو الجديد .

والمعنى العام : أحسن شىء أن تكون خفيف الجسم ، خفيف الروح وأن تصبر على هذه القواعد السهلة . أما المؤلف فعنده عشرات المئات من الناس يمشون على هذه القواعد وفى صحة جيدة جدًّا ولذلك استراحت عقولهم وضمائرهم أيضًا .. □

المرارة مفقوعة !

بسهولة تمكن معرفة عدد الذين انتحروا فى أى بلد . وتمكن أيضًا معرفة أسباب الانتحار ويمكن أن يقال إن عدد المنتحرين فى القاهرة أكثر من عدد المنتحرين فى المنصورة والمنصورة أكثر من سوهاج .

ولكن الذى يصعب أن تقوله هو : كم عدد الذين مرضوا حتى الموت بسبب أنهم يعيشون فى القاهرة ، فكم من الناس تعبت أعصابهم وانهارت وراء الأعصاب أعضاؤهم وعددهم .

لا أحد يستطيع أن يحصى عدد الذين يتناولون المهدئات لأن أعصابهم مرهقة ولأن النوم عزيز المنال ولأن الدم يغلى فى عروقهم ولأن الغدة فوق الكلية لا تكف عن إفراز الأدرنالين

ولا أحد يعرف عدد الذين يتناولون الحبوب المنبهة لأن الكبد كسلان ولأن المرارة « مفقوعة » .

كل شىء يبدأ عادة بالتعب . أى بشعور الإنسان بأنه تعبان سواء كان تعبًا

جسميًّا أو نفسيًّا أو أنه يتوهم ذلك يكفى أن تقوم من النوم وكأنك لم تنم ، ويكفى أن تجلس وكأنك واقف على رجليك ليلا ونهارًا . يكفى أن تشعر أنك لم تنل نصيبك من أى شىء .. لا من راحة الجسم ولا راحة النفس . ثم إن هذا الشعور نفسه يضاعف من تعبك ويجعلك عصبيًّا أو يجعلك عاجزًا عن عمل أى شىء يجعلك عاجزًا عن التفكير وبعد ذلك عاجزًا عن التدبير..

هل تعرف كيف يمشى الإنسان فى الزحام ؟ إنه يخبط هذا ويخبطه ذاك ويدوس ويداس ويرتبك ثم يربك غيره .. إن صورة الإنسان فى زحام الناس هى صورة بارزة لما يفعله الإنسان وسط الزحام ، المنبهات والمنومات وزحام المخاوف والقلق والفزع واليأس والفشل والغيظ والأمل واليأس ، إن هذا الزحام الشديد من كل الأصوات والألوان والناس يجعله عاجزًا بالفعل عن أى فعل وكل شىء .. وفى نفس الوقت يجب أن يكون شيئًا وأن يقول شيئًا وأن يقرر شيئًا .

هذه هى الحياة أو هذه صورة للانتحار اليومى وهذه الصورة تتكرر بعدد الناس ومع ذلك لا نقول إننا موتى ولا نقول إننا ننتحر يوميًّا .

فإذا كانت هذه هى الحياة فأين الانتحار وإذا كان هذا هو الانتحار اليومى فما هو الموت .. إن حياتنا الآن هى كل هذا .. ولذلك فهى ليست حياة ولا موتًا .. وإنما هى أسوأ ما فى الاثنين . □

على لسان الأستاذ ؟ !

نشرت « أخبار اليوم » فى صفحتها الأول أن أستاذًا جامعيًّا نسب رجلا وزوجته فأقاما على الأستاذ الجامعى جنحة مباشرة لأنه وجه إليهما ألفاظًا جارحة يعاقب عليها القانون وشهد سكان العمارة ضد الأستاذ الجامعى وطلب المحامى معاقبة الأستاذ الجامعى والحكم بالتعويض المدنى ضده واعترف أستاذ الجامعة بأنه شتم الرجل وزوجته وحكمت المحكمة ببراءة الأستاذ الجامعى لأن مثل هذه الألفاظ التى تفوه بها لم تعد تخدش حياء أحد لأنها منتشرة فى كل مكان .

وبالسؤال عرفت أن الأستاذ فى جامعة الأزهر وأن سبب ضيق الأستاذ أنه صاحب عمارة فى الجيزة وأن الرجل وزوجته ذهبا إليه يدفعان الإيجار بعد التخفيض القانونى فما كان من أستاذ جامعة الأزهر إلا أن شتم الرجل وزوجته على مسمع من آخرين . ومن بين الشتائم : أن الاثنين معًا يتصفان بالقذارة والوساخة .. ثم قال للزوجة يا « شر .. »

وحكمت المحكمة بأن هذه اللفظة وغيرها أصبحت مألوفة بين الناس جميعًا لدرجة أنها لا تخدش حياء ولم تعد نوعًا من الشتيمة .

إذن فما هى الشتائم التى يعاقب عليها القانون ؟

لم تعد هناك شتائم يعاقب عليها القانون وإنما كل صفة يمكن أن يلقى بها الإنسان على إنسان وهو آمن .. الشاب للشابة .. وأى رجل لأية امرأة لسبب ولغير سبب .. على مسمع من الناس أو على مرأى منهم ففى استطاعة أى إنسان أيضًا ان يعلق لافته ويقول فيها إن فلانًا من الناس هو وأمه وأبوه والذين خلفوه كلهم من الشر .. إلى آخره ولا خوف عليه من شىء .

وكنت أتصور أن هذه الكلمات من الممكن أن يجدها الإنسان فى بار أوكباريه – مع أن هذه الألفاظ من الصعب أن تجدها فى هذه الأماكن – وإذا وجد من يقولها فعذره أنه قد شرب وأنه فقد وعيه .. أو من الممكن أن يسمعها من يزور مستشفى الأمراض العقلية لأن نزلاء المستشفى لا يصح أن يحاسبهم أحد على مايقولون .. وليس من العقل أن يحاسب العاقل مجنونًا على ما يقول .

ولكن إذا كان الأستاذ الجامعى يفعل ذلك فما هى الصفات التى تعلمها وما هو الدور الذى يمكن أن يؤديه أستاذًا ومثلا أعلى ونموذجًا لضبط النفس – أى نموذجًا حضاريًّا .

كنت أفهم أن أعنى مخبولا من أن يقول مثلا مثل هذه الألفاظ النابية ولا أعنى أستاذًا ومربيًّا – فاضلا – من أن يتفوه بأهون الكلمات .

ما الذى بقى فينا لكى نحرص عليه .. ومن الذى يحرص على بقايانا .. الأخلاقية والدينية والتربوية والوطنية . □

.. وتمت أقوالى !

في الأيام الأخيرة ارتدت صيدليات القاهرة أبحث عن حبوب منومة . لم أجد الحبوب التى تريحنى . ففى الاسواق حبوب تصيب الرأس بالصداع .. وربما كان ذلك لحكمة فالرأس عندما يتصدع - أو ينفلق نصفين - قد يسقط الأرق من بينهما .. وفى هذه الحالة يجد الإنسان نفسه غارقًا فى النوم .

وأول مرة تناولت الأقراص الموجودة وهذا المعنى فى رأسى .. وأخذت الحبوب وانفلق رأسى فعلا . ولم يسقط الأرق بين النصفين وإنما ظل النوم محبوسًا مخنوقًا وأنا أيضًا .. وأحاول أن أنام على هذا الجانب والجانب الآخر .. لعلنى أنقذ النوم من بين شقى الرأس ، ولكن لا أمل وسمعت المذيع يتحدث عن ألوان وأنواع الأرق - وضحكت فقد عرفت كل هذه الأنوع وجربتها وتحايلت عليها وكنت قد نسيتها وراح المذيع يذكر اسم عدد من الأدباء الكبار وكيف كانوا يتحايلون على النوم ثم لا يجئ ، ولكن هذه الحيل عرفتها وجربتها وأضفت إليها - بكل تواضع - حيلا

أخرى ولكن النوم لا يجيء . وأصبحت حيلى مثل المبيدات الحشرية التى اعتادت عليها الحشرات .. وتحولت المبيدات إلى « غذاء ملكى » لهذه الحشرات يجعلها تقوى وتكبر وأتضاءل أمامها ولا أصبح إلا أشلاءها .

ونصحنى واحد من هواة الطب – وما أكثرهم – أن أتناول شيئًا جديدًا اسمه (كالسيوم ساندوستين) ولم أكن قد جربت هذا المشروب ولكنه أكد لى أنه من حين إلى حين يستخدمه وأتيت بهذا الدواء الذى يعطونه للأطفال إذا كانت عندهم حساسية – ومن معلوماتى الأوليه أعرف أن كل أدوية الحساسية مهدئة وأحيانًا منومة .

وقد تناولت ثلاث ملاعق كبيرة من هذا المشروب . ويسرنى أن أضيف إلى معلومات الأطباء وهواة الطب الذين لم تسبق لهم هذه التجربة بعض إحساساتى عقب تناول هذا الدواء المسكن المنوم بلحظات . لاحظت أننى فى مرحلة لا هى نوم ولا هى يقظة . وأننى أرى أشياء غريبة وأننى – وهذه الحقيقة – أحسست كأننى مربوط بحبل من نار . فوق بحيرة ملتهبة ثم انقطع الحبل . وفزعت لانقطاع الحبل ولكنى حمدت الله أننى لم أقع فى النار . وأحسست أيضًا أننى أمشى على المسامير الساخنة .. وأننى أعمل فى المطافىء وأننى أمسك خرطومًا طويلا ، ومن الغريب أن النار تخرج من الخرطوم لكى تنطفىء فى الماء الذى ينزل من أحد أسطح البيوت وأننى بعثت يوم القيامة وأننى طلبت من أى أحد أن يحاسبنى .. ولكن الجميع تجاهلوننى ولما وجدت أنهم تجاهلوننى أدركت أننى أحلم فانزعجت وصحوت وتمت أقوالى ومضيت . □

هذه الساعة .. بلا معنى !

أمضيت يومًا كاملا فى الكويت أبحث عن ساعة جيب .. ووجدت الساعة شكلها جميل ورقيقة ورخيصة الثمن جدًّا : ثلاثة جنيهات . ولكن الذى يرى وجهها السمح وحروفها الواضحة ولونها الذهبى الفاتح يبالغ فى ثمنها ولكنها أعجبتنى وقررت بعد ذلك ألا أضع ساعة فى يدى وتساءلت ولكن : لماذا ؟ .

وجدت أن ساعة اليد تضايقنى . قيد على ذراعى وثقيلة أيضًا . وفى كثير من الأحيان لا أطيقها .. لا أطيقها كساعة ولا أطيقها كقيد – وليست القيود فى حياتنا قليلة حتى نضيف إليها قيدًا آخر مهما كان شكله ومهما كانت الماركة السويسرية التى تحملها .

ولم أنزعج لهذا الضيق المفاجىء – وأنا قد تحررت من قيود أخرى هينة . مثل الكرافتة ومثل الحزام ورباط الجزمة ومثل القمصان المقفلة وهى كلها قيود ظاهرة أو ظاهرية ، ولكننى فى داخلى أحرص على عشرات من القيود الأخرى وكلها مرتبطة

بالساعة .. أو بالزمن فأنا لا أنظر إلى أية ساعة ولا أستخدم أى منبه عند النوم أو عند اليقظة ، فى الساعة الخامسة والنصف من كل يوم من أكثر ثلاثين عامًا أصحو مرة واحدة . يعنى : افتح عينى وبعد لحظات أجلس ، وبعد لحظات أكون قد شربت الشاى وجلست إلى مكتبى . وكل هذا يتم دون تفكير أو تدبير منى ، ففى داخل جسمى ساعة لها عقارب لا تغفل ولا تنام إلا إذا أيقظتنى وقتلت النوم فى عينى وقضت على كل أمل آخر فى أن أنام .. وحاولت كثيرًا – وإن كنت فقدت الأمل تمامًا –فى أن أصحو بعد الخامسة والنصف من صباح أى يوم . ولكن عقارب الساعة التى فى داخلى قد حشدت سمومها عند هذه الساعة من الصباح المبكر .

ولابد أن رغبتى فى أن أضع الساعة فى جيبى هى خطوة أولى نحو الاستغناء عنها . فأنا أتحرك فى مواعيد منتظمة دون نظر إلى الساعة . وعندما أحتاج إلى الساعة فلكى أضبط موعدًا مع صديق أو زميل ومن النادر أن يحرص أحد على مواعيده . فالساعة – إذن – لا ضرورة لها لكى أضبط مواعيدى أو مواعيدى مع أحد .

ولو حاسبت نفسك عن ضرورة هذه الساعة فى يدك صاحيًا أو نائمًا لوجدت أنها فعلا دبلة أو حزام يدق ويدوخ فى قفص من زجاج فضى أو ذهبى بلا معنى . □

أم كلثوم : كل الفن !

أسهل تعريف للأغنية القصيرة : هو أنها التى تستغرق وقتًا قصيرًا .. وقد حاول كل المطربين ذلك منذ أقدم العصور ، ولكن تتحول الأغنية القصيرة إلى طويلة إذا راح المطرب يكرر ويعيد ويزيد بناء على طلب الجمهور ..

ولا توجد أغنية واحدة لأم كلثوم مثلا لا يمكن أن تغنيها فى عشر دقائق أو ربع ساعة ، ولكن جمهور أم كلثوم اعتاد على أن يأخذ راحته فى الاستماع المتأنى بها وبأدائها الجميل . ولذلك طالت أغنيات أم كلثوم ساعة وساعتين ..

وقد حاولت بعض المطربات أن يكون لهن عند الجمهور هذا الحق : أى الحق فى تطويل الأغنية من عشر دقائق الى نصف ساعة ، واعطاهن الجمهور هذا الحق ، فغنت كثيرات نصف ساعة واكثر . بل ان بعض المطربات حاولن البقاء على المسرح ساعة وأكثر . وبقين وصفق لهن الجمهور . فما معنى ذلك ؟

معناه أن هناك رغبة مشتركة بين المطربة وبين جمهورها فى أن تغنى فترة أطول ،

ويكون هذا الطول بأغنية واحدة أو عدة أغنيات .. فالغناء الطويل مطلوب من الجميع سواء كان الذى تؤديه المطربة أغنية واحدة أو اغنيتين فقط مثل أم كلثوم أو أربع اغنيات فى ليلة واحدة مثل صباح أو أوبريت غنائية تستغرق سهرة طويلة مثل فيروز ..

فالغناء الطويل مطلوب ومحبوب ..

ولكن الخلاف هو فى مقدرة المطربة على الأداء .. وفى مدى تقبل الناس لذلك .. ولا تزال أم كلثوم هى وحدها التى استطاعت أن تغنى طويلا وأن ينتظر منها الناس ذلك . فقد اعتادوا على الاستماع والاستمتاع بها ، واعتادت هى أيضًا على أن تحقق لهم المتعة الطويلة ..

والخبرة المصرية تدل على أن الجمهور لا يستريح إلى أن يستمع فى ليلة واحدة إلى أغنيات كثيرة متنوعة .. صحيح أن الجمهور يستريح إلى التنويع .. ولكن ليس إلى التنويع الشديد .. إنه يحب أن يغير مقعده ، ولكن يجب ألا يظل طوال الليل ينتقل من مقعد إلى مقعد إنه يعرف القلق ، ولكنه لا يفضل عندما يستريح أن يكون العلاج قلقًا موسيقيًّا .. إن الأغنيات إذا استراحت أراحت وهذه هى الغاية من كل فن .. □

الشعور بالقداسة : ممكن !

سألت

هل من الضرورى أن أرتدى قميصًا وكرافته لمشاهدة الأوبرا فى ميونيخ ؟..

وكان الجواب : ليس من الضرورى

- كيف ؟

يجب ألا تكون الملابس قيدًا على حريات الناس ، وبين الناس شبان لا يملكون هذه الملابس . ثم إن المسارح يجب ألا تكون عبئًا على عواطف الناس وقدراتهم المالية . خصوصًا الشبان ..

والله كلام معقول . ولكننا عندما نطالب الناس بأن يحترموا المسارح فإننا نطلب إليهم أن يبدأوا فى الاستعداد لهذا الاحترام قبل أن يخرجوا من بيوتهم . فتكون ملابسهم نظيفة . وأن يستشعروا القداسة كأنهم فى طريقهم إلى أماكن الصلاة .

ولكن يظهر أن هذا الشعور بالقداسة قد أصبح ممكنًا فى بلاد أخرى دون حاجة إلى ارتداء زى من نوع معين . فالاحترام موجود . والحرية مطلقة فى أن يرتدى

الإنسان مايعجبه . ولذلك طالت الفساتين وتعلقت من الخصور ، وتعرت الصدور والظهور . وضاقت البنطلونات وانفتحت القمصان . كل واحد يرتدى ما يعجبه . فليس الزى شيئًا مهمًّا ، ولكن المهم هو أن يستمتع الجميع ، وأن يحترم كل إنسان حق كل إنسان آخر فى المتعة .

فلا أحد يدخن فى المسرح – هذا مستحيل – ولا أحد يتحدث مع أحد . ولا أحد يأكل أو يشرب فى داخل المسرح – لا أحد يعرف اللب والسودانى وكوكا وبيبسى .. إلخ ..

ولا أحد ينبه أحدا إلى شىء من ذلك ، فالجميع يعرفون ماهو واجب . ولا يمكن كل هؤلاء الناس الذين امتلأت بهم المقاعد والذين يدخنون لا يسعلون – هذا مستحيل أيضًا . ولكن كل واحد قد أمسك نفسه وسحب أنفاسه باحتراس . ولو تصادف أن واحدًا قد اشتد به السعال ، فإنه يخرج فورًا حتى لا يضايق الموجودين – ومستحيل أن تصحب أم طفلها معها .. والباقى تعرفه .. ولا أن يخرج واحد من جيبه راديو صغيرًا ليكمل الاستماع إلى أم كلثوم أثناء مشاهدة إحدى المسرحيات ..

أما الحريات فى داخل المسارح فقد سبقنا العالم كله إليها : حرية الخروج على النص – بالنسبة للمثلين المصابين « بارتجال » فى المخ .. وحرية ارتداء أى نوع من الملابس للرأس والقدم .. وحرية أخرى هى انتقاء ما يعجبنا من الأنواع التى تطرقع من اللب ، أو السودانى أثناء مشاهدة أية مسرحية فى أى مكان .. □

القوى الخفية !

صحيح أننى مشغول بألغاز النفس الإنسانية .. ومايدور ومايظهر فجأة وما يختفى وما يلتوى فى داخلها .. ولست وحدى فى ذلك . فهناك عشرات الألوف من العلماء والفلاسفة ورجال الدين فى كل العصور قد حاولوا أن يفهموا . كتبوا وتساءلوا واجابوا وتركوا تساؤلات كثيرة لتجيب عنها العصور القادمة . فلا تزال العبارة القديمة التى قيلت للفيلسوف اليونانى سقراط دعوة صريحة لأن يحاول الإنسان أن يعرف الإنسان . فقد قالت إحدى العرافات لسقراط : اعرف نفسك بنفسك ..

وحاول سقراط ومن بعده ومن قبله ألوف المفكرين . واهتدوا إلى أشياء كثيرة فى داخل النفس الإنسانية . فالذى يعرف نفسه ، أو يحاول ذلك ، يعرف كل شىء فى هذه الدنيا .. أى فى دنيا الإنسان .. أو فى هذا « الوجود » وإن كانت معرفة الوجود أصعب وأعقد من أى شىء آخر ..

وأنا على يقين من شىء واحد هو : أن ما أعرفه قليل جدًّا ، لا عن نفسى

فقط ، ولكن عن أى شى آخر . ولكنى أحاول أن أعرف نفسى بنفسى ، وأن أعرفها بغيرى من الناس . وإن هذه المسافة الصغيرة التى بينى وبين نفسى هى أطول وأعرض مسافة خلقها الله ..

وليس سهلا أن تعرف نفسك . ولكن يجب أن نحاول . أن نضىء أنفسنا لأنفسنا . وأن ننطوى على أنفسنا لنعرفها ، كما ينطوى إنسان على بئر ليرى جدرانها وأعماقها .. وكلها محاولات صعبة ..

ولا شىء أعجب ولا أغرب من الإنسان نفسه .. وكل ما صنعه العقل الإنسانى يبهر الإنسان .. هذه الآلات وهذه الأجهزة كلها من صنع العقل ،ولكن العقل الإنسانى ماهو ، ما هذا اللحم .. ما هذه الشعيرات الدموية .. أين تكمن العبقرية .. أين يكمن الذكاء والغباء والحب والحقد والخوف والقوى الخفية العجيبة التى تجعل بعض الناس قادرين على معرفة البعد فى المكان والزمان .. على قراءة الأفكار .. على رؤية الأشباح والأرواح والإحساس والسيطرة عليها .. والاتصال بسكان العوالم الأخرى ، نعم هناك عوالم أخرى وبهذه العوالم سكان آخرون أكثر أو أقل ذكاء من الإنسان .. وكلها قضايا يحار فيها العلماء منذ أقدم العصور وفى هذه الأيام .. إننى أقلب فى عشرين كتابًا صدرت فى بريطانيا وحدها عن « القوى الخفية فى النفس الإنسانية . والتى تجعل الإنسان ينظر إلى نفسه بشىء من الكبرياء لأنه معجزة الله ، وبشىء من التواضع لأنه لا يعلم عن ذلك إلا قليلا » .. □

كله يبدأ صغيرًا

ونحن نتمشى فى شوارع برلين الجميلة سألت صديقًا قديمًا : وماهى العادة الأخرى السيئة التى يرتكبها الشبان هذه الأيام ؟

ولم يكن فى حاجة إلى أن يفكر فقد كانت الإجابة جاهزة . وانتظر منى أو من أى أحد آخر أن يسأله .. وإذا به يقول : أمامك .. ماذا ترى ؟

والتفت لأرى شبابا فى غاية الهدوء والرقة . الفتيان مسالمون كل واحد فى حاله . وقد أطال شعره ونزع بعض ملابسه فالدنيا حر ولكنه لم ينزع ملابسه كلها وإنما احتفظ بالكثير يستره . ويجعله محترمًا . والفتيات جميلات رشيقات باديات الضعف . وربما كان الضعف سببه الحرص على الجوع والمثل يقول : احرص على الجوع يوهب لك الجمال .

وسألنى : وهل لاحظت ؟

فقلت : نعم . إنه لشىء جميل .

وصرخ يستنكر ما أقول أو ما سوف أقول . وقبل أن يلقى بنفسه تحت إحدى

السيارات على سبيل الضيق بالأمر الواقع - الذى هو أنا - سألته : إن كان لا يرى هذا الشباب والجمال فى الناس . والنظافة والنظام فى الشوارع والمبانى .

ولكنه لم يكن يرى شيئًا من ذلك .. إن الذى وقعت عليه عيناه هو أن الشبان لا يحترمون تعاليم المرور ، والتفت أرى الشبان عند أماكن المرور إنهم يقفون ثم يتحركون مع علامات المرور ولكن يبدو أن واحدًا أو ثلاثة لا يفعلون ذلك ، هذا صحيح . ولكن إذا أخطأ ثلاثة فإن ألوفًا حريصون على الصواب .

ولكن شكواه كيف يفعل ذلك ثلاثة . إن هذا لا يجب فالذى لا يحترم مصابيح المرور لا يحترم علامات المرور البيضاء ولا علامات الملاعب .. ولا القواعد ، والذى يخطىء علنًا وعلى مرأى من الناس ما الذى يفعله إذا لم يكن هناك ناس وأن الذى لا يخجله الناس سوف يفعل ما يخجل الإنسانية كلها .

أما أنا فقد حسدت بلاده على الملايين التى تحترم النظام ولكنه حزين على بلاده لأن هناك مئات لا يحترمون النظام ولكنه لا يستهين بهذه المئات لأن المائة هى أبو الألف والألف هو أبو المليون ، وكل شىء يبدأ صغيرًا ثم يستشرى بين الناس فالأخطاء الصغيرة إذا تركناها كبرت وتحولت من أخطاء إلى خطايا - و الله معك حق . □

المشى : أحسن دواء !

عرضت نفسى على الدكتور برجز أحد أطباء البطن الألمان سألنى عن شكواى فرويت له قصة طويلة أعرفها وهى تبدأ عادة بأن أقول له إننى ريفى مصرى أصابتنى الدوسنتاريا والبلهارسيا والانكلوستوما وأنا صغير وعولجت منها فى ذلك الوقت .. ولم أصب بها بعد ذلك والدكتور برجر يهز رأسه ويتابع مضاعفات هذه الأمراض ثم يضيف إليها من عنده تجاربه مع المصريين والشرقيين الذين يتمددون أمامه للكشف عليهم وعلاجهم بعد ذلك إن أمكن .

وبعد ذلك بدأ الفحص العادى .

وطلب منى أن أجلس وأن أحدثه عن الأطعمة التى يجب أن آكلها فى مصر وليس من بينها الإسراف فى الدهنيات أو إغراق الأطعمة بالسمن أو وضع الشطة أو الفلفل أو حتى الملح فى أى طعام .

أما عدد أكواب الماء التى أشربها فهى كثيرة جدًّا فى نظره رغم أن الماء الذى

أشربه فى اليوم الواحد يعادل ربع ما يشربه أى طفل ألمانى من البيرة على الغداء أو العشاء أو الإفطار هذا صحيح ولكن كمية الطعام التى آكلها وكذلك كل مصرى – تعادل أضعاف ما يأكله أى رجل ألمانى فى أية سن .

وسألنى إن كنت أدخن فقلت لا أفعل إلا نادرًا وطلب منى أن أذكر بعض العقاقير التى أتناولها قبل وأثناء وبعد الأكل ويبدو أنها عقاقير معروفة وسألنى عن الكبد والمرارة والبنكرياس ولم أعرف ما الذى أقول وطلب منى أن أمشى فى الغرفة ووقفت ومشيت ولاحظت أن حذائى واسع أكثر من اللازم وأنه يكاد يهرب من قدمى . فقلت له أفضل الأحذية الأوسع من قدمى إننى أستخدم ما يريحنى ولا يهمنى إن كان يليق أو لا يليق .

وقال الطبيب : الآن عرفت علاجك .

وقبل أن أدعو له بالصحة والعافية والنجاح وأن يبقيه الله لأبويه وأولاده قال : علاجك المشى .. والمشى .. والمشى .

ونزلت من عيادة الدكتور برجز ماشيًا إلى الفندق إلى الصحة ، ولو عرف الذين يفوتهم الأتوبيس أو الذين لا يقف لهم التاكسى أن أمامهم فرصة ذهبية لن يعرفوا قيمتها إلا فيما بعد ماغضبوا ولا لعنوا الحياة .. فالمشى أحسن دواء لكل داء – اسمعها عنى عن تجربة . □

لا أحد .. يساوى !

عند منتصف الليل جاءنى وكانت عيناه حمراوين وبقايا الدموع على خديه وهى مفاجأة فليس من المألوف أن ألقى أحدًا بلا اتفاق سابق بيننا ثم إنه ليس هذا الصديق جدًّا أو القريب جدًّا الذى لا يجد حرجًا فى أن يفعل ذلك .. ولكن لابد أنها المحنة العاصفة التى دفعته إلى أن يفعل مالا يليق أو ما لا يليق أن يسكت عليه وكانت عنده رغبة واحدة . أن ينتحر ..

إذن فهى أزمة وعلاجها الوحيد هو الهرب من الحياة وأنا أعرف مثل هذه الحالات . فقد فكرت أكثر من مرة أن أنتحر أنا أيضًا . فعندما ظهرت نتيجة الثانوية العامة وكنت الأول على مصر فكرت فى هذا اليوم أن ألقِى بنفسى فى النيل ولابد أن يكون السبب هو أن أسرتى كانت لديها من الهموم ما شغلها عن الفرح أو مشاركتى فى هذا الفرح وكانت أمى - يرحمها الله - مريضة وإذا كانت الدنيا قد هانت على صغير مثلى فى ذلك الوقت فأمى لم تهن على قلبى . ولذلك عدلت عن الانتحار أو هكذا قلت لنفسى .

ومرة أخرى قررت أن أنتحر بعد أن تخرجت فى كلية الآداب قسم الفلسفة وكان ترتيبى الأول أيضًا وكان أبى - يرحمه الله - مريضًا . وكان ينتظر ظهور النتيجة وسألنى وهو على فراش الموت : هل نجحت ؟ قلت : نعم وسألنى : وكان ترتيبك الأول : قلت نعم .

وتراجع رأسه ومات .

وقبل أن أذهب إلى والدى أحسست أنه لا معنى لشىء ولا طعم لشىء ولا حكمة وراء أى شىء وإننى لم أفهم ولن أفهم ولا داعى لأن أستمر فى أى شىء وإذا ألقيت بنفسى فى النيل أو من طائرة فإن أحدًا لن يخسر شيئًا فأنا لست إلا ورقة من شجرة فى غابة .. أو ريشة فى جناح عصفور فى حديقة الحيوان أو ذرة تراب فى الصحراء الغربية أعرف ذلك ولكنى قلت : ولو .

ولم أنفذ قرارى فقد كان أبى مريضًا وكنت حريصًا على أن أجعل آخر لحظة فى حياته سعيدة وكانت بالفعل كذلك .

ولكن هذا الزائر المفاجىء قال إنه يريد أن ينتحر لأن فلانة الفلانية لا تحبه رغم أنها أعلنت له ذلك كثيرًا وقد رآها فى تلك الليلة مع شخص آخر .

وسألته : هل معك حبوب منومة

قال : نعم .

وأخرج أنبوبة واستعرت منه حبة وقلت له : خذ حبتين وتعال غدًا .

وجاء النوم سريعًا لكل واحد منا ولم يزرنى ولا انتظرت ذلك فلا أحد يساوى أن نموت من أجله وبهذه الصورة التافهة . □

انتظم يطل عمرك !

في مجلة « لانست » الطبية العالمية بحث موضوعه : ماالذى يطيل العمر ؟ والجواب طبعًا : ان الأعمار بيد الله . وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت .

ولكن المجلةالعالمية تقول : إن هناك ملاحظات عامة عن الذين طالت أعمارهم فى التاريخ فى العصر الحديث . ولا يمكن أن يقال إن مهنة واحدة قد احتكرت طول العمر . فهناك بين عمال المناجم من عاش حتى التسعين ، وبين الفنانين من مات فى الثلاثين ، ومن الفلاسفة من قارب التسعين مثل برتراند رسل ، ومن الساسة من جاوز التسعين مثل تشرشل وقارب الثمانين مثل تيتو وفرانكو ، ومن الأدباء والمؤرخين من جاوز الثمانين مثل طه حسين والمؤرخ توينبى .

وهناك من يشرب الخمر ولا يفيق عنها ويعيش بعد المائة ، ومن يدخن ويعيش بعد المائة .. ومن لا يشرب ولا يدخن وينام مع غروب الشمس ولا يتجاوز الأربعين ..

وقد سئل أناس طالت أعمارهم فقالوا : لا نشرب الشاى ولا القهوة ولا السجائر ..

ومن قال : بل نأكل اللبن الزبادى فى الصباح وفى المساء ..

وأحد رجال القبائل الإيرانية تزوج عشرين مرة وقد جاوز المائة . ولما سئل عن سبب طول عمره وتمام صحته قال : ألا ترى ؟

يقصد ألا ترى هذه السعادة التى تتجدد كل ستة شهور عندما يطلق واحدة ويتزوج غيرها .

وفى المكسيك عاش رجل حتى بلغ مائة وعشرين سنة . ولما سألوه فى التليفزيون : لابد أن هناك سرًّا . والناس كلهم يريدون أن يعرفوا منك ذلك . هل فى استطاعتك أن تمد يديك إلى الأمام . وإن يديك لاترتعشان . هل تستطيع أن تقرأ هذه الأرقام .. إن الذين يقدرون على قراءتها هم الذين عيونهم ستة على ستة .. آه .. أنت تستطيع .. إذن فقل للناس .. ما هو سر حيويتك وعمرك الطويل إن شاء الله ..

وضحك الرجل وظهرت بعض أسنانه الطبيعية وقال : لأننى لم أتزوج ..

تقول مجلة « لانست » العالمية : لا يوجد سبب معروف . ولكن هناك صفة مشتركة بين الجميع وهى : النظام . اعمل أى شىء بنظام دقيق يطل عمرك . هذه قاعدة تنطبق على الإنسان والحيوان والآلات أيضًا .. □

إنهم يهود وثنيون

يغضب اليهود إذا قيل عنهم : إنهم يهود .

أما لماذا يغضبون فلأن كلمة (يهودى) معناه أنه إنسان لا صفة له إلا أنه متدين بالديانة اليهودية مع أن هناك عددًا من اليهود ملحدون .

ثم إن هناك يهودًا فى أمريكا وروسيا وأوروبا وآسيا وفى العالم العربى وهؤلاء لا يقيمون فى إسرائيل فيجب أن نفرق بين اليهودى وبين الإسرائيلى وبين الصهيونى ثم إن هناك يهودًا شيوعيين لا يقرون إسرائيل فى نزعاتها التوسعية الاستعمارية – وهذا كلامهم أيضًا .

ولكن اليهود كاذبون فى ذلك فهم جميعًا يهود . أو هم جميعًا إسرائيليون .. واليهود الشيوعيون فى رومانيا وبولندا كانوا يرقصون فى الشوارع عندما انتصرت إسرائيل فى حرب ٦٧ واضطرت الأحزاب الشيوعية إلى طردهم من الحزب .. ثم إرسالهم إلى إسرائيل .

ثم إن اليهود فى روسيا يفضلون الحياة فى إسرائيل على الحياة فى روسيا ،

ولا يمكن أن يكون هذا التفضيل لأسباب سياسية فقط وإنما لأسباب دينية .

فاليهود فى كل مكان فى العالم إسرائيليون على اختلاف ألوانهم وأوضاعهم ولغاتهم ، وليس صحيحًا أن اليهودى مزدوج الولاء أى أنه مخلص لإسرائيل وروسيا فى وقت واحد .. ومخلص لإسرائيل وأمريكا فى وقت واحد ، وإنما هم مخلصون لإسرائيل فقط ، ولا يزال اليهودى السوفيتى مبعد عن كل الأعمال السرية وكل الأعمال التى تتعلق بالأمن القومى ولا تزال كلمة (يهودى) مكتوبة على بطاقته الشخصية لأن اليهودى لا أمان له ولا وفاء له .. ولا إخلاص عنده إلا لإسرائيل .

وهم يحاولون أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة التعصب الدينى وهم كاذبون .. فهم سواء كانوا ملحدين أو مؤمنين يهود .. وهم يتظاهرون بالإلحاد لكى ينفوا تهمة التعصب الدينى ولكنهم فى الحقيقة يهود متعصبون وثنيون ، فرئيس الدولة اليهودية ملحد وموشى ديان ملحد وبن جوربون ملحد وجولدا مائير ملحدة – وكلهم من أصل روسى – ومع ذلك فقد ذهبوا إلى حائط المبكى وقبلوا الجدار والأحجار .

ولذلك فليس غريبًا أن يهدموا المسجد الأقصى وأن يهدموا الكنائس وأن يحرقوا المقدسات لأنهم متعصبون ولأن الدين هو الذى ربطهم وشدهم ودفعهم إلى فلسطين يخطفونها من أيدى أصحابها . ويدوسون المقدسات من أجل دينهم الدموى : اليهودية . □

كل شيء يجنن !

اللبنانيون مجاملون جدًّا . ففى عباراتهم العادية الكثير من الترحيب والمديح . وهم لايجدون صعوبة نفسية فى أن يمتدحك الواحد منهم ، أنت وبلدك . وفى عبارتهم : ياعيونى .. وياقلبى .. وياروحى .. فالسائق إذا ناديته بدلا من أن يقول لك : نعم .. يقول : ياعيونى ياروحى ويقولها بمنتهى الرقة والصدق .

ولا شيء فى لبنان لا يقولون عنه : شيء يجنن ..

أى أنه جميل لدرجة تجعلك تفقد عقلك . مثلا . يسألونك : هل رأيت الأرز ؟ فتقول : مع الأسف لا ..

ويكون الرد : شيء يجنن ..

وتذهب إلى الأرز ذهابًا وإيابًا ، حوالى ٢٥٠ كيلو مترًا فى طريق يطلع وينزل ويدور والسائق فى غاية البراعة وسيارته فى غاية الرشاقة لا هو يشعر بتعب ولا سيارته ولا أنت . وبعد هذا المشوار الطويل تجد بضع شجرات من الأرز . واحدة عمرها

ثلاث آلاف سنة . والثانية أكثر شبابا منها فعمرها ألفا سنة . وانتهى المشوار ..

ويقال لك : هل رأيت زحلة ؟

فتقول : مع الأسف لا .

ويكون الرد طبعًا : شيء يجنن .

وتذهب إلى زحلة وإلى مقاهيها ومطاعمها الكثيرة . وهناك ترى تمثال أمير الشعراء شوقى . وتسمع أغنية ياجارة الوادى للشاعر شوقى بصوت عبد الوهاب وبصوت فيروز وتسمع أغنية : ياصلاة الزين بصوت آخر غير زكريا احمد .. وأمام عشرات الأطباق الشهية من السلطات والفسدق واللوز الأخضر واللبن والجبنة والزيتون واللحوم والضفادع المحمرة والكبد وخرير المياه وخفة الدم اللبنانية رجالا ونساء ، تشعر بمتعة الحياة . وتعدو عشرات الكيلو مترات إلى الفندق ..

شيء واحد تنساه مع الأسف هو أن تستمتع بالطريق إلى الأرز أو الطريق إلى مدن وقرى الجبل ولكن انشغالك بالمكان الذى سوف تذهب إليه هو الذى يسلبك متعة النظر إلى الجبل والاستمتاع بالهواء المنعش . إننا – نحن المصريين – نجد أن هذه المسافات طويلة . ولذلك نضيق أحيانًا بالمشوار وهذا الضيق يضيع علينا بهجة الطريق والأشجار والهدوء والصمت ..

إن هؤلاء اللبنانيين محبون للحياة وقادرون على أن يجدوا فى كل شيء طعما ورائحة ووزنًا وسعرًا . ولذلك فكل شيء يجنن لجماله . ولايهم أن يكون جميلا ولكنهم يجدونه كذلك . وهذه هى النعمة الكبرى التى أعطاها الله لهم : أن يجدوا المتعة واللذة والسعادة فى كل شيء .. □

للطب هواة !

في حياتنا أناس كثيرون هوايتهم الطب . فهم لا يفتحون عيادة ولكنهم يحملون هذه العيادة معهم فى كل مكان . فلا تكاد تشكو من مرض حتى يتطوع الواحد منهم ويقول : عليك بكذا وكذا . فهذا الدواء قد جربته وشفيت بعد ثلاثة أيام .. أو فى نفس اليوم .

وتقول له : ولكن الدكتور فلان الفلانى قد وصف لى كذا .

ويكون الرد : إن هذا الدكتور « .... » لم يسمع بهذا الدواء ولن يسمع به . فهؤلاء الدكاتره لا هم لهم إلا جمع الفلوس التى لا تعرفها الضرائب . ولا تمكن محاسبتهم بأى شكل ..

وينتقل الكلام إلى الضرائب والفلوس التى يحشرها الأطباء فى جيوبهم ولا يدرى بها أحد ، ثم ينتقل الكلام إلى الممرضات والممرضين فى عيادات الدكاتره الذين يتقاضون عن كل مريض عشرة قروش أو خمسين قرشًا . وتجرى عمليات ضرب طويلة تنتهى بأن بعض الممرضات والممرضين يملكون عمارات ولا أحد

يسألهم : من أين لك هذا ؟ أوكثير عليك هذا ؟

ثم يرتد الكلام مرة أخرى إلى العلاج والشفاء . وقد ينفع العلاج أو لا ينفع . وقد وقعت ضحية لكثير من هواة الطب .

ولكن فوجئت بأن لى أيضًا عددًا من الضحايا . آخرها الأستاذ الكبير إحسان عبد القدوس وجدته يشكو من الزكام . وسألته عن العقاقير التى يتناولها . ووجدتنى أقول له إن الدكتور فلان « ... » ودواؤك وشفاؤك عندى . فأنا أجمع كل الأدوية التى أقاوم بها الزكام والانفلونزا قبل وبعد وأثناء حدوثها . وفى كل مرة أسافر أشترى أحدث الأدوية لأننى شديد الحساسية للبرد . وقلت له : إننى سوف أعطيك دواء يتعاطاه رواد الفضاء الأمريكان حتى لا يصيبهم الزكام فى طريقهم إلى القمر .

وأتيت له بالدواء . ولم أشأ أسال عن صحته فىاليوم التالى . فأنا على يقين من الشفاء ومضى يوم واثنان وثلاثة ولم أتلق منه ردًّا يحمل الامتنان والإعجاب بمعجزة الفضاء . ثم سألت عنه فوجدت الانفلونزا قد استشرت فى كل جسمه ..

كيف ؟ قال له الطبيب إن الدواء الذى وصفته للوقاية من الانفلونزا إذا أصيب بها الإنسان فإذا لم يكن مصابًا بها ، وتناول الدواء أصبح مريضًا بها . ومرض الأستاذ إحسان عبد القدوس بالأنفلونزا وراح الطبيب يعالجه من المرض الذى لم يكن مصابًا به من قبل ..

وأرسلت خطابًا إلى صديق فى أمريكا أبحث عن دواء آخر للعلاج من هذا الدواء الذى شفى رواد الفضاء ويصيب سكان الأرض ..

وقد تلقيت خطابًا طويلا عريضًا خلاصته : عليك بعصير الليمون والبقاء فى البيت والعدول نهائيًّا عن هواية الطب .. □

جرائم اليهود !

على مدى ثلاثين كيلومترًا من مدينة ميونيخ توجد حديقة من نوع غريب لها أسوار عالية .. ووراء الأسوار قنوات جافة .. ووراء القنوات توجد طرقات مفروشة بالرماد الأسود .. وبعد الطرقات توجد أفران غريبة عجيبة .. هذه الأفران كان هتلر يحرق فيها خصومه من اليهود والمسيحيين .. وهذه الأفران ماتزال خليطًا من اللون الأسود : لون العظام المحترقة .. واللون الأحمر : لون الدماء الجافة .. والدخان : صرخات المعذبين وقد تعلقت بين الأرض والسماء .. وخربشات على الجدران : إنها أظافر اليهود وغيرهم ..

وهناك أشجار حانية على قبور مدفونة فى الرماد .. ثم هناك معرض لصور هتلر وضحاياه من اليهود ..

هذه الحديقة اسمها « داخاو » وهى معسكر الاعتقال النازى ..

وقد أرغم الألمان على بنائها من جديد .. وجملوها وجعلوها مزارا لكل الألمان بالقوة .. بقوة الإرهاب والتخويف .. وفرضوها على الأطفال الصغار .. وعلى

رجال الدين .

وهناك يقال لهم : هنا أحرق هتلر وأجدادكم ستة ملايين يهودى .

ومن المؤكد أن هذه الأرقام كذبة ، فهتلر لم يحرق اليهود فقط - وليته فعل ذلك - وإنما أحرق خصومه من كل دين وخصومه الذين لا دين لهم .. ولكن الدعاية اليهودية الألمانية والأمريكية قد وضعت هذه الأرقام وثبتتها .. ولم يعد أحد قادرًا على أن يناقشها أو يشكك فيها ..

وأصبحت « داخاو » هذه رمزًا للعذاب .. وتأنيب الضمير .. بل جعلوها حديقة للهوان الأنيق ، والاحتقار الفخم .. والتحقير المستمر .. ومصنعًا يدخله الألمانى رافع الرأس ، ويخرج منها حانى الرأس .. يدخلها كبيرًا ويخرج منها ضئيلا .. يدخلها وهو يقول . أجدادى فعلوا ذلك .. فما ذنبى أنا .. ويخرج منها وهو يقول : ويجب ألا يفعل أبنائى شيئًا من ذلك ..

ولا يتسع وقت أحد ليقول : إن اليهود وحوش دمويون بطبيعتهم .. إن كل كتبهم الدينية تقول عنهم ذلك .. وتصفهم بأحط الصفات .. بل إنهم يصفون ربهم بأحقر الصفات .

ولذلك فالألمان معذبون : وشيطانهم هو الخوف من اليهود الذين فى أيديهم الذهب الأمريكى وفى أيديهم دور النشر والإذاعات والتليفزيون والصحف .. والألمان فى رعب لأنهم ماتزال بلادهم محتلة .. ولأنهم دفعوا ملايين الملايين تعويضات لأناس أحرقهم هتلر ..

ولذلك كادت تتورط ألمانيا بسبب الخوف التاريخى من اليهود ، وتخسر صداقة العالم العربى كله ..

ولكن الألمان يعلمون أكثر من غيرهم أن اليهود كاذبون وسماسرة دماء ونار ودخان .. ولولا ما فعله الشهداء العرب ، لاخترع اليهود جرائم أخرى لتشويه صورة العرب وإحراق كل جسر بين البلاد العربية وألمانيا الغربية .. وسوف يحاولون .. □

الضوء الخافت !

من مزايا سفر المواطنين ، والشبان بصفة خاصة ، إلى أوربا وأمريكا ، أنهم يرون الدنيا فإذا عادوا إلى مصر راحوا يقارنون . ويعملون على تحسين ماعندنا ، ليكون قريبًا مما عندهم فى الخارج . ليس فقط فى الأشياء الملموسة الظاهرة كالشوارع والبيوت والمواصلات ولكن فى السلوك الاجتماعى والأخلاقى والفنى – أى فى العلاقات الإنسانية . وهذا هو الأهم وهو الأصعب . ففى استطاعة أى إنسان أن يمسك المقشة ويكنس أى مكان من الأرض . وفى استطاعته أن يغسل كوبًا من الماء ، ولكن ليس من السهل أن يغسل نفسه وأن يكون صادقًا وأن يكون مسئولا .. إن هذه تحتاج إلى تربية وإلى وقت وإلى مشاركة وتشجيع من الجميع للجميع .

مثلا : هل تتصور أن القاهرة لا يوجد بها غير شارعين أو ثلاثة مضاءة فقط . ثلاثة شوارع . وأحيانًا تكون شارعًا وأحيانًا شارعين فقط .. وأما بقية شوارع القاهرة فالضوء فيها خافت . وليس المقصود أن يكون الجو رومانسيًّا حالمًا . ولكن

فى هذه الشوارع أشياء غريبة لا يمكن فهمها لأول وهلة . هناك أعمدة نور وفى هذه الأعمدة تعلقت مصابيح . وهذه المصابيح عالية جدًّا . ولابد أن يكون الغرض من ذلك هو أن تكون الإضاءة شاملة واسعة أو دائرة الضوء تشمل كل شىء .. ولكن ما الحكمة فى أن الضوء شامل . ولكنه ضوء خافت . أى أنه وسط بين الضوء والظلام . لا هو ضوء كامل ولا هو ظلام شامل . وبذلك لا يمكن أن توصف هذه الشوارع بأنها مضاءة ولا توصف بأنها مظلمة .

أما بقية شوارع القاهرة فهى مظلمة أو ربع مضاءة ، وبعد ذلك تندهش إذا كانت هذه هى الإضاءة فأين الكهرباء ؟ وإذا كان هذا هو الظلام فما هذه المصابيح ؟.

هل تستطيع أن تمشى فى اى شارع مغمض العينين ؟ لا تستطيع . هل تستطيع أن تفتح عينيك لترى ما تحت قدميك إذا أردت أن تمشى ؟ لا تستطيع ؟ أن تجد التاكسى إذا خفت أن تمشى ؟ لا تستطيع ، إننى أعتقد أن أحد أسباب أزمة المواصلات هو أن الناس لا يعرفون ولا يقدرون أن يمشوا على أقدامهم لأنهم يخافون من المشى فى الشوارع المظلمة ..

إننى أتمنى – وغيرى كثيرون – أن نمشى على أقدامنا . ولكننا لا نستطيع .. لقد حاولت ذلك . ولكنى لم أفلح . ووجدت أننى لا أرى الأرصفة .. ولا أرى الأرض . ولا أدعى أن نظرى ستة على ستة .. ياريت ، ولكن وجدت الذين لهم عيون الصقور يخافون على أقدامهم وسيقانهم أن تنكسر والسبب : أن الضوء لا يكفى لأن يعرفوا أين يضعون أقدامهم . طبعًا الحل الوحيد هو أن يركب الإنسان سيارة والحل المثالى أن يركب طيارة . ولكن من الذى يستطيع ذلك دائمًا . ثم إذا

أراد الإنسان أن يمشى على قدميه فما الذى يفعله ؟ الحل المثالى طبعًا : هو أن يدور حول نفسه فى غرفة مظلمة مفتوحة النوافذ . فيضمن دخول الهواء ، وألا يراه أحد فيتهمه بالجنون أو بالتفكير فى إصلاح شوارع مصر .. □

بعد الأربعين ؟ !

أنت عندك أكثر من اربعين سنة ، إذن فأنت يجب أن تحترس ، فأنت الآن فى النازل .. أى أنك وصلت إلى نصف عمرك تقريبًا .. وعليك ابتداء من الآن أن تحاسب على نفسك وعلى جسمك ..

هل تريد أن تعرف ما الذى فعلته الأربعون سنة فيك ؟ انظر إلى أسنانك . ما الذى فعله الطعام الساخن والبارد ، الحلو والملح ، الجاف والحامض .. ثم القهوة والشاى والسجائر .. وأهم من هذا ما الذى فعلته حالاتك العصبية فى أسنانك . ان الذى يتآكل منها لا ينبت بعد ذلك .. والذى يتعرى منها يصبح مثل الأسلاك الكهربائية العارية .. عندما تقترب منها تكهربك .. ثم ان هذه الأسنان المتآكلة تضعف النظر ، وتوجع المفاصل : مفاصل الأصابع والساقين ..

فهل يستطيع أحد أن يترفق فى النزول بعد أن انكسرت عظامه وتحطمت أعصابه فى الصعود ، المصيبة أن الإنسان فى هذه السن يكون فى « عز » الكفاح .. ويكون فى قلب النار حريصًا على أن ينزل على رجليه هو لا أن يسقط من فوق

لا أن يدحرجه أحد .. وانشغال الإنسان بأن يبقى فى مكانه ، قد باعد بينه وبين الإحساس بالحياة . ومتعة الحياة .. مع أنه يريد أن يتمدد فى الظل وأن يتحرك على مهل ، وأن يمضغ ما يأكل ، وأن يهضم ماقد ابتلع .. وألا يكون عليه عفريت يجعله يصحو مع شروق الشمس .. أو يدفنه قبل الشروق بساعات . ثم يقلق منامه عند الشروق ..

ولذلك قال بعض الناس إن الحياة تبدأ بعد الأربعين .. وقالوا بعد الخمسين .. وقالوا فى الستين .. ولكن لم يحدد هؤلاء الذين قالوا مامعنى هذه « الحياة » .. .. فالعمل حياة بعد الناس ، والبعد عن العمل هو حرمان من الحياة ، فإذا كانت الحياة فى هذه السن ، ومعناها العمل ، فلا راحة ولا متعة وإنما هو الخوف الدائم من أن يجد الإنسان نفسه بلا عمل ، وأن يجد نفسه قد سقط من فوق إلى الأرض .. ولكن من المؤكد أن العمل هو الذى يستغرقنا لدرجة أننا لا نفرق بين العمل وبين الحياة ، وبين الراحة من العمل والإقبال على الحياة ، ولذلك يعيش أكثر الناس وقد نسوا تمامًا أن يعيشوا . يموتون وهم لا يدرون بذلك – أكثر الناس حدث وحدث وسوف يحدث لهم ذلك .. □

نارنا : قش !

ما الذى ينقصنا ؟ وماهو الشيء الذى لانجده فى كل فكرة وكل تطبيق لهذه الفكرة ؟ ما الذى يمنع الفكرة الجميلة – من أن تعيش طويلا ويجيء من يضيف إليها فكرة اخرى او تعديلا آخر ويستمر كل شيء نحو ماهو افضل ؟ ما الذى يجعل الواحد منا يقف فى وجه الرأى الجديد . والاجتهاد الجديد ؟ كم مشروعا صفقنا له ، وكان التصفيق نوعا من تشجيعه على الموت حيا ؟ كم من واحد منا اطبق صدره على سره ومات حسرة لأن احدا لم يستمع اليه ، او لم يمكنه من أن يقول شيئا ينفع الناس ؟

مامن جلسة الا وتدور فيها اشكال والوان من هذه الأسئلة . وتنتهى الجلسة عادة بعبارة واحدة هى كفن لكل فكر وكل عمل : نحن المصريين هكذا ! ولكن مامعنى . هكذا . ؟

معناها اننا « عاطفيون » .. حتى هذه الكلمة ليست دقيقة . ولكن معناها اننا نتحمس بسرعة . وتخمد الحماسة بسرعة . او بعبارة دقيقة : نارنا : قش .

والقش يشتعل بسرعة وينطفئ بنفس السرعة . ويعود كل شيء الى ما كان عليه قبل ذلك !

ولكن لماذا أيضا ؟

هذا هو السؤال الجوهرى فى كل مناقشة لنا ، أو كل نقد ذاتى – أو تجريح ذاتى . ونحن ميالون الى التجريح اكثر من ميلنا الى النقد . لأن النقد مناقشة هادئة . والتجريح مناقشة دامية . ونحن ميالون الى الدم فى الكلام . فلماذا كل هذا ؟!

لاننا ينقصنا : الاستمرار والاستمرار معناه القدرة على الصبر على تحقيق فكرة ، بشرط أن نكون قد آمنا بالفكر واقتنعنا بها . وعندنا استعداد آخر على التضحية من أجلها .

وهذا الاستعداد لا يجيء الا من صفة أخرى هى : الصدق . ومعناه ان نكون صادقين عندما اقتنعنا . وصادقين عندما قررنا المضى فى تحقيق هذه الفكرة أو هذا المشروع . فإذا توافر الصدق وأخطأنا لسبب ما ، كان الصدق شفيعا لنا . لأن كل من يعمل يخطيء . والذى يخطيء عن حسن نية . غير الذى يتعمد الخطأ .

وهناك صفة اخرى كريهة وهى اننا انانيون . بمعنى ان كل واحد يقول : انا وليس بعدى أو أمامى أو ورائى احد . انا أنجح .. ثم لا ينجح أحد غيرى .. وهذا خطأ فكرى مذهبى عملى . لأن احدا لا يستطيع وحده أن يحقق شيئا . فلابد من الآخرين . أى لابد من اقناع الآخرين ودفعهم بالفعل الى أن يعملوا معنا ، لكى ننجح معا . ولا يهم من الذى ننسب اليه هذا العمل . وهذا الاسلوب من العمل لا يجيء الا نتيجة الحياة الجماعية أو المشاركة العملية . ولكن قبل ان نصل الى أسلوب المشاركة يجب أن نتهيأ لقبول هذه الفكرة على أنها اصح الافكار لكى نحقق عملا عظيما ، وفى استطاعتك أن تستعرض كل الافكار الجميلة ، والمشاريع التى

كان **يمكن** ان تكون نافعة لنا جميعا . وتضع يدك على العيب .. فالعيب فى **داخلنا** . **ونحن** نحتاج الى تربية طويلة . اساس هذه التربية النموذج السليم . و « **القدوة** الحسنة » على كل المستويات .

وبذلك يكون الصدق هدفا واسلوبا فى الفكر وفى الحياة ! □

نهاية كل شيء حي

خطر لى أن اعود الى التدخين مع أننى لم اكن مدخنا من الدرجة الأولى . ولكن يبدو اننى سوف أتعود . لماذا ؟ لاننى لاحظت أن كل متعة انسانية ضارة .وفى استطاعتك أن تدير فى رأسك كل متع هذه الدنيا ، وقل لى ايها لا يضر ..الماء .. ضرورى للحياة . لو اقللت منه فهو ضار . ولو اكثرت منه كان ضارا . واصعب من ذلك ان تكون معتدلا . فالانسان بطبعه ليس معتدلا . وما تاريخ حضارته من أوله لآخره إلا محاولات يقوم بها رجال الدين والفلسفة والسياسة والتربية لكى يجعلوه معتدلا . فماذا كانت النتيجة ؟ لم يعتدل فى شىء . ولا يزال يفضل ان يموت من اللذة ، وان يموت من التضور ، على أن يعيش معتدلا فى كل شىء ؟!

الهواء ؟ اذا حرصت على ان تتنفس أو تستهلك منه أقل القليل اضر بصدرك وصحتك ، واذا رحت تشفط الهواء ، وتضخه بعنف فان هذا ضار . وليست المجاهدات التى يقوم بها الصوفية والهندوك واليوجا الا نوعا من تشغيل وتحريك الرئة

الخاملة الراكدة . ومحاولة لتنشيطها لكى تحصل على مزيد من الأوكسيجن وهذا الأوكسيجين هو الغذاء الذى يغنى عن الماء والخبز . وليس فى الدنيا كثيرون ينفخون الصدر ليعلو ويهبط !

النوم ؟ ضرورى جدا ان يأخذ الجسم نصيبه من الراحة ، ليقدر على مواصلة العناء اليومى والذى لا يستريح يعجز عن عمل شىء والذى يعجز عن عمل شىء يجب ان يستريح .. والذى يرغم جسمه على النوم بالحبوب ، ويكرهه على اليقظة بالحبوب هو انسان يهد جسمه ويحطم نفسه بيديه .. فلا اليقظة الطويلة مريحة ، ولا النوم الطويل مريح .. ولا يستطيع احد - الا إذا كان طفلا أو مجنونا- ان يكون غزير الحيوية بعد النوم ، عميق النوم بعد اليقظة . لا أحد استطاع ولم أعرف احدا تمكن من ذلك ، لا فى الحياة ولا فى الكتب ولا فى الخرافات !

الجلوس ؟ ان الذى يقف يجب ان يجلس . والذى يمشى يجب أن يتوقف والذى ينام يجب ان ينهض . والذى يجلس يجب أن يقوم .. والجلوس الطويل يؤدى الى تصلب العروق المرنة والى ضغط على الاحشاء والى اوجاع فى الامعاء والمصران الغليظ والاثنا عشر والمعدة والكبد ..

واذا دخنت احترقت اسنانك وصدرك وتساقط عمرك كرماد السيجارة . وإذا لم تدخن واسرفت فى القهوة وفى شرب وأكل مالاضرورة له . وكلها ضارة . فانت تدخن فهذا ضار ، تماما كأن تشرب أو تأكل أو تنام ، أو لا تشرب ولا تأكل ولا تنام وإذا لم تدخن فهذا ضار أيضاً ..

فكل شىء ضار . وكل شىء يقصف العمر . وكل شىء لا علاج له الا بالموت ومادام الموت سوف يخفف آلام الجميع ، المريض والصحيح ، العاقل والمجنون

والطفل والفيلسوف .. فما الذى يخيف الغريق أن تبتل ملابسه ، وما الذى يخيف الانسانى الفانى ، اذا كان الفناء هو نهاية كل حى **لاشىء**؟

اذن فاختر لنفسك ما يضرك اذا نفخته أو اذا ابتلعته . **فكل** شىء ضار ! □

كلنا ذلك الرجل !

كم هو عمرك – يا أى انسان تعمل فى أى مكان وبأية ثقافة ، أعزب أو متزوج ، تنفق على أهلك أو على نفسك ، لك طموح أو طمع فى أن تكون أكبر وأغنى ؟ كم سنة من هذا العمر تعمل جادا واعيا ، وكم سنة فى هذا العمر تستطيع أن تخلو بنفسك وتفكر فى معنى كل هذا الذى صنعت وهذا الذى اضطررت إلى صنعه ، وهذا الذى يفعله بك الآخرون ، الأصغر أو الأكبر ؟ ثم فى النهاية على أى شىء يحاسبك غيرك ، وعن أى شئ أنت مسئول حقيقة ؟ .

انها مسألة سهلة . أنت تضيع من عمرك خمسة وعشرين عاما تتعلم بسرعة ، وتتعذب بالدراسة وبالاستعداد لامتحان بعد امتحان ، وفى نفس الوقت تتعذب بظروفك المادية والاجتماعية ، وتتمزق لما يحدث بك ولك وحولك . ومطلوب منك أن تهتم بدروسك فقط . وتمرض أنت ويمرض الناس ويموتون حولك ، وعليك إن تهتز قليلا جدا ، لأن المهم جدا هو أن تتعلم لكى تصل إلى شئ تجلس عليه . لابد

أن تجلس على مقعد فى الأتوبيس أو فى سيارتك أو فى مكتب أو فى ملعب أو فى مسرح . أو تجلس على خازوق . فمن طبيعة الإنسان أن يجلس ليستريح من خازوق أكبر على خازوق أصغر ، وكل إنسان فى هذه الدنيا يجلس على خازوق مغطى بالورد أو بالخشب أو بالحرير ! .

وبعد الخمسة والعشرين عاما مطلوب منك أن تزيد معلوماتك لكى تكون فى وضع أحسن . فالعلم قوة . لأن العلم يعطيك شيئا من التفوق ، والتفوق يعطيك مزيدا من المال . والمال إمكانيات مادية واجتماعية . وإذا تذوقت المال والقوة والتفوق ، فأنت كالذى يشرب من ماء البحر ، كلما شربت أكثر شعرت بالعطش أكثر . ولن ترتوى ولن تشبع من المال أو العلم أو السلطة – وكل الناس كذلك .

وفى الثلاثينات وما بعدها أنت مطالب بمزيد من القوة والسلطة والمال . وفى نفس الوقت يجب أن تزيد علما ومعرفة . وتدخل فى المعادلة الصعبة جدا : اما أن تكون لك حياة اجتماعية ، أو حياة علمية . . فالذى تأخذه من ساعات العلم تعطيه للعلاقات العامة ، والذى تسحبه من العلاقات العامة يضاف إلى ساعات العلم . وتضيع حياتك الخاصة بين الطرفين . ومطلوب منك أن تمضى بأعبائك وهمومك إلى فوق . وعليك أن تقاوم السقوط وشماتة الأعداء وأن تقاوم الحرمان من السلطة والمال وراحة البال .

وفى هذا الزحام بلغت الأربعين . وهى سن النضج وفى نفس الوقت سن التداعى . . فالجهاز الذى تضغط عليه منذ ولدت بدأ يتعب . . فأنت لا تستطيع كل شئ الآن .. الأسنان تتساقط والشعر الأسود ، والأمراض تزحف والأدوية والميكروبات ، وفى هذه السن زادت التزاماتك أمام الناس وأمام الأهل والوطن والعلم والمال . وعليك أن تشد نفسك وجسمك وعقلك وقلبك وأن تمضى فى طريق

مرهق لا لأنه طويل . ولكن لأنك قد بلغت سن النضج نضج كل الأشجار التى غرستها . وعليك أن تقطف جهودك . وكما تتساقط ثمار الشجر ، تتساقط أفكارك وتتضح الرؤية أمامك . هذا الوضوح يغريك بمزيد من العمل والمكسب والسلطة .

وإحساسك بأنك فى الخمسين وأن الذى يتبقى من عمرك قليل يدفعك إلى مزيد من التحصيل والرغبة فى الراحة . والحقيقة انك فى حاجة إلى راحة . ولكن هذه الراحة لا تجئ بهذه السهولة ، فأنت اعتدت على العمل . واعتدت على أن تكون مسئولا . وهذه العادة قد سيطرت عليك . وهى التى تهد حيلك وترهقك وهذه العادة هى التى تنسيك من أنت وكم عمرك وكم تبقى لك بعد هذا كله ؟ . .

وفى الستين تريد أن تستريح حقا . ولكن الإنسان لكى يستريح يجب أن يكون قادرا على الراحة . وهذا موقف غريب . فالإنسان المتعب يجب أن يستريح لكى يشعر بالراحة . فالموجوع لا يستريح . أى أنك يجب أن تستريح لتستريح . وفى هذه السن من الصعب أن تستريح . . لأنك مجموعة من العادات ، من الأكل والشرب والنوم والعمل . وقد انتهى كل شىء . . أى أنك أصبحت مجردا من عاداتك أى من مقوماتك كلها فكيف تستريح . .

ولا يهم كم سنة بعد ذلك تعيش ولكن النتيجة هى : ما الذى استطعت أن تعرفه ، ما الذى استطعت أن تفهمه ، كم خلوت إلى نفسك ، كم التقيت بنفسك فى هدوء ، كيف يستطيع المقاتل الذى يحمل كل سلاح أن يتجاهل ما يحمله ، وأن يتجاهل المعركة وأن ينسى النصر . إن أحدا لا يستطيع ذلك .

ولهذا فالإنسان « يستمر » طويلا ولكنه يعيش قليلا جدا . . ولذلك فلا ذنب عليه إذا لم يفهم ، ولا جريمة له إذا مات كما ولد لا يدرى شيئا من الدين . أو الدنيا . . وكلنا ذلك الرجل . □

كلاهما ظالم

أديب انجليزى عمره ٧٣ عاما مات منذ فترة . أديب عظيم . كان يمثل مسرحياته ويؤلف لها الموسيقى . وكان يخرجها أيضا ، إن نويل كوارد رجل متعدد المواهب . مات فى جامايكا . أجمل جزر أمريكا . كأنه مات فى الجنة . وإذا كان قد مات فى الجنة ، فلا أعرف أين يذهب بعد الموت . وهذا الرجل استطاع أن يضحك الشعوب البريطانية فى أقسى الأزمات . فمسرحياته تتفجر بالضحك . وهو المسئول بعبقريته عن إسعاد الملايين . فقد كانت مسرحياته تحل لهم أزمة الغذاء والكساء . ولم يكن يكتفى بمسرحياته بل إنه كثيرا ما ظهر ضمن أبطالها ، ليضاعف من سعادة الناس .

مات الرجل فى الجنة . ويقال إنه فى الأيام السابقة على وفاته قال : عنده مائة فكرة يريد أن يسجلها قبل أن يموت . لعل أحدا من الأدباء من بعده يتناولها . ويقال إنه أعطى هذه الأفكار لإحدى الصديقات – ويقال أعز وأقرب وألصق الصديقات . ومات الرجل وسئلت أعز وأقرب الصديقات إن كانت تعرف بالضبط

فهو كثيرا ما يقول ، وهى كثيرا ما لا تفهم . واندهشت الصحف كيف أنها تقول ذلك . وأنا أعتقد أنها لم تقل إلا الحق . فلأنها قريبة جدا ، فهى لا تراه بوضوح . وفى استطاعتك أن تجرب ذلك بنفسك .. ضع إحدى اللوحات الفنية قريبة جدا من عينيك ، وقل لى ماذا ترى ؟ فأنت لا ترى شيئا ، ولا هى أيضا . ثم ما الذى تراه من رجل أديب ومفكر وممثل ومخرج وموسيقار وفيلسوف ؟ لا شئ إلا رجلا مهدودا مهدوما منهارا مريضا أو ميتا أو يريد أن يكون كذلك ! ولا علاقة بين حالة هذا المسافر عبر الأفكار والهموم وبين الجمهور الذى يضحك فى المسرح ويدعو له بطول العمر ، وبين هذا المريض المكدود الملقى مصلوبا على الفراش . لا علاقة . لا وجه شبه . ولذلك فليس غريبا أن تقول أعز وأقرب وألصق الناس إنها لا تفهمه !

من الذى يكتب تاريخه ؟ الذين يعرفونه أو الذين لا يعرفونه . أقرب الناس أو أبعد الناس . إن أقرب الناس لا يرون ، وأبعد الناس يرون – وكلاهما ظالم . وبين الظالمين تضيع الحقيقة . □

إنه طابور المتربصين

لا أعرف التجارب المريرة التى مر بها ومرت بالرجل الحكيم شيشرون . فقد أقام له بعض الأصدقاء حفلة تكريم . ووقف واحد منهم يطرى على شيشرون . ولكن شيشرون اعترضه قائلا : أرجوك ليس الآن . . ليس الآن .

ولم يشأ أن يكمل الصديق كلامه وبعد الحفلة ذهب الرجل إلى شيشرون يسأله : لماذا منعتنى من الكلام عنك . وأنت تعرف رأيى فيك ؟

وكان رد شيشرون : ليس الآن بعد أن أموت قل ما تشاء . أما الآن فإننى لا أصدق مما يقوله الناس شيئا – مع الأسف . لأن الإنسان يحتاج إلى من يقول له كلمة – أية كلمة – كاذبة أو صادقة فإن الرأس التعبان يحتاج إلى مخدة من الريش أو من القش أو التبن أو من اللحم . أية مخدة يضع عليها رأسه حتى يطلع عليه نهار يوم جديد . من التعب الجديد والكذب الجديد . والحاجة إلى العصا يتوكأ عليها . عصا من الصداقة أو من المحبة أو من التقدير . الصادق أو الكاذب . ولكن الإنسان

لأنه يريد أن يجد نفسه شيئا ذا قيمة ، فإنه يجب أن يقال له إن عصاه متينة وإن الجبال تنهار وعصاه لا تنهار . وأنه أطول عمرا وقامة من الجبال . وهذا كذب ولكنه فى حاجة إلى الكذب أو ما يشبه الكذب . .

مع الأسف هذا ما يريده الإنسان .

ولو عرف الإنسان حقيقة الآخرين ، لتعب ، وازداد تعبا ، ووجد فى كل خطوة يخطوها على الأرض سقفا لعمارة شاهقة يجب أن يلقى نفسه من فوقها ، أو بئرا رومانية تنشق وتبتلعه . . وهذه الحقيقة تظهر فى مناسبات كثيرة . وتستطيع أن تجربها بنفسك إذا أردت . وليس عليك إلا أن تغضب أحدا من الناس . أى أحد . أى ليس عليك إلا أن تهز زجاجة دواء مر ، أو زجاجة سائل مر ، هنا فقط تعرف ما الذى انطوت عليه نعومة الزجاج وهدوء السائل ، هنا فقط تعرف أن كل الناس زجاجات ناعمة الملمس هادئة باردة ساكنة إلى أن تهتز . . هنا فقط تسمع ما يجعل للحياة طعم الدواء ، وهنا فقط تحس أنك ألقيت من فراش دافئ إلى بلاط بارد . . وأنك أصبحت بلا غطاء ولا دواء . . وعليك أن تختار بين أن تعيش أو لا تعيش . . أو أن تعاود مناقشة ما استقر فى نفسك من أفكار مثل : إن هذه هى الحياة . وإن هذا هو حال الناس . وإنك كنت قد نسيت .

ولا تحاول أن تبحث عن شئ تبصق عليه . فكل ما حولك مرآة لك ، وأنت كالذى يريد أن يبصق فى مرآة . ثم إنك إذا حاولت أن تبصق على السماء ، فسوف يرتد إليك وعليك كل شئ . . فابتلع ريقك وامض فى طابور طويل من المتربصين بأنفسهم وبحياتهم فى هذه الحياة . □

التقشف واجب !

في كل مرة يتحدث الناس عن ارتفاع أسعار اللحوم يتطلعون إلى الأسماك . ويتساءلون : لماذا لا تمتلئ الأسواق بالسمك من النيل أو البحر فى الشمال ، أو أسماك بحيرة ناصر فى الجنوب . ومن المعروف أن السمك قد تناقص بسبب فيضان النيل ، وبسبب انعدام فيضان النيل . فكميات السردين الهائلة فى الشمال قد تضاءلت تماما . فقد كانت تتكاثر عند اللقاء الحار للنيل مع البحر الأبيض . ولكن هذا اللقاء أصبح فاترا باردا . وكان من نتيجة هذا الفتور بين ماء النيل وماء البحر ، أن هربت الأسماك . .

أما فى بحيرة ناصر ، فإن الأسماك أصبحت وحوشا بحرية . يأكل بعضها البعض . ثم إن لحمها أصبح جامدا لا يأكله أحد . وبسبب هذه البحيرة الراكدة ، سوف تطفو على سطحها أسماك ميتة من التفاعلات الكيميائية . وسوف تغطى بأزهار ورد النيل ، كما يحدث فى كل البحيرات الاستوائية ، أو البحيرات الدافئة الساكنة . ولكن الأسماك كثيرة جدا بمئات الألوف من الأطنان . غير أنها تولد وتكبر وتموت هناك .

والسؤال الذى يتردد دائما : ولماذا لا تنقل هذه الأسماك من أسوان إلى القاهرة ؟ والجواب المعروف : أنها فى حاجة إلى ثلاجات ضخمة . والسؤال التالى : ولماذا لا نشترى الثلاجات ؟ لا أحد يجد جوابا عن هذا السؤال .

ومعنى ذلك أننا جميعا نعرف الأسئلة ونعرف الأجوبة . وبعد ذلك لا أحد يتحرك خطوة واحدة . كأن الإجابة هى نهاية الخط ، أو نهاية الخطط . أو نهاية العالم . أو أن المباح هو أن نسأل وأن نجيب . وأن الانتقال من القول إلى الفعل ليس من حق أحد .

أو كأننا قررنا أن نأكل اللحم فقط . أما الأسماك فليست « واردة » — أى ليست واردة فى مناقشة أزمة اللحوم . مع أن هناك دولا كثيرة فى الدنيا لا تأكل إلا السمك . ودولا أخرى بمئات الملايين لا تذوق اللحم – تدينا – هناك مئات الملايين من الناس لا يأكلون لحوم الحيوانات والأسماك ، جوعا وفقرا .

ولا أعتقد أننا أكلة لحوم الحيوانات بالطبع أو بالغريزة . وإنما اللحم لمن يستطيع أن يشتريه والأسماك لمن يستطيع أن يجدها . وفى الإمكان أن يتحول الإنسان من اللحوم إلى الأسماك بسهولة . فهى مجرد عادة ، وفى الإمكان أن نأكل القليل من أى شئ ، إذا نحن قدرنا الظروف العسيرة التى تمر بها مصر . وإذا قدرنا أكثر من ذلك : أننا فقراء ، والتقشف واجب . لأنه ليس من المعقول ولا المقبول أن نكون فى مثل هذه الحالة ، ونطلب كل شئ ونحرص عليه ، كما لو كنا فى حالة سلام ووئام مع أنفسنا وكل الناس .

من الأسف الشديد : إننا نحرص على الكماليات قبل الضروريات . إن هذا قلب للأوضاع ومهزلة عقلية واجتماعية . وغيبوبة عن الحقيقة المرة : إننا نعيش فى حالة مابعد الحرب ، أو يجب أن نشعر بذلك دائما . □

لا خوف على مصر .. بشرط !

في كثير من الأحيان يضبط الإنسان نفسه وهو ينظر إلى مصر وإلى القضايا العربية كما يفعل الأجانب أو السياح الغرباء : يراقب كل شئ ويسجله دون شفقة أو رحمة . ويقارن بين مصر والدول الصناعية الكبرى أو الدول التى ليست لها قضايا سياسية واجتماعية – وهو لا شك ظالم لمصر . لأنه لا يحسب مصائب مصر وهمومها والخسائر الفادحة التى أثقلت ظهرها . ولا يحسب من الذى يقف وراء العدو بالمال والرجال والخبرات والمخابرات .

والإنسان يحول نفسه إلى أجنبى ، لأنه بذلك يرفع المسئولية عن نفسه ، فكل واحد منا يجب أن ينظر وينتقد ولا ينسى أنه هو أيضا مسئول بشكل ما عما حدث فى مصر ولمصر وما سوف يحدث لها . وأن كل مصرى يجب أن يذكر ذلك . . وأن يترفق بمصر مفكرا وناقدا وشريكا فى الخطأ وفى ضرورة التصحيح . .

وكما كانت عادة الرئيس الراحل أنور السادات لقد شرح لنا كل شئ . . وكان مؤثرا . إنه لم يلق كل الأعباء علينا إنه حمل هو أيضا الكثير من ويلات مصر ومن

قدرها . وقد اعتاد الرئيس السادات أن يقتسم المسئولية مع مندوبى الشعب .

وهو يذكر الشعب دائما أن هناك حلولا كثيرة ممكنة . ولكن هل هى كريمة؟ إنها ليست كذلك فأمريكا تريدنا أن نركع . . أن ننزل ونتنازل إلى أقصى درجة . فإذا ركعنا وسجدنا ، وعدتنا بتحريك الموقف السياسى الراكد . . وعلينا وحدنا أن نوقظ الموقف السياسى ، فإذا ايقظناه انقض علينا وأضاع منا سيادتنا على أرضنا ، وحقنا فى أن نطالب بذلك . وحتى لا يتحقق لنا أى مطلب ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية قد مضت وسوف تمضى فى تفويق اسرائيل - أى جعلها أكثر تفوقا عسكريا على كل البلاد العربية .

ولابد من أجل « مواجهة شاملة » أن تكون الواجهة السياسية والتنفيذية والفكرية لمصر واحدة . . أو متوحدة . أو متحدة ، ولذلك يجب ألا تتسع الفتحات أو الفجوات بين المؤسسات . ومن أجل هذا حمل الرئيس السادات أمانة الحكم - وهى ثقيلة جدا . . وطلب إلينا جميعا أن يحمل كل واحد الأمانة فى موقعه . فإذا أصبحت المسئولية عبئا ثقيلا على ضمير كل مواطن ، فلا خوف على مصر وعلى شعب مصر وحكومة مصر ، ومؤسسات مصر ولا على البلاد العربية أيضا .

والله يوفقنا جميعا لخير مصر . .

وخير مصر فى يد الله وفى أيدينا . . ومادام القانون درعا لنا وسورا حولنا ، وسقفا فوقنا ، وضميرا فينا ، فلا خوف على أحد من أحد . ولا خوف على مصر من أهل مصر ومن أعداء مصر على أرضنا المقدسة ، وكرامتنا الشامخة . □

حى على الكفاح

ما الذى تفعله إذا قيل لك إن الشيطان يسكن بين الأسنان . أى فى هذه المسافة الصغيرة بين الأسنان ؟

إن أهل جزيرة بالى ، إحدى جزر أندونيسيا يوسعون المسافة بين الأسنان ، ليسقط الشيطان من بين الأسنان . ولذلك فالعروسان قبل الزواج يجب أن تتسع جدا المسافة بين أسنانهما . وأكثر من ذلك فإنهم يزيلون طبقة المينا التى تغطى الأسنان وتحميها . ولذلك نجد معظم الرجال فى العشرينات قد تساقطت أسنانهم تماما . لأن أسنانهم بلا حماية . فإذا أزيلت تماما فلا مكان للشيطان فى أفواه الناس .

وهناك حل آخر هو أن تسد المسافات أو الفتحات بين الأسنان أو بين الصفوف حتى لا يجد الشيطان فرصة للتفريق بين الإنسان والإنسان . فهذه المسافات بين الناس تعشش فيها الشرور . ولذلك كانت الدعوة إلى القضاء على المسافات بين المصلين . وفى ذلك رمز إلى وحدة الصف . ومناعة المصلين . فكما أنهم يقفون صفا

واحدا وفى اتجاه قبلة واحدة ، ويرددون آيات واحدة . فهذا التوحيد بين الصفوف هو المعنى العام المقصود وذلك بأن يكون المسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا .

وإذا كان الإنسان فى حاجة إلى أن يكون مشدودا إلى احد ، ومشدودا بأحد فى حياته العادية ، فإنه فى وجه الأزمات والمصائب والحروب يجب أن يكون ذلك أسلوبه فى كل عمل وفى كل مناسبة وكل وقت .

فهل نحن فى حاجة إلى من يقول لنا : أننا فى حالة حرب ؟ هل نحن فى حاجة إلى من يقول لنا : إن هناك تفككا بين الصفوف . . وأن هذا التفكك سببه اللامبالاة بشئ ، أى اللامبالاة بالصف وبالوقوف وبالمسافات بين الصفوف وبالوجهة الواحدة والهدف الوحيد ؟ يبدو أننا فى حاجة إلى من يذكرنا . . إلى من يؤذن قائلا : حى على الصلاة . . حى على الكفاح . . حى على الوحدة الوطنية والوحدة القومية . . حى على الوقوف فى وجه العدو الذى ساندته قوى هائلة بالمال والسلاح والخبراء وأجهزة الإعلام والمخابرات .

إن الذى نحتاج إليه الآن هو أن تتقارب المسافات بين السلطات وبين القيادات . كما تتقارب الأصابع فى كف واحدة وفى ذراع واحدة وفى جسم واحد . لأن المسافات بين القيادات تغرى بتمزيقها وتعددها . . والتسلل بينها . ونحن نريد أن يكون السلاح صلبا وأن تكون القيادة منيعة . فقد تعذبنا كثيرا بتعدد القباطنة فى السفينة الواحدة . هذا يقول : إلى الشرق وذاك يقول إلى الغرب . . واهتزت السفينة ودارت حول نفسها وداخ الركاب . وحارت الموانئ والمراصد فهى لا تعرف أين تذهب هذه السفينة ، واليوم يجب أن نتفق بوضوح أكثر وتصميم أشد على خط واحد ، وهدف واحد . . فليس أمامنا أن نختار . لأنه لا توجد أشياء كثيرة نختار بينها : هل نحارب أو لا نحارب . هل نواجه أو لا نواجه . . هل ننتظر

العدو حتى يبتلعنا ؟ . . لا اختيار . فهذا قدرنا ومصيرنا . **فإما أن** نعيش بكرامة أو نموت بكرامة . وإذا كانت إسرائيل قد ولدت من أكثر من **٣٠ عاما** لتعيش ، **فقد** ولدنا منذ أكثر **٢٥ قرنا** لنعيش أيضا . □

السفر بين الكواكب : نبوءة !

أحد علماء الفضاء يقول إنه بعد أن درس « سفر حزقيال » فى الكتاب المقدس ، تأكد من أن النبى حزقيال قد رأى بعينيه وعن قرب طائرة ذات محركات هبطت من السماء . . وهذا الرأى الذى اهتدى إليه العالم قديم . قال به عدد كبير من العلماء من قبل . ولكن هذا الرأى يؤكد أن هناك رحلات بين السماء والأرض . وأن عددا من سكان الكواكب الأخرى قد هبطوا من السماء إلى الأرض . وأقاموا على الأرض وعايشوا سكان الأرض وتناسلوا . ولأسباب غير معروفة لدينا الآن هاجروا من الأرض . وعادوا إلى حيث لا نعرف .

والذى يعاود قراءة سفر حزقيال يجد أن النبى اليهودى قد رأى بالقرب من مدينة بغداد هذه السفينة الفضائية . ووصف النار التى تخرج من الأمام ومن الخلف . . وكيف أنها عندما هبطت إلى الأرض قد أثارت التراب . . وبعض العلماء يؤكد أن السفينة التى رآها حزقيال ليست طائرة ذات محركات كما يقول العالم المعاصر . ولكنها

طائرة هيلوكبتر . وأنها طائرة نفاثة . وهذا ما لم يعرفه العلم الحديث حتى الآن فنحن لم نهتد بعد إلى مثل هذه الطائرة التى ترتفع عموديا ثم تتجه إلى أحد الكواكب البعيدة . فهذا الطراز من الطائرات يعتبر متقدما جدا .

والنبى حزقيال يصف أيضا الذين نزلوا من الطائرة وكيف أن لهم خوذات شفافة . . وهذا ما نعرفه الآن جيدا فكل رواد الفضاء يرتدون هذه البدل لحمايتهم من الأشعة الكونية ومن درجات الحرارة العالية فوق الصفر أو تحت الصفر .

وهذه الظاهرة التى رآها حزقيال قد رآها أيضا الفراعنة . فكتب تاريخ مصر تصف لنا كرات من النار تمشى فى سماء العاصمة . وكيف أن بعضها يبعد . أو يهبط فى أماكن بعيدة . وكيف أن أحد ملوك مصر خرج هو ووزراؤه والكهنة يتفرجون على الأشياء الغريبة التى تروح وتجئ بسرعة وبلا ضوضاء .

وقبل أن ندخل عصر الفضاء كان رجال الدين يفسرون سفر حزقيال على أنه إحدى النبوءات . أى على أن الذى رآه سوف يحدث . وبعد أن حدث ، عاد العلماء يفسرونه على انه ليس مجرد نبوءة . وإنما على أنه شئ قد حدث بالفعل .

كما أن الأصوات البعيدة جدا التى يسجلها العلماء تؤكد أن هؤلاء الناس يريدون أن يتصلوا بأحد . . وتشاور العلماء الأمريكان والروس والانجليز هل نتصل بهم . أم أن فى الاتصال خطرا علينا . . وأخيرا قرر العلماء أن يتصلوا بهم بنفس الطريقة ، أى بإرسال أصوات عالية الذبذبة تتجه إلى حيث مصدر هذا الصوت ومن يدرى ، فقد يعودون إلى الأرض مرة أخرى . .

إن المستقبل مثير جدا . فلعلهم يهدوننا إلى شئ نافع للإنسانية . . أو لعلهم يقضون على سكان الأرض ويريحون الأرض من أهلها ، فقد شقينا بأرضنا ، وهى قد شقيت بنا . □

هذا هو أنت !

تأكل وتشرب وتتقلب وتشعل النار فى الذى ابتلعته . ثم تجرى وتقف . وتنام وتقعد . والنار تتفاوت درجاتها فى جسمك من التفكير فى شئ أو قلة التفكير فى شئ ، أو صعوبة التفكير أو الهضم لأى شئ ، بعد ذلك تتصور أن معدتك تستريح وأمعاءك أيضا . وكذلك بقية الأعضاء والغدد والسوائل الحمراء والبيضاء والصفراء ، كل ذلك يجرى ويتخبط ويتلاطم فى داخلك مدى الحياة التى طولها سبعون أو ثمانون عاما ، كل ذلك يحترق فى داخلك دون أن يصاب فيك شيء بشئ ؟ .

أنت حوض ماء ونار ودخان وغازات وعواصف وبرق ورعد . . والحوض يتقلب يمينا وشمالا . . . يتسع ويضيق . . ويلتوى وينحنى وينكسر . . ومجالات مغناطيسية وكهربائية وتخاريف وأوهام وأشباح وأرواح . . ويعاد صبغ كل هذه السوائل بالأسود والأبيض . . كل ذلك وأنت تمشى على قدمين ، أو تعمل بيدين . . أو تحرك رأسك يمينا وشمالا .

كل هذه الاحتراقات والاختناقات التى تدور فى داخلك ، وبعمليات شديدة التعقيد ، دون أن يحترق سلك واحد . دون أن تفرقع لمبة واحدة . . دون أن تعتصر داخلك لكى تنقذ داخلك من خارجك . . أى من العوامل الخارجية . . لو قدر لك أن ترى شكل السوائل التى تنطلق فى جسمك لوجدتها حمراء وزرقاء وصفراء وخضراء وسوداء . . ووجدتها ترتعش وتنتفض ويخيل إليك أنها مجموعة من الثعابين أو الديدان . . أو العفاريت – هذا هو أنت فى أى وقت وفى أى موقع . .

وكل ما فى داخلك بقع من الألوان . . ومساحات من الكهرباء ، ودفعات من النار ، وسحب من الدخان . . كلها محبوسة فى حقيبة من الجلد . هذه الحقيبة هى جسمك . . هى بشرتك . . وأنا لست فنانا سيرياليا أو تجريديا . . وإنما أنا أنظر إلى لوحة رسمها فنان كبير يصور بها الإنسان فيقول : إنه مجموعة من بقع الحبر من كل لون لا تجف أبدا . . يخيل إليك أنها نار من بعيد ، فإذا اقتربت فهى مياه رائحتها كريهة . . ولا يعرف الإنسان أين هى العبقرية فى جسم الإنسان . هناك عبقرية وعظمة . ولكن الإنسان لا يعرفها . إنه عاجز أمامها . ولكن كيف استطاعت هذه الأبخرة فى جسم الإنسان أن تجعله هكذا عظيما ؟

والجواب : لأنه ليس هذه المساحات اللونية فقط . إنه هو الإحساس الأليم العميق بأنه كائن تافه – وفى نفس الوقت لا يريد أن يكون كذلك . □

اللون : لعنة !

في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٥٠ قتل البيض فى جنوب أفريقيا مئات من السود . بلا سبب واضح . وفى جنوب أفريقيا لا يحتاج الرجل الأبيض إلى سبب قوى . لكى يقتل رجلا أسود أو ملونا آسيويا — فيما عدا اليابانيين — وإنما يكفى أن يقال : إنه أخرج لسانه . أو بصق على الأرض . أو لم يفسح له الطريق . أو أنه ذهب إلى منتصف الشارع متجاوزا المساحة المخصصة للسود فى سيرهم وجلوسهم . فى ذلك اليوم مات المئات وجرح الألوف .

وفى جنوب أفريقيا يوجد هذا التمييز بين الآدميين بسبب اللون وتكوين ملامح الوجه . .

وقبل ذلك بسنوات أيضا حدثت مهزلة الفتاة البيضاء « ساندرا » . فأبوها أبيض وأمها بيضاء . ولكن ساندرا نفسها لها ملامح زنجية . أى لها عظام فى وجهها ناتئة . ولها أنف أفطس . ولها أسنان كبيرة وشعرها الأصفر مجعد . وأدخلها أبواها مدرسة البيض طبعا . واحتج أولياء أمور الطلبة . فالفتاة بيضاء البشرة ولكن بقية

الملامح افريقية آسيوية . . وأخرجت الفتاة من المدرسة . . وكان لابد أن تذهب إلى مدارس الزنوج . ودخلت مدرسة الزنوج .

ولكن هذه الفتاة لابد أن تعيش مع والديها فى بيت واحد . هذا طبيعى . وكان أبواها يسكنان فى حى البيض . ولكن أهل هذا الحى عندما عرفوا بقرار حرمانها من المدرسة طالبوا بتنفيذ هذا القرار على السكن أيضا . وأخرجت الفتاة من السكن بين البيض . وانتقلت إلى السكن بين السود – مع أنها بيضاء .

ولما أحست هذه الفتاة الصغيرة بأنها منبوذة من البيض ومن السود معا . فلا هى بيضاء محترمة ، ولا هى سوداء مهينة . قررت أن تهرب من البلاد . وأحبت فتى فى مثل حالها . . أبيض منبوذا . وتزوجت فى الخارج . ولكن الحكومة اعترضت على عقد الزواج . لأن الشاب أبيض ، أو أكثر بياضا منها . لأن أنفه صغير . فهو أبيض وهى سوداء . فالزواج باطل – ولذلك لا يحق لها ، لا أن تدخل البلاد ولا أن تتزوجه . . وفكرت الفتاة فى أن تقطع أنفها . وقيل لها : ولكن ما الذى سوف تفعلينه بشعر رأسك . . قالت : أحلقه . . وقيل لها : وأسنانك ؟ قالت : أخلعها . . وقيل لها بعد ذلك : ولأى شىء تعيشين فى هذه البلاد ؟ قالت : لأكون لعنة على الجميع . . على الأغلبية السوداء العاجزة . . والأقلية البيضاء الباطشة . . أو على الأقلية البيضاء التى يعجز مئات الملايين من البيض والسود والصفر فى العالم كله عن عمل شئ لها .

إنه يوم لا ينسى ، ويجب ألا ينساه أحد من أى لون . □

لا إنسان طبيعيا !

هذه العبارة المشهورة غير صحيحة : العقل السليم فى الجسم السليم . فلم أقابل واحدا له عقل سليم . ولم أر واحدا له جسم سليم . . بل إن صاحب العقل يشقى بجسمه أو جسمه يشقى به ، وصاحب الجسم السليم له عقل ليس سليما . ثم ما معنى كلمة « سليم » . . لا يوجد لها أى معنى فى أى قاموس . لأنه لا يوجد واحد سليم . كما أنه لا يوجد إنسان « طبيعى » .

فالإنسان الذى نعرفه هو الإنسان الذى يمكن أن يوصف عموما بأنه طبيعى إلى حد ما . لأنه من الطبيعى جدا جدا أن يكون الإنسان غير طبيعى ، فى ناحية من نواحيه العقلية أو النفسية أو الاجتماعية .

فالجسم السليم ، أو الحالة الصحية السليمة للجسم ، ليست حالة عقلية ونفسية أو اجتماعية . . وإنما هى خليط « نسبى » من كل هذه الصفات أو الحالات أو السلوك أو ردود الفعل أو الوظائف الجسمية والفسيولوجية والبيولوجية والاجتماعية النفسية . . هذا إذا كان فى إمكان أى إنسان أن يحصل على نسب معقولة من هذه

الصفات – أيا كان هذا الإنسان ، وأيا كان مستواه فى أى عصر .

ولذلك فالطبيعى جدا أن يكون الإنسان غير طبيعى . أو بعبارة أسهل : الصحيح جدا أن يكون الإنسان مريضا . كل إنسان مريض . وكل واحد له مرض شكل ولون . وكل شكل له مظاهر . وهذه المظاهر تتشابك وتترابط وتتعقد . وكل ما هو إنسانى هو شديد التعقيد . ولذلك يدهشنى جدا أن أجد أحدا لا يقول : آه . . إذا لمسته فى مكان من جسمه أو نفسه أو تاريخه . لا أحد لا يعرف الآه . لا أحد لا يقولها هامسة أمام الناس ، صارخة مولولة من وراء الناس . وكلما رأيت من يهمس بالآه أمام الناس أدركت أنه يدخر الآهات إلى سريره فى البيت أو فى المستشفى .

إن أكثر العيون لمعانا هى التى امتلأت بالدموع . وأكثر الطبول دويا هى الفارغة ، ولكن لا أحد فارغا كالطبل ، وإنما كل إنسان ملئ بشئ . وسوف يزداد امتلاء بعدد الناس الذين حوله ، والذين وراءه والذين أمامه . والذين يعيش بهم ومعهم وضدهم .

فما المعنى ؟ المعنى أن الطبيعى هو ألا تجد إنسانا طبيعيا ، والصحيح ألا تجد أحدا صحيحا .

فلا هناك جسم سليم ، ولا عندنا عقل سليم – وأن صاحب هذه العبارة المشهورة هو رجل يتمنى أن يكون له شيء من ذلك . وكلنا ذلك الرجل الحالم الواهم حتى الموت . □

لا صحة لا حياة

تصور نفسك فى حالة إرهاق . أو حالة رغبة فى الراحة من الإرهاق ودخل عليك رجل ضخم الجثة . كل ملامحه غليظة . وجهه وشفتاه وأنفه وذراعاه وصوته . ومن غير أى مقدمات راح يقول وبصوت مرتفع : اترك الكلام الفارغ الذى فى يدك . لا فائدة من هذا كله .

وقبل أن تتحقق من هذا الكلام الفارغ الذى فى يدك وهل هو كذلك . وقبل أن تتساءل إن كان لهذا الغريب الحق فى أن يوجه إليك هذا الكلام دون سابق معرفة ، فإنه يقول لك : كل الأدوية سموم اسألنى أنا الذى تعلمت فى السويد والنرويج والدانمرك .. وغدا أسافر إلى اليونان وهذه هى تذكرة السفر . حتى الفلوس قد حولتها إلى دراخمات . إذا كان عندك أى شك فى أى شىء . .

وبعد ذلك ، أى بعد وضع هذه الأحكام النهائية فإنه يبدأ فى عرض حيثيات هذه الأحكام . فهو يقول إنه تجاوز الستين من عمره . شعره أسود كله . أسنانه تهرس أعواد القصب . وعضلاته تحطم أى إنسان إذا عانقه . المطلوب : هو أن

أترك كل الأدوية ، وقبلها كل إيمان فى الطب . وقبل ذلك أن العلاج لاى مرض هو كيمائى . لأن العلاج « طبيعى » . مثلا – وهو الذى يقول – أنت تعرف الحركة الدودية للأمعاء . وما الذى يجعلها تفعل ذلك ؟ وما الذى يوقف نشاطها هذا ؟ ليس الدواء ولكنه الكسل والخمول والبلادة والنوم على المكاتب كل يوم . . أى انك أنت الذى تمرض نفسك . وأنت الذى تستطيع أن تشفى نفسك . والشفاء موجود عنده فى العيادة . لا دواء . لا ماء . لا حبوب لا حقن فقط أن تنام وتتمدد وتجئ الآلات من حديد وجلد وتحرك بطنك يمينا وشمالا وإلى تحت وإلى أسفل .. أنفاسك العميقة . وأهم من ذلك مع رغبتك فى الشفاء . .

والكلام معقول طبعا .

وأكثر معقولية من هذا أن الذين يعملون كثير جدا ، وهم ضعاف الأجسام أو مرضى . لماذا يفعلون ذلك ؟ إنهم مرضى ولذلك فهم انتحاريون . فقد أدركوا الحقيقة المؤلمة ولذلك لا يبالون بالنتائج . وكل المرضى عندهم هذه الرغبة الدفينة فى أن يموتوا .

وتذكرت القصة التى يرويها الكاتب الكبير بلوتارك من أن أحد القواد أعجب بواحد من جنوده . لأنه شجاع ولا يهاب الموت . رغم أنه مريض جدا . وأوصى بعض الأطباء بعلاجه . ولما عولج لاحظ أنه لم يعد شجاعا مقداما . فسأله ماذا جرى ؟ فأجاب : أنت المسئول عن جبنى . فعندما لم تكن عندى صحة ، لم أخف الموت . . وعندما عادت لى الصحة ، أصبح عندى ما أخاف عليه .

ولو استرد الإنسان صحته ، لجلس إلى مكتبه أقل ، ومشى فى الشوارع والحدائق أكثر ، فمن غير صحة لا حياة ، ومن غير مرض لا انتحار . .

شئ عجيب أن يصدر الكلام المعقول بصورة غير معقولة . . فالذى ذكرته فى

سطور قد سمعته فى ساعات . . وبعد أن خرج الرجل بقى الدوى فى أذنى ، والزغللة فى عينى ومددت يدى إلى قرص مهدئ، واعتدلت على مكتبى أقلب فى هذا الذى أسماه بالكلام الفارغ . □

المصران : مشكلة !

يبدو أننا مسرفون فى تعاطى الأدوية – أنا مثلا . وسبب ذلك جهلى التام بفوائد وأضرار الإسراف فى تعاطى الأدوية . وإلى جانب جهلى أضيف كسلى أيضا . وشئ ثالث متوافر عند كل الناس هو عدم احترامنا للتخصص : أى للأطباء . ولذلك ساءت صحة الجميع ، وأصبح الدواء بلا مفعول . ولكننا فى نفس الوقت لم نتوقف عن طلبه أو تعاطيه . والدواء الذى نسرف فى استخدامه يصبح عديم المفعول . ولذلك يطلب إلينا الأطباء أن نتوقف بعض الوقت عن تعاطيه أو استخدام دواء آخر . ولكننا نمشى على قاعدتين متضادتين . فنحن نأخذ نفس الدواء عملا بالحكمة التى تقول : الذى تعرفه خير من الذى لا تعرفه . وفى نفس الوقت نسأل طبيبا آخر عملا بحكمة أخرى تقول : الطبيب الذى تعرفه .

وتتكاثر الأدوية . ويبقى الداء فى مكانه لأننا استدعينا لعلاجه عددا من الأطباء : واحدًا كنا نعرفه وواحدا نعرفه وثالثا ليس طبيبا هو : أنا وأنت وهو .

مثلا : وجهت نداء إلى المحسنين فى مصر أن يعاونونى على العثور على دواء اسمه **اسبازموكانيوليز** وهو خاص بالمصران الغليظ أى القولون فماذا حدث ؟ أجاب أناس **طيبون . . بعضهم** أرسل علبة معتذرا ، وبعضهم أرسل أقل من علبة معتذرا – وأنا شاكر فى الحالتين . ورئيس مؤسسة الأدوية وعدنى بأكثر من علبة ، شكرا على **الوعد** . ولم يفعل شيئا . وإنما زف إلى بشرى سعيدة وهى أنه سوف يبعث إلى الصيدليات فى نهاية هذا الشهر ستة آلاف علبة . . وصاحب صيدلية السلام وعدنى **بعدد كبير** ، أتعهد بأن أعطى أكثره للمرضى والمحتاجين من أمثالى . . وطبيب بمستشفى المعلمين نبهنى إلى دواء أمريكى أفضل من هذا الدواء السويسرى – والله أعلم .

ولكن هناك مشكلة كنت قد أثرتها من قبل وذكرتنى بها حرم سكرتير أول بالخارجية . تقول إنها عاشت خمس سنوات فى ماليزيا ولاحظت أن الأطباء يكتبون فى الروشتة عدد حبات الدواء التى يحتاج إليها المريض . أما الصيدلى فإنه يضع كل الأدوية فى زجاجات سعة الألف حبة ، فالصيدلى لا يصرف إلا العدد المطلوب . وبذلك تتفادى ماليزيا أن يكون لدى أحد الناس أكثر من حاجته من الأقراص والحبوب . أما نحن ، وهذا ما ناديت به منذ سنوات ، فلدينا علب وزجاجات وحقن لم نعد نحتاج إليها ، ولكننى فى نفس الوقت لم أعرف ولم أهتد إلى الجهة التى يمكن أن أعطيها ما زاد عن حاجتى وحاجتك من الأدوية ، لعل أحدا غيرنا يستفيد بها .

ربما كان الحل المعقول هو أن نستخدم العبوات الصغيرة لكل الأدوية . هذا ممكن . ولكن سوف ندخل فى مشاكل العبوات الدوائية وهى ولله الحمد أسوأ من مشاكل نقص الدواء فى مصر .

أيها المصران الغليظ كم من الجرائم ترتكب باسمك . □

إنها خرافات كالعلم

لم يعد خرافة : أن تكون هناك كائنات أكثر عقلا وتطورا تعيش فى الفضاء الخارجى . أى على مدى ألوف الملايين من السنين الضوئية (السنة الضوئية = ١٨٦ ألف ميل × ٦٠ ثانية × ٦٠ دقيقة × ٣٦٥ يوما) فقد تشكلت لجان على أعلى المستويات العلمية تتابع الأصوات المنتظمة المذبذبة والتى تجئ إلينا من الفضاء البعيد ، ولابد أن انتظامها يعنى أن هناك كائنات عاقلة جدا قادرة على ضبط هذا الإيقاع وتوجيهه انتظارا لرد من أحد . ولكن أحدا لا يرد . فقد تردد العلماء الروس والأمريكان والبريطانيون فى الرد على هذه الكائنات الأكثر عقلا . خوفا علينا منهم . فمن أدرانا أن هذه الكائنات الأعقل ستفتك بنا ، كما فتك البيض الأوربيون بالسود ونقلوهم عبيدا إلى أمريكا . فربما كنا بالنسبة لهم نوعا من البدائيين المتخلفين عقليا وعلميا . فالعقل والحضارة نسبية .

وعندما ألفت منذ سنوات كتابا بعنوان « الذين هبطوا من السماء » وزودت هذا الكتاب بالصور القاطعة على صحة كل المعلومات ، تطوع بعضهم وقال

ما معناه : إن الكتاب يضم خرافات كالعلم ، وعلما كالخرافات – ولم يقصد الكاتب طبعا أن يمتدح الكاتب والكتاب وإنما يقول إن كتابه يحسبه الجاهل علما ويحسبه العالم جهلا ، وأرى أن هذا بالضبط ما أردت . فالعلم تطور لدرجة أن أحدا لا يصدق هذه القدرات الإنسانية . فمن الذى يصدق أن محطات المتابعة الأرضية تعرف بدقة أن بنطلون رائد الفضاء له زرار واحد مفكوك . وأن أحدهم عنده مغص . وأنه من الأفضل أن يتناول بعض أقراص الفحم . وأن واحدا منهم عندما حاول أن يخيط جانبا من الشوال الذى يحملون فيه عينات القمر ، قالوا له ليس هذا الخيط . إنه أضعف من أن يحتمل أشعة الشمس الملتهبة . . كيف رأوا هذا الخيط ؟ وكيف عرفوا نوعه ؟ وكيف قدروا ذلك على مدى ربع مليون ميل ؟ .

وقد آمنت تماما بأن حضارات أكثر عقلا جاءت إلى هذه الأرض . وأقامت وتركت آثارها التكنولوجية المتطورة جدا . وكيف أن سفن الفضاء قد سقطت فى سيبيريا وأضاءت أوربا كلها ، وكيف أن هذا الانفجار كان فوق الأرض وليس عليها . . وكيف أن حوادث سودوم وعمورة فى فلسطين ، لم تكن سوى انفجارات نووية . وكيف أن ما جاء فى الكتاب المقدس من نزول سفن فضاء تدفع لهبا إلى الأمام والخلف بالقرب من بغداد ، وكيف أن أحد أنبياء اليهود قد رأى ذلك ووصفه بمنتهى الدقة . وكيف أن هذا الحادث قد تكرر عشرات المرات فى الحبشة والتبت وبيرو . . وكيف أن النقوش الموجودة فى كهوف تسيلى على الحدود بين ليبيا والجزائر ليست إلا تسجيلا رائعا لرواد الفضاء وسفن الفضاء – وكل ذلك صحيح مائة فى المائة . ولم أكن مخرفا . وإنما كنت قارئا لعشرات ومئات من الكتب التى صدرت حديثاً فى أوروبا وأمريكا وروسيا ، وكانت بعيدة عن أيدينا وخيالنا

إن ما تنشره الصحف العالمية والعربية هذه الأيام ، يؤكد أن هناك حضارات أخرى أكثر تقدما ، تعيش بعيدا وتريد أن تعرف من نحن وأين نحن لعلها تأخذ بيدنا إلى القمة أو إلى الهاوية . □

طه حسين : ذلك المتمرد !

في نهاية الجزء الثالث من كتاب « الأيام » لعميد الأدب العربى د . طه حسين يروى موقفه من ثورة ١٩١٩ . كيف تحمس لها . وكيف انه كان لابد أن يأخذ منها موقفا . ويستحيل أن يتفرج عليها وأن يكون محايدا لهذا الحدث الجليل . وانغمس فى السياسة وغرق حتى أذنيه . ولم يفكر كثيرا فى عاقبة هذه الحماسة . وكان موضع عطف القصر الذى شجعه وأعانه - ولكن عندما قرر ثروت باشا وضع الدستور على أساس ديموقراطى . وقف طه حسين إلى جانب الدستور ، وإلى جانب ديموقراطيته - طبعا . ولكن القصر ضاق به . وأخبره ثروت باشا أنه منذ وقت طويل يحاول أن يصلح بين طه حسين وبين القصر . وكان الأولى برئيس الوزراء أن يصلح ما بينه هو وما بين القصر . ووجد طه حسين أنه لم يحقق رضا أحد . فالسعديون يرونه مارقا قد وقف إلى جوار المارقين ، والقصر يراه كافرا بالنعمة جاحدا للجميل . وطه حسين يرى أنه قد أرضى ضميره وأدى واجبه وليكن بعد ذلك ما يكون .

يقول طه حسين : « غرق صاحبنا فى السياسة إلى اذنيه ، وكان جديرا أن يفرغ للعلم والتعليم وألا يفكر إلا فى طلابه وكتبه ، ولكن بعض الظروف تحيط بالشعوب فتجعل الحيدة بالقياس إلى بعض أبنائها إثما لا يغتفر ، ولا تمحى آثاره » .

وهذه العبارة تكشف لنا روح طه حسين المتمردة المقاتلة . وكيف أنه أقام مجده على الصلابة واستقلال الرأى . والوقوف إلى جانب المبدأ ، مهما كان ثمن ذلك وقد دفع طه حسين هذا الثمن فادحا فيما بعد ذلك من سنوات .

ولكن هذا الجزء الثالث من « الأيام » قد وعدنا به أستاذنا العظيم منذ وقت طويل . وصدر الكتاب سرا . كأنما أراد طه حسين أن يجعل فى هذا الصدور نوعا من التأنيب لنا نحن الذين تعجلناه ونسيناه بعد ذلك . فلما صدر الكتاب لم يشعر به أحد . فى لحظة واحدة كشفنا طه حسين أمام أنفسنا . وكسب نقطة ضدنا . كيف نتعجله وننساه ؟ وكيف إذا صدر ألا نشير إلى ذلك بسرعة . وكيف يؤلف طه حسين العظيم هذا الجزء الممتع من سيرته الذاتية ، ولا نقول للناس إن الأستاذ العظيم لا يزال كما عهدناه من عشرات أو عشرينات السنين . فالعبارة موجزة . والروح شابة ثائرة . وقدرته على الأداء الجميل فى قمتها . كأنه كتب هذا الجزء الثالث ، قبل الجزء الأول . فأنت لا تفرق بين ما قاله من خمسين عاما ، وما قاله اليوم . .

ثم اقرأ هذه العبارة الرائعة التى ختم بها طه حسين كتابه دون وعد بتكملته فى جزء رابع أو خامس : « لقد رأى نفسه ذات يوم وليس بينه وبين المحنة إلا خطوة إلى أمام ، وليس بينه وبين العافية إلا خطوة إلى وراء ، وأن أصدقاءه المحبين له العاطفين عليه الذين لم يكونوا يملكون له فى تلك الأيام إلا المشورة والنصح ، ليلحون عليه فى أن يؤثر العافية ولو وقتا قصيرا ، فلا يسمع لمشورتهم ولا يحفل بإلحاحهم وإنما يخطو خطوته تلك إلى أمام . فيلقى بنفسه بين ذراعى وجبة الأسد كما

بقول الشاعر القديم. وما أمضّ ماوجد ووجد أهله معه من ألم وما أمر ما ذاق وذاق أهله معه من شقاء . ولكنه كان يستحب تلك الشدة الشديدة ، والقسوة القاسية على العافية واللين . » .

ولذلك أصبح بعد ذلك طه حسين . □

القدوة الحسنة !

ما الذى يجعل القانون على رقاب العباد ؟ ما الذى يجعل الناس تحمر وجوههم إذا رأوا علامة المرور الحمراء ، وما الذى يجعل الناس يتنفسون بعمق أو على راحتهم إذا رأوا لون المرور الأخضر؟ .

لا شئ إلا قوة القانون . ومن أين يأتى القانون بقوته ؟ القانون يستمد قوته من الناس ، من احترام الناس له . وهذا الاحترام يجعل القانون أكبر من الناس ، أعلى من الناس ، سياجا حول الناس . والقانون يصبح أعلى من الناس ، عندما لا يكون شخص واحد ، أيا كان هذا الواحد ، أعلى من القانون . . أى عندما لا توجد « ثغرة سرية » أو فتحة خاصة يخرج ويدخل منها هذا الشخص الواحد . هنا فقط يكون القانون مثل السيف قاطعا لكل يد أو رجل تحاول أن تدوسه أو تتخطاه أو تعبث به .

فإذا وجد الناس أنه لا أحد فوق القانون ، انحنى الناس للقانون . لأنه يسوى بينهم . ولأنه سقف فوق رءوسهم ، وسور يدور حولهم . وهذه هى القدوة الحسنة .

أى هذا هو التطبيق العظيم الاحترام . فرجل القانون لا يدوس القانون . ورجل الأمن الذى يرعى ليلا ونهارا تطبيق القانون ، يجب أن يكون أول من يضع القانون على رقبته .

هنا فقط يستريح الناس ، حاكمين ومحكومين . إننا نقرأ عن رجال مرور أعطوا للوزراء مخالفات فى بريطانيا وفى الدنمرك وأحيانا فى فرنسا . ولا تكتب عنهم الصحف إلا نادرا . لأنه ليس غريبا أن يخطئ الوزير ويعاقبه الخفير . هذا طبيعى . فالمخطئ هو المخطئ أيا كان موقعه من إدارة شئون الدولة ، فرجل المرور وزير للشارع يحكم ويعاقب . وليست له مصلحة شخصية ، إلا سيادة القانون .

وقد تلقيت رسالة من فتاة فى الثانوية العامة وشقيقها فى كلية العلوم . يشكوان من أن أحد رجال الأمن يضع فى بلكونته « كلب وولف » . وأنهما لا يقدران على المذاكرة . ولا وسيلة إلى لفت نظر رجل الأمن ، وطبعا لا طريقة لعقوبته ، فمن الذى يرضى أن يسجل محضرا ضد رجل أمن له هذا المركز ؟ لا أحد طبعا . ومن الممكن لفت نظره يوما ، ولكن بقية الأيام ماذا يفعلون ؟ .

وإذا كان رجل الأمن يضع كلبا يزعج به الناس دون أن يعبأ بالناس ، مرضى أو تلاميذ ، فمن حق المواطن العادى أن يضع فى البلكونة معزة . وفوق السطوح عجلا ، وتحت السلم دجاجًا وبطًّا ، وفى الأسانسير كتاكيت وأرانب . كل هذا ممكن . لأن الرجل الذى يجب أن يكون قدوة حسنة للمواطنين ، لم يؤد هذه الأمانة . فغلطته ليست غلطة واحدة ، وإنما غلطة مضروبة فى عدد الناس فى كل مكان . . والمثل الشعبى يقول : إذا أبوك رقص يابنت ، طبلى وزمرى .

والشاعر القديم قال :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا
فلا تلم الصبيان فيه على الرقص

فما بالك إذا كان بعض الناس الذين هم مثل عليا لغيرهم ، يرقصون عراة دون خوف أو حياء؟ ! . □

« قولونيا » العظمى !

أنا واحد من رعايا دولة اسمها « قولونيا العظمى » — نسبة إلى القولون الغليظ . هذه الدولة مع الأسف لا يعرف أفرادها بعضهم البعض ولا يلتقون إلا نادرًا . ولكن لهم علامات واحدة معروفة . انهم يضعون أيديهم على الجانب الأيسر من البطن . وأحيانا على كل البطن . وفى الليل من الصعب أن يناموا على جنوبهم . لأنهم إذا مالوا على هذا الجانب قالوا : آه . وإذا ناموا على الجانب الآخر قالوا مرة أخرى : آه . . مرة يقولونها لأن القولون يوجعهم ، ومرة أخرى يقولونها لأنهم يشعرون بضيق فى التنفس ووخز فى الصدر ومغص فى البطن وتقلص فى المعدة . . وهؤلاء المواطنون ممنوعون من أكل الشطة وأكل الملح . . وشرب القهوة وشرب الساخن وشرب المثلج . . وممنوعون من أكل البيض والبصل والطماطم والخيار والزبادى . وممنوعون أيضا من أكل الأطعمة المخاطية مثل الملوخية والبامية . . ومحرم عليهم أن يأكلوا الأطعمة الليفية ، أو ذات الألياف مثل السبانخ والمانجو والبطيخ . . والبرتقال واليوسفى . . وعليهم أن يحترسوا

من الإسهال ومن الإمساك ، ومن الحبوب الملينة ، ومن المساحيق التى تمسك البطن . . وعليهم ألا يصابوا بأرق - لأن الأرق يرهق الجسم ، وفى نفس الوقت يوجع المصران وعليهم ألا يتناولوا الحبوب الملينة لأن الحبوب الملينة تصيب المعدة والأمعاء بالكسل وهذا يؤدى إلى الإمساك . هل رأيت إلى أى حد هم مساكين مواطنو قولونيا ؟ .

ولكن أكثر من ذلك أننا قد اهتدينا أخيرا إلى دواء سويسرى تنتجه شركة « واندر » فى مصر . الدواء اسمه : اسبازمو كانويوليز « ٣٠ قرصا فى العلبة الواحدة » . هذا الدواء اختفى من مصر . ولا داعى لأن أؤكد عدد الأطباء الذين أوصيتهم بالبحث عن هذا الدواء فى أى مكان وبأى سعر . وربما أكون أحسن حظا من كثيرين ، فقد أعثر على علبة أو اثنتين فى وقت قريب - أرجو هذا .

وعيب هذا الدواء أن المريض يجب أن يأخذه فترة طويلة ، فهو ليس مثل الاسبيرين ، قرص أو ثلاثة تكفى . وكان أحد الأطباء الألمان قد وصف لى أن أتناول هذا الدواء قرصين قبل الأكل ثلاث مرات فى اليوم لمدة أسبوعين ، وأن آخذ بعد الأكل دواء ألمانيا جديدا اسمه هولاكومبون . واسترحت إلى هذا العلاج . وجاءت لحظة الفراق بينى وبين هذه الأدوية جميعا . ولو رشحت نفسى رئيسا لدولة قولونيا ، لانتخبت بالاجماع فالذى أعانى منه لا يوصف . . جالسا وواقفا ونائما ، ومنفعلا وممسكا نفسى عن الانفعال .

ولا يمكن أن يكون رعايا هذه الدولة فى مصر أقل من عشرين مليونا . فنحن جميعا ولأسباب مختلفة أعرفها ولا داعى لذكرها هنا ، مصابون بالقولون . . وحاجتنا إلى هذا الدواء موجعة خانقة نافخة ملتهبة شائكة - وهى جميعا أعراض

القولون ، ونحن نشعر بها فى نفس اللحظة التى ننظر فيها إلى تلاشى أقراص العلبة - فكأننا مصابون به ، إذا وجدنا الدواء ، وإذا نفد عادت إلينا الأعراض والأوجاع من جديد .

لله يامحسنين لله . □

فقط : الحمام الساخن !

عندك أولاد ؟ .

عندك مرض ليس له علاج ؟

ليس عندك أولاد ؟

أنت فى نعمة لا تشعر بها .

تريد أن يكون عندك أولاد ؟

أنت ضعيف الذاكرة ، اسأل والديك كيف ربياك – ثم كيف لم يفلحا فى ذلك ؟

إلا أحد شيوخ قبائل الأشانتى . انه متزوج من أربعين زوجة . وعنده مائتان وعشرون من الأولاد . وفى غاية الصحة والقوة . ولابد أن يكون كذلك – لأنه ما هو المجهود الذى يبذله الرجل لكى يكون له طفل . إنه مجهود المتعة والاتجاه إلى زوجة أخرى وعلى المرأة أن تتوحم وأن تحمل وأن تلد وأن ترضع وأن تربى . وفى نفس اللحظة التى يتنقل فيها الزوج بين زوجاته اللاتى استعدت كل واحدة للقائه

حسب الجدول المعلن على باب الخيمة . أعدت له الحمام الساخن المعطر ، وارتدت وخلعت أجمل ثيابها وأتت له ببعض العازفات . وأعدت له الطعام والشراب الذى يذهب برأسه ويلقى به بين أحضانها لتكون أكثر ذرية من زوجاته الأخريات . فإذا طلع النهار عليه نائما ، لابد أن يكون نائما ، فإن زوجة أخرى تستعجله أن يكمل نومه عندها . وقبل أن ينام تصب عليه الماء الساخن لتطهره من رائحة الزوجة الأخرى . ويظل شيخ القبيلة ينتقل من حمام بالورد إلى حمام بالمسك ومن زوجة فى الثانية عشرة إلى زوجة فى الثانية والعشرين . . وتجئ الأولاد بعد ذلك . وقد سئل مرة الزعيم الأشانتى مائيلا تونجورو : وهل أنت سعيد ؟ فأجاب : وما الذى تراه فى وجهى ؟ وكان الرد عليه طبعا : منتهى الحياة والحيوية ، والشباب والقوة .

وتساءل الزعيم الأشانتى : إذا كان هذا رأيك فلماذا لا تأخذون الحكمة عنا نحن الزنوج . ؟

السؤال وجيه . ولكن لا إجابة عليه . وضحك جدا هذا الزعيم عندما عرف أن الدين المسيحى لا يبيح إلا زوجة واحدة مدى الحياة . وجاءت بعض زوجاته ينقذنه من هذه الضحكة الهستيرية حتى لا يموت . ثم نشرن حوله فروع الشجر ، ونثرن حوله الماء المسحور حتى لا تصيبه العين . . ولما سمع أن الدول الإسلامية فى طريقها إلى عدم تعدد الزوجات . ولما سأل قيل له : إنها اعتبارات اقتصادية فقط . لم يفهم هذه الكلمة ، فقيل له إن الرجال لا مانع عندهم ، ولكن من أين يأتون لزوجاتهم بالطعام والشراب والملبس وأشار الزعيم الأشانتى إلى زوجاته : إنهن بلا ملابس تقريبا . ويأكلن من ثمار الغابة . . وتنام كل واحدة فى خيمة . ولا شجار بينهن . فهو الزعيم وهو الزوج – هذا هو القانون وكفى ! فكيف لا يكون فى العالم كله شئ من ذلك ، أو كل ذلك ؟ . ولم يفلح أحد فى أن يرد عليه أو

يناقشه . وهو مؤمن بأن العالم كله مغفل ، وأنه هو وقبائله على حق – وإلا فانظروا إلى هذا الوفاق والسلام بين كل أفراد القبيلة .

وعندما سئل إن كان يعرف أولاده قال : ولماذا أعرفهم . . أمهاتهم تعرفهم .

– ولا تحب أولادك ؟

– أحبهم .

– ولا تفضل منهم واحدا على الآخرين ؟

– انني لم أجعل زوجة أفضل من زوجة فلماذا أجعل ولدا أفضل من ولد ؟

وقالت مجلة « بريجيتا » الألمانية فى نهاية هذا اللقاء العجيب : كذاب كل قارئ لا يتمنى أن يكون هذا الزعيم ؟

فما رأيك ؟

كذاب أنت أيضا . . أيا كان رأيك . □

المطلوب : شمعة تضىء

صحيح ما الذى يجب أن يفعله الكاتب فى الأزمات ؟ ما الذى يكتبه القلم والناس فى حاجة إلى هداية ؟ وما هى الهداية ؟ وإذا نظر الناس إلى كل صاحب عبارة على أنه نموذج وأسوة حسنى ، فكيف ينسى الكاتب ذلك ؟ وإذا لم يقل الكاتب كلمته فما الذى كان يصلح له . .

ذكرنا الرئيس السادات الذى كان صحفيا وكان كاتبا والذى عمل مع أكثر الصحفيين والكتاب ويذكرهم واحدا واحدا وبالإسم . وهو سعيد بهذه الزمالة والصداقة . ونحن أيضا ولا شك .

مصر فى محنة . هذه حقيقة . ونحن نعانى التمزق ، ولكن يجب ألا يؤدى التمزق إلى الانفكاك والتحلل من كل القيم ، أو نتحلل قبل كل شىء من التاريخ ، ومن رسالتنا .

وفى مثل هذه الظروف مطلوب من الكاتب ، أو هذا واجبه المقدس ، أن

يصور الناس للناس . يقول لهم من أنتم . ولماذا أنتم هكذا . ثم ما هو الحل ؟ ولكى يكون هناك حل ، يجب أن تكون أنفسنا شيئا أقوى من الألم . وإذا كانت هناك دموع فهى ليست طوفانا نغرق فيه ، وإنما هو طوفان ننجو منه كما فعل نوح . ونوح عليه السلام قد بنى سفينته على الأرض وقبل الطوفان . وكان الناس يمرون به ضاحكين . كيف بنى على الأرض ما لا يتحرك إلا بالماء . . وبالماء العميق . فقد غرقت الدنيا وطفا هو ونحن يجب أن نصنع للناس سفنا للنجاة ، قبل أن يكون هناك غرق فى دموع الحزن أو دموع الندم ، وقبل أن يكون هناك اليأس التام – أى اليأس من أن تستجيب عيوننا لحالنا فتبكى علينا .

يجب على الكاتب – أن يكون قلمه شمعة تضئ . وأن تكون عباراته طرقا للخلاص . وأن تكون معانيه نجوما فى سماء الضياع . كأننا نسينا ذلك بعض الوقت . ولكن يجب أن نتنبه وبعنف . وأن نحمل أقلامنا سلاحا فى أيدينا ، وسلاحا لغيرنا وسلاحا على أعدائنا . فالناس يثقون بنا . وينتظرون منا ما يجعل الحياة أجمل وأكثر احتمالا . والمستقبل هو عصرنا الذهبى الذى نحلم به . وكل الشعوب التى تقدمت هى التى أدمنت طعاما رائعا باهرا اسمه : المستقبل :

وفى العالم دولتان لا تكفان عن هذا الطعام هما أمريكا وروسيا . فأمريكا ليست لها عصور ذهبية وراءها . كل الحياة أمامها ، وكل العيون تتجه إلى الأمام . والذى يملك الدولار يحلم بالمليون ، والذى يملك المليون يحلم بالملايين . . وفى روسيا التى حطمتها النازية وأبادت مزارعها ومصانعها ، وشبابها . . ولم يكن لديها سلاح يكفيها فاستعارت من أمريكا أعدى أعدائها : طعاما ومالا وسلاحا لكى تنتصر على النازية . وانتصرت روسيا ، وقامت من أكبر هزيمة لدولة كبرى . وقفف الرجال والنساء والأطفال وراء الأحجار والأشجار وأصبحت لهم صلابة الحديد وصمود

الغابات . وانتصرت . ولا يزال هذا هو أسلوبها فى الحياة وتقديس التاريخ : الذى هو سجل لمزيد من الرغبة فى التحرر .

ونحن أحوج إلى إقامة المثل العليا ، وفتح الطرق على المستقبل وإلى الإيمان المطلق بأن النصر لا بديل عنه لنا . . فأما النصر المؤكد أو الهوان الطويل . . ونحن نفنى ولا نهون – كما يقول نشيد أم كلثوم .

ولكننا فى بعض الأحيان ننسى ذلك . .

ويجب أن نذكِّر – بتشديد الكاف وكسرها – والذكرى تنفع المؤمنين . المؤمنين بالله وبأنفسنا وبأن النصر غايتنا ومصر أمنا العزيزة بها ولها ومنها وعليها ومن أجلها نعيش كراما ونموت كراما . □

تقديس الموتى !

من المؤكد أننا من عباد الموت . وأن الواحد منا كلما اقترب من الموت كان مثيرا للعطف والتقدير . فإذا مات فهو الرجل الطيب الكريم العف اللسان . . والعبقرى أيضا . وإذا كان مريضا قلنا مسكين عنده أولاد صغار . أى أننا لا ننظر إليه كمريض سوف يشفيه الله ، ولكن على أنه مريض سوف يتوفاه الله ، ولهذا يستحق منا العطف . أما إذا كان سليما فإننا نقول : ما له ؟ صحته كالحديد ، ومرتبه كبير ، وأولاده كلهم ناجحون . . ثم إنه من أصل متواضع جدا وربنا فتحها عليه . كل ذلك لأنه حى . فهو لا يستحق الشفقة ولكن يستحق منا كل حقد عليه وعلى أولاده وعلى مستقبله . أما الكلام عن ماضيه فهو نوع من الشتيمة له . ونوع من اتهامه أنه ناكر لنعمة الله عليه ، وأنه نسى أصله وفصله .

وإذا انتقلنا إلى الناس الممتازين أو العظماء أو الواعدين بأن يكونوا شيئا له قيمة ، فإننا نغرقهم بالمديح ونضيف إلى أمجادهم الوهمية أمجادا أخرى ، لا أحد

يعرفها ، ونتحدث عن رقتهم ولطفهم وتوقعهم للموت فى أى لحظة . فكأن الموت لم يغدر بهم ، وإنما هم أحسوا به قبل أن يجئ . فكأن موتهم كان مفاجأة لنا ولم يكن مفاجأة لهم . . وهؤلاء الممتازون عندما كانوا أحياء ، لم يحظوا بكلمة واحدة من كل ذلك . وكأننا ننتظر موتهم لنترحم عليهم . ونتفضل عليهم بالاحترام والإجلال والتقديس . لماذا ؟ لأنهم ماتوا . وقد تنبه الأديب السويسرى ديرنمات فى مسرحيته « الشهاب » التى ترجمتها ونشرتها إلى هذا المعنى . فأتى بأديب على فراش الموت . وأخطأ الأطباء فى تشخيصه وقالوا إنه مات . ولكنه فى الحقيقة لم يمت . واستمع الأديب إلى رأى النقاد والناشرين . ما أروع ما قالوا . وكانوا يهدمونه حيا ، فلما مات أرادوا أن يبنوه ميتا . وكانت المفاجأة ، صحا الأديب من موته ، أو من نومه ، وكان هذا الصحو إعلانا حيا بأنهم كاذبون . وثار عليه الجميع لأنه أحرجهم ودفعهم إلى الكذب ، وأحرج الطبيب وأحرج القسيس الذى صلى على روحه الطاهرة . وطالبه الجميع بأن يموت من جديد حتى لا يؤدى إلى كفر الناس . لأن زمن المعجزات قد انتهى .

وشاعرنا الفقير المسكين حافظ إبراهيم كان لا يجد الطعام ، بينما كانت وزارة الأوقاف تعثر فى صندوق النذور للسيد البدوى على مئات الألوف من الجنيهات . وقد آلمه وأحزنه ذلك فقال قصيدته المشهورة وفيها يقول :

من لى بحظ النائمين بحفرة
قامت على أرجائها الصلوات
أحياؤنا لا يرزقون بدرهم
وبألف ألف يرزق الأموات

الاحياء لا رزق لهم ، والرزق كله للأموات – مالا وتقديرا وإعجابا . .

وهذا ما نفعله اليوم وكل يوم – لا قيمة لإنسان حتى يموت . ولكن ما الذى يدريه الموتى من كل ما نقول ؟ لا شيء . فمن الذى نقصده بهذا التمجيد ، لا نقصد إلا أنفسنا . . لكى يقال إننا قلنا ، وتأثرنا وحزنا . ولكن هذا لا يغرى أحدا بأن يموت ليعيش على جثته وعلى ذكراه . فنحن نعرف أننا كذابون ، ولكنه تقديس الموتى الذى ورثناه عن الفراعنة . □

نحن مع الآخرين : لا مبالاة !

تمشى فى شارع طويل مظلم وتفاجأ عند نهايته بأن الطريق مسدود . وأنه يجب أن تعود من حيث أتيت . أنت والعربات التى تحركت وراءك . وفى ذلك صعوبة خصوصا إذا كان ذلك بالليل .

وفى أحد المبانى الحكومية تقف أمام الأسانسير . وتضغط على الزرار . ولا يحدث شئ يدل على أن لدى الأسانسير أية نية للحركة . إنه معطل .

وتركب الأتوبيس فإذا السائق لا يقف فى المحطة التى اعتاد أن يقف فيها . لماذا لأن عنده سببا لم يشأ أن يذكره . وعلى الناس أن ينزلوا ويعودوا إلى بيوتهم على أقدامهم . ويكون عادة فى الشتاء المطير أو فى الحر الحارق .

وتتأخر الطائرة عن موعدها ساعة واثنتين وثلاثا . وأحيانا عشر ساعات . ولا تجد من يقول لك كلمة واحدة عن سبب التأخير .

وتبعث أنت طلبا لإحدى المصالح الحكومية . وتطلب الرد عليك بالنفى أو الإيجاب . فلا أحد يرد عليك ، وتسافر أنت من بلدك لتعرف . فلا تجد من يقول

لك شيئا . وأسهل إجابة تلقاها أن يقال لك لم يصلنى خطابك . وتقول إنك أرسلته بالبريد المسجل . ويكون الرد هو هو . ولا تعرف ما الذى يمكنك أن تفعله . تضرب كفا بكف أو تضرب خديك . ويسكت كل شئ حولك . وتبدأ الشكوك تدور وتطيح برأسك .

وغير ذلك يحدث فى كل مكان .

والمعنى أن لدينا إحساسا ضعيفا بالآخرين . وهذا الإحساس هو جزء من اللامبالاة العامة . والسلبية وروح الفرجة على كل شئ دون المشاركة فيه .

مع أن راحة الجمهور فى هذه الحالات سهلة جدا . أن نقول للناس كلمتين . أن نرسم لهم علامة على الأرض . أن نكتب سطرين فى خطاب . إذا كانت الخطابات المطلوبة كثيرة ، فليس أكثر من المواطنين المتعطلين المكدسين فى كل مكان يعوق الواحد منهم عمل الآخر . فهم زحام يجعل الحركة صعبة والعمل استحالة .

مثلا كم يتكلف صاحب العمارة أن يكتب على الباب أن سلم العمارة لم يكتمل . وأن الأسانسير لم يتم تركيبه وأنه خطر . . كم تتكلف هيئة النور والكهرباء أنْ تحكم إغلاق أعمدة النور على الأسلاك العارية . . أو كم يكلفها أن تغطى الأسلاك العارية – وهيئة المياه والمجارى كم يكلفها أن تغطى البالوعة . . أو إذا كانت منزوعة أو مسروقة ، كم يكلفها أن تضع فانوسا أحمر . . أو حبلا به منديل أحمر . . لا يكلفها مجهودا عظيما . ولكن الصعب جدا علينا هو الشعور بالغير . الشعور بالمسئولية نحو الآخرين . وهذا أكبر دليل على أننا لم نكبر وإنما الذى كبر فينا هو الإهمال والاستخفاف بكل ما لا يهمنا نحن بصفة خاصة . . لأننا مشغولون بأنفسنا ، كأفراد . عن كل ما عدانا من الناس . ☐

النوم عند الفجر !

بالشروق يبدأ النهار ، وبالغروب يبدأ الليل – طبعا ليست هذه حقيقة جغرافية أو فلكية جديدة . ولكنى أرى أنها جديدة . فلم أعرف الفرق بين الليل والنهار . فالناس ينامون ليلا ويصحون نهارا . ولكنى لم أعد أنام لا ليلا ولا نهارا . والناس يعملون نهارا أو ليلا . ولكنى أعمل فى الليل والنهار ولذلك لا أعرف متى أبدأ ومتى أنتهى . فأنا فى حالة بداية لا نهاية لها .

والذى ليس نائما هو فى حالة يقظة . والذى لا ينام هو فى حالة أرق . ولم أعد أعرف الفرق بين اليقظة والأرق فنى الحالتين ، أنا ملتهب العينين ، مصدع الرأسين . فأنا لى رأس واحد ، ولكن من عجائب المخلوقات أننى أجد رأسى كل يوم رأسين ، واحدا يميل على اليمين وبه صداع وواحدا يميل على اليسار وبه صداع . ومفروض أننى أحمل الرأسين معا . والمسافة بين هذين الرأسين أمسكها أو أسندها على كفى . وليس حرصى على أن أضغط رأسى على المخدة متقلبا على كل جانب ، إلا أملا أو يأسا من أن الصدع فى رأسى لم يلتحم بعد .

وأنا أعتقد الآن أن هنا أكثر من جانبين . . أحيانا أربعة وأحيانا ستة وفى معظم

الأحيان عشرون . وليس فى استطاعتى أن أرسمها بالقلم . ولكن ألمسها الآن بيدى . فأجد أننى اسطوانة مضلعة . . كثيرة الأضلاع . وعند الوسط بالذات ينتهى أكثر من عمود فقرى . مؤكد أكثر من واحد . فإذا ملت فى جلستى إلى اليسار أوجعنى الذى إلى اليمين ، وإذا ملت إلى اليمين أوجعنى الذى إلى اليسار . .

وآخر اقتراح بالعلاج سمعته هو أننى يجب أن أمشى أثناء النوم . وهذه الوصفة احتاجت إلى شرح لكى أفهمها ولكى أكتبها الآن . الاقتراح هو أن أتهيأ للنوم . يعنى أغمض عينى وأضع كل أغطيتى فوق كتفى وأمشى فى البيت من هنا إلى هناك . عشر مرات . وفى رأى آخر لايهم العدد مطلقا . وإنما أمشى حتى أتعب . وبسرعة أدخل فى السرير . وسوف يجئ النوم . . أى المطلوب هو أن أحمل كل مسببات النوم ، تماما كما يحمل الجندى كل أسلحته . وأمشى حتى توجعنى قدماى أو ساقاى . فإذا حدث ذلك نمت . ولكن المشكلة هى أننى بالفعل تعبان مهدود الطول ، مهدوم العرض ، مهدر الراحة .

ولا أقدر على أن أحمل فراشى وأدور به مجنونا . ولكن المعقول هو أنه إذا أحسست بالرغبة فى النوم ألقيت بنفسى على الأرض . حتى لا أفكر فى هذا العمل الأبله الذى فعلت . فإذا بدأت أفكر فى ذلك راح النوم . وإذا راح لا يجئ .

أدخلت على هذا الاقتراح تعديلا معقولا . فقد تمددت على الفراش وحاولت أن أغالب التقلب على كل الجوانب . ورحت أتخيل نفسى رائحا غاديا . ورحت أجعل تنفسى منتظما لعل وعسى . . ولم أنم أيضا . وفعلت ما أفعله كل يوم – مع الأسف – ذهبت إلى مكتبى ورحت أقلب فى الكتب ، وأقف أقرأ . وطلع النهار ونسيت أن أنام . والشئ الوحيد الذى تذكرته بوضوح هو أن أكرر ذلك فى أول الليل لعلى أستطيع النوم عند الوقت الذى استراح الناس إلى تسميته بالفجر . □

فلوس أمريكا !

هبط سعر الدولار .

خبر خطير جدا يؤدى إلى انعقاد مجالس الوزراء فى بلاد أوربية لإنقاذ عملاتهم . لأن عملاتهم مرتبطة بالدولار وهم يخافون أن تغرق فلوسهم تحت ثقل الدولار . أو يخافون أن يكون هناك طوفان أمريكى يهدم القواعد النقدية للدول الأخرى ، ولذلك لابد من تعويم الفلوس . وأكثر الناس يقرأون كل ما يتعلق بالدولار . ربما لأنها معلومات عامة . وربما لأنهم يحلمون بأن تنهار أمريكا ويستريح العالم الحر من فلوس أمريكا وأسلحة أمريكا وجواسيس أمريكا .

والناس سعداء بانخفاض الدولار ، لأنهم يريدون أن يروا فى أمريكا يوما أسود . ولا يملكون أن يفعلوا لها شيئا ، فإذا حدث لها شئ ، وكان ذلك من السماء ، فرحوا لذلك .

قابلنى أستاذ جامعى . وقال لى : طبعا قرأت عن هبوط الدولار . قلت : نعم .

قال : ما رأيك ؟ قلت : ولا حاجة . ولا أعرف ما الذى يمكن أن يحدث لأمريكا أو يحدث لنا .

واندهش الصديق وهو يستنكر أننى لم أندهش . ولم أهتز . ولا حتى بدا على وجهى ما يدل على الشماتة . وكان رأيي : هات لى أستاذا آخر يشرح لنا هذا الخبر ، وأنا مستعد أن أفرح بالقدر الذى تريد وزيادة .

ولا هو فهم ولا أنا . ولكن لابد أنها الرغبة فى أن تصاب أمريكا بشئ ما .

وأذكر أنه حدث بعد حرب يونيو ، أن أصيبت إحدى حاملات الطائرات الأمريكية بحريق . وكان ذلك فى مياه فيتنام . وكان من عادة السيدة أم كلثوم أن تسألنى بقلق شديد عن أخبار الحرب وأخبار الأمم المتحدة . وكانت فى غاية التعاسة . فلما أخبرتها إن إحدى حاملات الطائرات الأمريكية قد احترقت ، قالت : الحمد لله . ألف نهار أبيض . إن شاء الله تتحرق لهم وتغرق لهم كل يوم ألف سفينة .

وزارنى مهندس فى طريقه إلى كندا وقال لى : أنا خسرت عشرين جنيها . فقلت له : كيف ؟ . قال : انخفض الدولار فجأة وكانت العملات التى معى بعضها من الاسترلينى وبعضها من المارك الألمانى .

ولم أعرف كيف حدث ذلك . ولا كيف حدث ذلك . ولا كيف حسبها . ولكنى سكت ، فهو على الأقل رجل واقعى . ورجل يفهم فى العملات والتحويلات . . ومعه حق إذا حزن على هذه الخسارة الفادحة وكلما سألنى أحد بعد ذلك يكون ردى المباشر المتأثر التمثيلى : شئ خطير . كارثة .

ولا أظن أنها كذلك ، حتى أفهم معناها الحقيقى . □

الخروج على الطابور !

عندما سافرت إلى انجلترا لأول مرة سنة ١٩٥٠ كنت أقف أتفرج على « الطابور » . ففى كل مكان تذهب إليه الانجليز يقفون على شكل طابور . . تحت الأرض أمام دورات المياه ، أو على وجه الأرض ، عند محلات السجاير أو ركوب الأتوبيس . وكان يقال لنا : إن الإنجليزى إذا لم يجد أحدا فى الطابور فإنه يقف على شكل طابور . ورأيت فى مدينة البندقة أثناء اضراب الجندول أن رجلا وزوجته قد وقفا فى طابور ، مع أنه من الممكن أن يقفا متجاورين حتى إذا جاء آخرون وقفوا جميعا فى طابور . . ولكنها العادة والنظام ، أو حب النظام واحترام القانون الذى ليس مكتوبا .

فإذا ذهب أى إنسان إلى انجلترا فإنه رغم أنفه يقف فى الطابور . ولو شاء أن يعتدى على الواقفين فى الطابور ويسبقهم إلى الشراء أو ركوب الأتوبيس أو دخول دورة المياه ، فإن أحدا لا يعترض . ولكن من نظرات الناس الصامتة يشعر أنه رجل همجى ، وفى استطاعته أن يفعل ذلك كل يوم . ولن يراجعه فى ذلك إلا رجل

أجنبى آخر . أما الإنجليزى فإنه لن ينطق بشئ . وسبب ذلك الهدوء أو البرود الإنجليزى . وسبب ذلك أيضا أن انجلترا قد امتلأت بالأجانب من كل دول الكومنولث ، وأن الانجليز يحرصون على أن يكونوا انجليز وأن يكون هناك فارق واضح بينهم وبين غيرهم . .

رأيت فى ميدان « الطرف الأغر » سيدة ومعها طفلها . الطفل فى الثالثة من عمره . ويمكن لهذه السيدة أن تحمل الطفل . ويمكنها أن توقفه إلى جوارها . وكلما حاول الطفل ذلك ، أعادته السيدة إلى مكانه من الطابور أمامها . وواضح أنها تريد أن تعوده على النظام وعلى احترام الآخرين ، ولا يشفع له أن سنه صغيرة . ولكن لأن سنه صغيرة يجب أن تغرس فيه الطاعة واحترام الآخرين .

وعندنا فى مصر بعض هذه الطوابير وخصوصا أمام دور السينما ، وأحيانا أمام الجمعيات . وأمام الجوازات . ولكن ماذا نرى ؟ نرى أناسا واقفين فى الطابور . ونرى أيضا مضضا وضيقا من الطابور . و وصراخا وزعيقا لأن حركة الطابور بطيئة ، ولذلك نرى أنواعا غريبة من « التسلل » . فالواقفون فى الطابور يطلبون من الواقفين فى أماكن متقدمة أن يشتروا لهم تذاكر أو يحجزوا لهم مكانا . . وهذا التسلل معناه : محاولة للغش . محاولة للإفلات من النظام . معناه الضيق بالانتظار . معناه نفاد الصبر . ومن الغريب أنك تجد الذى استطاع أن يحصل على تذاكر قبل دوره ، يفرح جدا . ويقف إلى جوار الطابور حتى ينطلق هو وزملاؤه . إذن فلم يكن على عجل . ولم تكن عنده مهمة أخرى ينجزها . ولكن فقط حقق شيئا أسعده : هو أن يهرب من الانتظار وأن يدوس الطابور وأن يخدع أحدا من الناس . .

إذن لم يحقق الطابور الغرض منه . فلا أحد ينتظر مع الصبر . ولا يصبر مع **احترام الآخرين** . ولكنه فى كل مرة يجد نفسه مقيدا ، يحتال على الموقف ويسرق **زملاءه** ، **ولذلك** فالطابور لا معنى له . والنظام لم يعد غريزة فينا ، وإنما الخروج على كل خط وكل نظام هو الذى ما يزال غريزة هدامة للفرد وللآخرين . □

جوعوا تصحوا !

حار العلماء فى تفسير الأسباب التى تجعل الإنسان طويل العمر . آخر ما اهتدوا إليه : الجوع .

فالجوع يجعل الجسم الإنسانى مستريحا معظم الوقت . فالمعدة لا تعمل إلا قليلا والكبد لا تفرز ولا البنكرياس والأمعاء لا ترهق نفسها فى الامتصاص والطرد . أى أن الجسم على راحته .

أما الإنسان الذى يأكل كثيرا فهو الذى يهد حيله فى الأكل والمضغ والهضم والامتصاص والإفراز وغالبا ما يكون بدينا . وهذه البدانة ترهق القلب الذى يجب أن يضخ الدم إلى الجسم الضخم . والإنسان النحيف أطول عمرا من الإنسان البدين .

وقد استنتج بعض العلماء أيضا أن حبوب التخسيس تطيل العمر أيضا . لأنها تجعل الجسم رشيقا ، والجسم رشيق لأن صاحبه لا يملأ معدته بالأكل . ولكن عيب حبوب التخسيس أنها مثل كل الأدوية . والأدوية تشبه الصابون الذى ينظف

الملابس وهو فى نفس الوقت يمزق خيوطها . وكذلك الأدوية من أى نوع تشفى وفى نفس الوقت توجع القلب وتحرق جدران المعدة وتجعل الإنسان مستعدا فى أى وقت لأن يصاب بقرحة فى المعدة أو فى الأمعاء . . كما أن بعض الأدوية تتحول إلى سموم إذا أضيفت إليها أدوية أخرى . ومعظم الناس لا يعرفون ذلك . والذين يعرفون – وهم الأطباء – أقل الناس تناولا للدواء .

ومن مظاهر الجوع التى تطيل العمر : أن الإنسان لا يأكل اللحم كثيرا . وأن يكتفى بالفاكهة . وأن يشرب من ماء النهر مباشرة . وماء النهر ليس نقيا ولا خالصا من الطفيليات . فهل هذه الطفيليات هى التى تطيل العمر . صحيح هناك بعض البكتريا مفيدة للإنسان ، ولكن هل معقول أن البكتريا أو الفطريات أو الطفيليات الموجودة فى الماء تحمل أشكالا وألوانا من الميكروبات تطيل العمر . .

وقد اهتدى طبيب أمريكى إلى أن التعرض لأشعة الشمس يقصف العمر . ولذلك قصرت أعمار أبناء المناطق الحارة . ولكن فى نفس الوقت قصرت أعمار الإسكيمو سكان المناطق الجليدية . . فهل الحر الشديد مثل البرد الشديد ، يميت فى سن مبكرة ؟

إذن فما الذى يطيل العمر ؟

لا توجد إجابة واحدة عن هذا السؤال اتفق عليها كل العلماء . هناك عشرات الأسباب تطيل العمر . . وتنتهى الأبحاث كلها بأنها لا حظت وسجلت وفسرت ولم تهتد إلى إجابة شافية واحدة .

ولكن يريح الإنسان نفسه لو قال : الله أعلم . □

القدوة الحسنة !

لا أعرف إن كانت كراريس الطلبة لا تزال تحمل على ظهرها « الوصايا العشر» التى تقول : اغسل يديك قبل الأكل وبعده . . قص أظافرك . . امسح حذاءك . . »

فإذا لم تكن هذه النصائح موجودة فمن الواجب أن تكون هناك . لأن الإنسان فى حاجة إلى من يقول له ذلك طفلا وشابا ورجلا ، والذى يتعلمه الطفل وهو صغير سوف يبقى وقتا طويلا . . صحيح أن الطفل لا يعرف قيمة هذه النصائح ، ولكن سوف يعرف أهميتها فيما بعد . ولكن من المؤكد أن والدى الطفل أحوج ما يكونان إلى هذه النصائح .

أنظر – مثلا – إلى الكبار . سوف نجد أيديهم غير نظيفة . أظافرهم متسخة . أحذيتهم مثل أظافرهم مثل أسنانهم . ما هذا ؟ ألا يوجد ماء فى أى مكان . ألا توجد ورقة أو قطعة قماش يمسحون بها الحذاء . قد يقول لك الواحد منهم أنه جاء إلى عمله ماشيا على قدميه ، والشوارع بها تراب فنحن بلد التراب والذباب .

ولا حيلة لنا فى ذلك ، فالصحراء من حولنا ، وأكوام الزبالة فى بيوتنا . ولكن عندما عاد إلى عمله ، فنى استطاعته أن يأتى بورقة ويمسح حذاءه . وقد يقول لك إنه يفعل ذلك قبل أن ينزل من البيت ولكن الناس فى الأتوبيس تتكفل بتغيير لون الحذاء والقميص وتغيير دمه هو أيضا . ممكن . . ولكن بعد أن عاد إلى مكان عمله فى استطاعته أن يصلح ما أفسده الزحام . . وقد يسألك ولكن : لماذا ؟ وهو يقصد لماذا يمسح حذاءه . خلاص راحت عليه . ويا الله حسن الختام ، وهى عبارات معروفة ، ولكن أحدا لا يناقش معناها . ولابد أن تناقشه : كم يكلفك من المجهود أن تنظف حذاءك وأسنانك وأصابعك وأظافرك . . كم تتكلف ماديا وعضليا أن تبدو نظيفا . لا شئ غير بعض الحركات الصغيرة . . وبعدها تبدو نظيفا . متحضرا . تحيا وتبدو أمام أولادك . إذا كان يهمك أن تكون قدوة حسنة . وأعتقد أن هذا يهمك وإلا ما نبحت صوتك وقطعت قلبك وأنت تطلب من أولادك أن يذاكروا وأن يقفلوا الراديو وأن يبعدوا قليلا عن التليفزيون . . أى أنك حريص على صحتهم . وحريص على نجاحهم . . وحريص أيضا على أن تكون كلمتك مسموعة . ولابد أنك تفعل نفس الشئ الذى تأمرهم به . أى إنك نموذج حسن لهم . .

فكيف تكون نموذجا فى هذا ولا تكون نموذجا فى أشياء أخرى . فكيف . إنها فى أشياء أخرى . كيف .

إنها أشياء متشابكة متداخلة . وكل شئ وكل خير وكل شر يصيب نفسك وولدك ووطنك يبدأ من هنا . . من البيت . . منك ومن زوجتك ومن أولادك . . ووحدات سكنية صحية اجتماعيا وأخلاقيا وماديا . وإذا صح البيت صحت الدولة كلها ، من جزمتك إلى شعر رأسك إلى يديك إلى ضميرك . □

آخر الظرفاء !

من معالم الحياة الفنية والاجتماعية فى المملكة السعودية أن تلتقى بالأمير عبد الله الفيصل . فأنت إذا جلست إليه فسوف تنسى بعد لحظات أنه أمير وأنه كان وزيرا أكثر من مرة . وأنه يعمل الآن بالتجارة . ولكن أنت أمام شخص بارع فى الحديث . فهو يتكلم فى الأدب والفن والرياضة والدين والتاريخ . . ويعرف كل البارزين فى العالم العربى . وله معهم حكايات . وحكاياته كلها نوادر فأنت ضامن أن تظل مستمعا متحفزا إلى الضحك فى أية لحظة . والأمير عبد الله الفيصل فنان حزين فى شعره . ولكنه فى نثره أديب ساخر من الدرجة الأولى . وشعر عبد الله الفيصل يستمد مادته من الحزن والأسى والشعور بالوحدة . وبأنه وحده . وبأن الناس لا ينسون أنه أمير ابن ملك . وهو يريد من الناس المستحيل : أن ينسوا ذلك . ولكن من الصعب على الناس أن يفعلوا ذلك . ولهذا فمهمته هو صعبة فى أن ينسيهم ذلك . انه يستطيع أن يشغلهم عن الأمير والملك ساعات ، ولكن بعد ذلك وقبل ذلك هو أمير . . وهو لا يتعب فى أن يجعل

الأمير فى خدمة الجميع . فهو الذى يضع عينيه على كل محتاج وكل فقير وكل طالب مال أو وظيفة . وهو أب لعشرات من الشباب يدفعهم إلى العمل والعلم والرياضة . . وهو يخجل من كل ما يفعله من خير . ويرى أن هذا واجب عليه . . أى أنه بهذا الخير يتجاوز حدود الأمير . ولكنه ينسى أن هذا التجاوز هو فى نفس الوقت علو عن الإمارة وعن الإنسانية نفسها إلى أعلى درجات الخير . أعرف أناسا ينفق عليهم الأمير ويستحلفهم به وبكل عزيز ألا يقولوا شيئا لأحد . ولكن من الصعب على الإنسان أن يسكت . من المستحيل ألا يمتن لصاحب الفضل . قال لى شاب سعودى : إننى حائر فى هذا الرجل . إنه لا يريد حتى كلمة شكر من أحد . ولا أعرف أين يجد المتعة . ان كل إنسان يستريح إلى الامتنان . ولكنه لا يريد ذلك . إن الله سبحانه يقول : « ولئن شكرتم لأزيدنكم » . . وهذا الرجل لا يريد من أحد أن يشكره .

ومن المؤكد أن الفنان عبد الله الفيصل هو آخر الظرفاء . . ومن قبله كامل الشناوى الشاعر الساخر . . وقبله الوزير حفنى محمود . وأقول وكان العقاد أعظم الظرفاء . . وكان عبد الرحمن صدقى . ولكن الفنان عبد الله الفيصل فيه من كل هؤلاء . ولا أعرف مدى صلته بهؤلاء . ولكن أعرف أنه كان صديقا لكامل الشناوى : صاحب العبارة اللاذعة والقفشة الأليمة ، والقلب الكبير ، والحب الذى ينتظرك دائما .

إن الشاعر الظريف عبد الله الفيصل هو متعة لا سلطان لك عليها ، إذا جلست إليه . فهو الحزين القادر على أن ينعشك وأن يخفف عنك ساعات وساعات .

حكايات ونوادر لا تنتهى ولا تتكرر . وفى كل مرة جلست إليه أتساءل متى تنتهى هذه الحكايات ؟

وهى لا تنتهى لأن موارده الفكرية والفنية الساخرة لا حدود لها . . ولذلك فمتعتك ، وقدرته على الإمتاع ، لا قرار لها . □

نحيا بقوة الدواء !

من مئات السنين ونحن ننظر إلى الذين يعيشون فى أواسط أفريقيا والغابات الشاسعة فى جنوب آسيا على أنهم أسعد الناس . ونتمنى أن نكون مثلهم بشرط ألا نعيش فى هذه الغابات وإنما نبقى فى المدن .. عيوننا لا تتعب وآذاننا تسمع دبة النملة ، وقلوبنا تدق برفق . والمعدة تهضم ، والأمعاء تمتص فإذا نزل المطر صلينا ، وإذا غابت الشمس صلينا . وإذا جاء الموت كان مأذونا شرعيا لزواج سعيد مع الأبدية . كل هذا بشرط أن نبقى حيث نحن ، وطبعا هذا مستحيل . . لأن حياة المدن تتنافى مع كل عناصر السعادة ، فنحن فى المدن لا نرى شروق ولا غروب الشمس . وجاءت الكهرباء فأطالت عمر الليل ، وجعلتنا نقفل النوافذ والأبواب فى وجه الشمس بالكهرباء وعصير الليمون – الذى هو فيتامين ج . ولم نعد فى حاجة إلى أن تكون لنا آذان القطط تسمع خربشة أى فأر . ليس ضروريا . فهناك مبيدات للفئران وللقطط أيضا . وتولت الراديوهات والتليفزيونات إقامة جدار صوتى يمنع عنا أى صوت من أى مكان . فمن الطبيعى

ألا نسمع . والذى يريدنى يستطيع أن يكلمنى فى التليفون . وإذا لم يجد التليفون أرسل خطابا . ودقات القلب إذا زادت فهناك عقاقير لتخفيض الضغط . . ولرفعه إذا أردنا . .

فلسنا فى حاجة إلى أن نحلم بحياة هؤلاء البدائيين . فحياتهم قد اعتادوا عليها . وحياتنا نحاول أن نعتاد عليها بقوة الدواء .

وقد نشرت الصحف الانجليزية أن طبيبا عالميا ذهب إلى إحدى جزر المحيط الهادى . وكانت دهشته لا حد لها عندما عثر على شاب مصاب بمرض السكر . كيف ؟ إن هذا المرض من أمراض الحضارة الإنسانية . . وهو إنسان غير متحضر فكيف تسرب إليه هذا المرض الخبيث . سأل عن أبيه . كان أبوه سليما . وسأل عن جده لأبيه ولأمه ، وجدهما فى غاية الصحة . سأل عن الجد الأكبر فوجده يمص عودا من القصب . ويحاول أن يطارد الطبيب . فلما لم يفلح هجم بأسنانه على قطعة من الحجر فحطمها وضرب الطبيب . ولا يمكن أن يكون هذا الرجل مصابا بالسكر أو نقص فى الكلسيوم ، أو الأنيميا الحادة .

وسأل الطبيب عن حياة هذا الشاب فقيل إنه صحا من النوم ذات مرة فوجد إلى جواره راديو ترانزستور يتكلم . فصرخ واستقر السكر فى دمه . . وعرف الطبيب أن هناك رجلا فى التسعين عنده ارتفاع فى الضغط . . وعرف أن سبب ذلك إدمان الخمور . ومن أين جاءت له الخمور ؟ لقد تعلم الرجل عصر بعض الفواكه وتخميرها عندما كان يعمل مع الأمريكان فى الفلبين .

إذن فالحياة الحديثة – أو جهنم – بدأت تزحف على هذه الجنة فى المحيط الهادى . . لم تعد هناك جنات على الأرض . . إنها جميعا أسماء مختلفة لكلمة واحدة هى الجحيم الأرضى . □

سكان وبوابون !

الذين يدرسون حياة العظماء يجدون أن همومهم كبيرة ، وأن هذه الهموم يطير لها النوم من العين ، كأن الهموم أعيرة نارية والنوم غربان سوداء نوحية – أى من أيام نوح عليه السلام – . ولكن الغريب أن هؤلاء العظماء ينامون بعمق . ساعات قصيرة أو طويلة ، وقد قرأت كتابا صدر أخيرا عن الحياة الخاصة جدا لنابليون ، وهو الكتاب الواحد بعد المائة ، ألف عن حياة هذا القائد والسياسى والعبقرى الفرنسى الإيطالى الأصل . والكتاب يتناول الشذوذ الجنسى عند نابليون . وهى زاوية خفية أو غريبة أو عجيبة فى حياة الرجل ذى الجوانب المتعددة . ولكن من خلال هذه الحياة المثيرة المتفجرة بالحروب والدماء والدسائس نجد أن هذا الرجل ينام بعمق كأنه طفل أوى إلى حضن أمه . وكان ينام واقفا ، وكان ينام راكبا حصانه . وكان فى قلب المعركة يأوى إلى إحدى الخيام وقد خرج بصورة واضحة جدا لخطته القادمة . ويتصور جنوده أنه لا ينام أو أنه ينام صاحيا ، أو عنده قوى خفية تفكر له وهو نائم . وأنه يرى حلول المشاكل

الكبرى فى أحلامه .

وعدت أقرأ عن الإسكندروعن تشرشل ، وعن هتلر وعن ديجول وعن لينين وعن كثير من أصحاب الرسالات الفكرية والسياسية . . كثيرون جدا يعرفون النوم العميق .

ويبدو أنها قاعدة : من يعرف النوم العميق يصبح قادرا على فعل الكثير ، لأنه يكون أقدر على التركيز والاستغراق . وأقدر على أن يريح نفسه بنفسه ، فإذا صحا فإنه يكون قادرا على التركيز فى عمله . وكل الأعمال الجليلة فى التاريخ حققها أناس قادرون على التركيز والتفرغ . أى الذين عندهم إرادة الإحاطة والشمول والحضانة .

ولولا النوم الطويل الهادئ للجنين فى بطن أمه ، ما ولد سليما . بل لنزل قبل أن يكتمل وجوده . . ولولا المحاريث والمياه والرياح تقلب الأرض على البذور ، ما ظهرت بذرة واحدة ، ولا شجرة واحدة . . ولكن النوم الهادئ والحضانة الآمنة هى التى تجعل الطفل يكبر والشجرة تولد من البذرة .

ويظهر أن الناس نوعان : سكان وبوابون . . ناس ينامون فوق ويتركون السلالم والأبواب لمن يحرسها وهم نيام . وهؤلاء البوابون هم الذين يقفزون عند كل حذاء يطرقع ، أو باب ينفتح . . وأعترف أننى من الذين يستمتعون بغريزة البوابين . فأذنى مضبوطة على كل صوت وكل باب . . ولا أعرف ما الذى أخاف عليه ولا أعرف ما الذى أحرسه . . ولكنه داء قديم أو أنها أرواح ألوف البوابين قد تلبست جسدى وعقلى وروحى . ولذلك فأنا حارس بلا باب ولا عمارة . . بل إننى أنتفض إذا نمت وتتراقص الصور أمام عينى . . لأن الدنيا كلها تدق على طبلة أذنى .

فهنيئا لمن يعرفون النوم الطويل الهادئ ، هنيئا لهم بالنوم وبما سوف يتحقق فى يقظتهم من أعمال عظيمة هى التى صنعت التاريخ . . أما نحن البوابين أو « كلاب

الحراسة ، فلنا الآخرة . . لأن الدنيا قد راحت علينا . . ومن يدرى ربما فى الآخرة نكتشف أنه حتى هذا النوم القصير كان أكثر مما نستحق . . وعلى ذلك يجب أن نصحو إلى الأبد . □

فى قلب الكعبة !

فى يوم غسيل الكعبة ذهبنا فى ساعة مبكرة . . مئات الألوف من الناس قد منعهم رجال الشرطة من الاقتراب من الحرم حتى يمكن غسل الحرم بماء زمزم وماء الورد . وغسلوا ما حول الكعبة . ولأول مرة نرى البلاط الأبيض . . أو الوردى أو الأزرق . . اختلفت الآراء والعيون فى معرفة ذلك . . المقشات جديدة . . وعيون مئات الألوف تأكل المقشات . كل واحد يطمع فى جزء منها – لا سنة ولا فرضا ولكنها الرغبة فى البركة . وكساء الكعبة أسود وقور . عليه آيات من الذهب .

وارتفع سلم إلى باب الكعبة . . والباب ذهبى . . وانفتح الباب . . ودخل أناس وفى أيديهم دلاء من البلاستيك امتلأت بماء زمزم وماء الورد لغسل الكعبة من الداخل . . وبدأ الماء ينزل وعيون الناس تمتص هذه القطرات بأجفانها ، كأنها قطرة للعين والنفس – وليس هذا سنة ولا فرضا ، وإنما هى رغبة الناس فى البركة

وجاء دورنا ، عشرات من الناس أسعدهم الحظ ليدخلوا الكعبة . . ودخلنا الكعبة . ماء الورد يملأ الأنوف . . والهمس حولنا يرهبنا . . وكل واحد أسرع إلى جانب وراح يتلمس الجدران ويحاول أن يقرأ الآيات المكتوبة . . وهناك أمام الركن اليمانى يجب أن نصلى ركعتين سنة عن الرسول عليه السلام . . وخرجت المناديل من الجيوب تمسح الجدران والأرض وتبتل بماء زمزم – لا سنة ولا فرضا ، ولكنها راحة النفس . . والوعد الذى قطعناه على أنفسنا أن نفعل ذلك لأصدقائنا وأحبائنا وأعز الناس علينا . .

وفى مواجهة الكعبة جلسنا ننتظر الملك الذى جاء وطاف سبعة أشواط ولمس الحجر الذى لمسناه وراح يقبله فى كل مرة . . ثم دخل الكعبة وراح يغسلها بالمقشة وبيديه وتساءلنا ؟ ما الذى رأيت فى داخل الكعبة ؟ ماذا قرأت ؟ .

واختلفت الآراء فى لون الحجروارتفاع الحجر . . وفى لون الأرض . . وفى الآيات المكتوبة . ولم يكن الذين اختلفوا فى الرأى والرؤية صبيانا ، وإنما هم كبراء وعظماء فى بلادهم – ولكن الموقف الرهيب : أن يكون الإنسان فجأة فى قلب الكعبة ، فى قلب الدين وأن يكون حيث تشتهى الملايين أن تكون ، كل ذلك أرهبنا وأخافنا وأعجزنا عن الرؤية وعن التركيز على أى شئ . . فلم نعرف حتى الآن ما الذى رأيناه هناك ، أو ما الذى أحست به قلوبنا ونحن فى قلب الكعبة وقلب الإسلام . .

وقلت : فى المرة القادمة سوف أرى بوضوح ؟

وسمعت من يقول : لقد أقسمت أن أفعل ذلك سبع مرات . . ولم أستطع فى كل مرة . □

عندما تحمر الأنوف والعيون !

لا أعرف بالضبط أسماء العقاقير التى ابتلعتها خوفا من البرد . وسبب ذلك أننى كلما سمعت عن دواء جديد ذهبت بسرعة واشتريته . ولكن الذى لم أكن أسمعه بوضوح هو : هل هذه الأدوية مفيدة حقيقة للجسم ؟ هل هذه الأدوية التى لا يتضارب بعضها مع بعض ، ويلغى بعضها بعضا . ألا يحدث أن يؤدى اثنان من الأدوية إلى ضرر مؤكد للقلب أو لجدران المعدة ؟

لم أسمع هذه الأسئلة بوضوح ، ربما لأنها طويلة أو لأننى استمعت إليها قبل ذلك عشرات المرات . أو بوضوح وصراحة : لأننى لا أريد أن أسمعها . لأن الذين يقولونها ليسوا من الأطباء ، ثم إنهم عندما ينصحوننى بعدم استخدام الأدوية ، لا يقدمون لى علاجا أو حلا لمشكلة البرد والارتفاع والانخفاض المستمر فى درجات الحرارة بين مكة وجدة والمدينة المنورة . . ثم ما الذى يمكن أن يفعله الإنسان ليواجه – إذا استطاع – هذه الأنوف الحمراء والعيون الأكثر احمرارا ؟

ولم يخطر على بالى – طبعا – أن أقول لنفسى : يارجل عيب . . كيف تشكو

من البرد أو من الخوف منه وتنسى أن هذا المليون ونصف المليون من المسلمين قد جاءوا حفاة عراة مشاة . . وأنهم لم يشعروا بشئ مما أشعر به ، أو هم يشعرون به ولكنهم يرون فى ذلك واجبا وفريضة : وحدة الألم . . الاستهانة بالعذاب . . وأنهم يدوسون أنوفهم بأقدامهم ويمسحون دموعهم بأيديهم التى غطاها التراب فى سبيل الله . . وأن من بينهم أطفالا وشيوخا أقوى من الزكام ومن السعال . . وأن منهم ألوفا لا يجدون ثمن الدواء ، ولكنهم اشتروه بالصبر والإصرار والانشغال عنه والتفكير فيما هو أعظم وأكبر وأبقى . . إن إيمانهم يرفعهم فوق البشر ، وأن خوفى يجعلنى دون البشر . .

ولكن هذا الذى عانيته لم يخل من معنى أيضا .

فلماذا لا يكون عذابى وخوفى ليلا ونهارا هو جزءا من المشقة . أو هو المشقة . فلو لم أذهب إلى هذه الأراضى المقدسة ما هزتنى الرجفة وسحقنى الوهم طول الوقت . . فأنا أتلوى يمينا وشمالا إذا سمعت أحدا يعطس . ولم يكن أحدا ، وإنما هم مئات الألوف من الناس . . ولم يكن أحد يسعل أو يتمزق حلقه وصدره من البرد . . إنما أكثر الناس . . وكأننى كنت أكتوى بالنيابة عن الجميع . . وأتقلب على الخوف والوهم والمرض . . وعندى كل أعراض المرض وأى مرض . . وأحمد الله أننى لم أصب بشئ ، وإن كنت قد أصبت بشيء ، وإن كنت قد أصبت بنفس أعراض كل شيء . . فالله أنقذنى ، ولكننى أنا الذى أغرقت نفسى . . فاللهم كما أنقذتنى من غيرى أنقذنى من نفسى ، حتى لا أخاف إذا تعرت يدى ، أو انكشفت ساق ، أو انفتح صدر قميصى ، فإنك قادر على كل أحد وعلى كل شئ . □

آمنت بالله

في سنة ١٩٥٩ كنت فى اليابان . وكان الراديو الترانزستور اختراعا جديد . وكان ثمنه فى ذلك الوقت لا يتجاوز خمسة جنيهات . وكنت أجد هذا الراديو على الأرصفة ، بل إن أحد التجار اليابانيين قد زارنى فى الغرفة ومعه شئ يشبه القفة ووضع على سريرى خمسين راديو وطلب منى أن أختار ما يعجبنى وأن أدفع بعد ذلك .

إنهم فى إيطاليا يبيعون الكرافتات كالفجل فى القفف أيضا .

وكتبت كثيرا عن هذا الراديو ، لأنه جديد ، ولكى أؤكد لنفسى ولغيرى أننى فى اليابان : بلد الأشياء الصغيرة جدا . . والكبيرة جدا . . والبلد الوحيد فى العالم الذى يمكنك إذا وصفته أن تسرف فى استخدام كلمة (جدا) .

وظهرت راديوهات فى حجم ساعة اليد . وظهرت أجهزة تجسس فى حجم زرار البنطلون . ثم فى حجم رأس عود الكبريت . وأصغر من ذلك . وهى من عجائب العلم الحديث . وهى فى نفس الوقت دليل على عظمة العقل الإنسانى . وفرصة للمؤمن لكى يزداد إيمانا بالله . وفرصة أخرى لكى يتعالى الإنسان بعقله على

كل شئ ويقول : إن الإنسان هو أعظم الكائنات .

ولكن من المؤكد أنها فرصة لكى يسخر منا علماء آخرون . . فماذا نقول مثلا فى « العالم » الذى اخترع جهازا يبلغ طوله واحدا على خمسة وعشرين ألفا من طول علامة التعجب هذه ! ثم إن هذا الجهاز به أسوار عالية . وبه جهاز لإدخال الهواء . . وجهاز لإخراج الهواء . وجهاز لإخراج الطعام وإدخاله . . ثم فى داخله عقل الكترونى يوجهه يمينا وشمالا . . ثم يغير لونه وحجمه وشكله . . ثم يلد بعد ساعات محدودة . . وفى فترات دقيقة منظمة جدا . . ثم إن هذا المخترع قد قدم ملايين الملايين من هذه الأجهزة الدقيقة . . وجعل لكل واحد منها وظيفة .

وطبعا ليس من الصعب أن تستنتج أننى أتحدث عن « العالم » العظيم . . عن الله الذى خلق مثل هذه الملايين الدقيقة جدا من (الخلايا) .

إن منظر الخلية الواحدة تحت الميكروسكوب معجزة . . تحفة . . لغز . . عقدة . . علامات استفهام وتعجب . ما هذا الذى نراه . ما هذا الذى يتحرك . . وما الذى يحركه ؟ وما الذى يبقيه حيا . . وكيف يموت وكيف يشرب . . وكيف يموت . . أوكيف يتوالد . . كل ذلك وأكثر من ذلك فى مساحة لا يمكن أن تراها إلا تحت عدسات فريدة . . ومع ذلك فالعلم لا يعرف حتى الآن ما سر هذه الخلية التافهة الضئيلة . .

لأنها تافهة ولأنها ضئيلة وبها كل هذه الحكمة وهذا العقل والنظام ، فهى معجزة المعجزات . . أليس الراديو الترانزستور وسفن الفضاء إلا صورا ساذجة إذا ما قورنت بهذا الشئ التافه الذى اسمه الخلية والذى يوجد منها فى جسم الإنسان حوالى ستين مليون مليون وحدة .

آمنت بالله العظيم . □

معمرون .. لماذا ؟ !

كان المفروض أن يعيش آدم عليه السلام ألف سنة . ولكن عندما أطلعه الله على مستقبل أولاده لاحظ آدم أن النبى داود سيموت شابا ، فطلب آدم إلى الله أن يأخذ من عمره ويعطى داود ولذلك فقد عاش آدم ٩٥٠ سنة فقط . .

ويقال إن نوحا عليه السلام عاش ١٤٥٠ .. ويقال ١٢٠٠ سنة. ونوح هو أول المعمرين فى تاريخ البشرية ونحن لا نعرف لماذا عاش نوح طويلا ، ولا نعرف ماذا كان يأكل. كم ساعة يعملها فى اليوم. هل كان مرحا. هل كان ينام كثيرا. وكيف يعالج نفسه إذا مرض. كيف عاش مئات السنين بعد محنة الطوفان.

الأطباء يحاولون أن يجدوا إجابة عن هذه الأسئلة عندما يدرسون حياة المعمرين فى روسيا وفى الصين ، فقد عثروا فى روسيا على أناس تجاوزوا المائة بعشرين سنة أو بخمسين سنة . . فمن بين الأسباب أن هؤلاء الناس يمشون كثيرا وأنهم يعملون كل يوم

وأنهم يصعدون الجبال وينزلون إلى الوديان . وأنهم ينامون فى ساعة مبكرة وأنهم لا يسرفون فى أكل الحلو والملح والشطة . وأنهم يستمتعون بأعصاب هادئة وأنهم أنهم متزوجون ولهم أبناء وأحفاد وأبناء للأحفاد . فليس من بينهم رجل واحد أعزب . وأن أكثرهم يأكل الزبادى فى الليل ويأكل عسل النحل فى الصباح . والقليل منهم يدخن والنادر يذوق الخمر . .

وليس من بينهم واحد يشتغل بالأعمال الفكرية ، فالأعمال الفكرية هى التى تقصف العمر . ولذلك عاشت المرأة طويلا فهى أطول عمرا من الرجل لأنها تعمل بيديها وتضحك بوجهها وتبكى بعينيها . وانفعالاتها لا تحرقها كما تحرق الرجل . .

وهناك نظرية تقول إن الإنسان إذا استطاع أن يعيش حتى الخامسة والسبعين ففى إمكانه أن يعيش حتى المائة لأنه بعد الخامسة والسبعين تتوقف كل أعمال الهدم فى الجسم ، ولذلك يمكن الإنسان أن يحمل عظامه ولحمه خمسة وعشرين عاما أخرى . أما القاعدة الواحدة التى اكتشف العلماء أن المعمرين يمشون عليها فهى الاعتدال المنظم أى أنهم يعملون ويستريحون ويأكلون وينفعلون باعتدال وبصورة منتظمة ، وهذه القاعدة نفسها هى التى تجعل من المستحيل على أبناء العصر الحديث أن يعيشوا لأنهم ضحايا حرب نفسية لا ينفع معها الزبادى والعسل والحبوب المنومة . □

فليتقن كل عمله !

لا نحن مرهفون . . ولا نحن أولاد ذوات . . ولا نحن ولدنا والملاعق الذهبية فى أفواهنا ، ولا الخدم والحشم حولنا . . وإنما نحن أناس عاديون . . ومن بيئة تعانق فيها الشرف والفقر ، فى أعماق الريف المصرى . .

فإذا ما طلبت من الذى يصنع الحذاء ألا ينسى فيه المسامير . . وإذا طلبت من الذى يرصف الشارع ألا ينسى سد النقر . . ومن الذى يأتى بالماء ألا ينسى قطعة الثلج . . ومن الذى يبيع البرتقال ألا يغش . ومن الذى يكنس الشارع ألا يترك فيه الزبالة . . ومن الذى يصنع الكبريت ألا ينسى رءوس الكبريت . . إننى هنا لا أشكو أحدا إلى أحد . . وإنما نحن نتشاكى . . نشكو أنفسنا إلى أنفسنا .

ولست مترفا ولا باحثا عن الكماليات . . وإنما أطلب الكمال ، أطلب من الذى يعمل أن يتقن عمله . . فهذه النقر فى الشوارع قد لا تهم من يمشى على قدميه . وقد تهم من يركب السيارة . . ومعظم الناس مشاة . . ولكن أداء الواجب على

« أكمل » وجه هو الذى يهمنى . . فالذى يرصف الشارع يجب أن يتقن الرصف . . والذى يكنسه يجب أن يحسن الكنس . . والذى يمشى فى الشارع يجب أن يراعى علامات المرور . . والذى يصنع الخبز ، والذى يصنع الفول . . وكل من يعمل شيئا يجب أن يتقنه .

إنها ليست الكماليات هى التى تهمنى . . وإنما الكمال هو الذى أنشده .

وفى نفس الوقت أعلم علم اليقين أن لنا إخوة وأبناء يعيشون على حدودنا لا يجدون الماء المثلج الذى نجده . ولا الظل الذى ننام فيه . . ولا هذه المسافات الواسعة التى نرتع فيها من شارع إلى شارع ومن مدينة إلى مدينة . . إن هؤلاء الجنود الأبطال هم الذين ارتضوا الشمس لننعم نحن بالظل . . وهم الذين ارتضوا الخنادق لننعم نحن بالنسيم العليل فى بيوتنا . . وهم لا يجدون الماء الذى نجده . . ولا أكواب الزجاج التى نشرب فيها .

إننى أعلم أن هذه التضحية العظيمة التى يبذلها طواعية عن طيب خاطر إخوة لنا أعزاء علينا .

وعلى الرغم من ذلك فإننا جميعا يجب أن نتمسك بكل ما هو واجب . وبكل ما هو طريقنا إلى كمال العمل وكمال الإنتاج . . تماما كما أن هؤلاء الجنود قد تمسكوا بأداء الواجب على أكمل وجه .

وإذا نحن جميعا حرصنا على أداء الواجب . . مدنيين وعسكريين . . فى الصغيرة والكبيرة ، على كل المستويات فلا خوف علينا . . ولا خوف على قضيتنا . □

العمل ثم المرح !

لم يعد أحد يبكى على إنسان يقول : ليس عندى وقت ، الآن كل إنسان عنده وقت لعمل أى شئ ، أو للراحة من العمل . هذا قانون . ولكن إذا ظهر أن إنسانا ليس عنده وقت لشئ ، فالعيب فيه هو . وليس فى العمل ولا فى القوانين ولا فى الحياة .

والمشكلة تبدأ عادة عندما يحاول إنسان أن يستفيد من وقت فراغه ، فليس كل إنسان قادرا على أن يرفه عن نفسه ، أو عن أهله ولذلك قامت شركات ومؤسسات للترفيه عن الناس . وتنظيم هذا الترفيه فى نفس البلد أو فى بلاد أخرى .

وفى إحصائية عالمية اكتشف العلماء أن أكثر الناس لا يعرفون كيف يستريحون ، رغم أنهم حريصون على ذلك . والأغلبية الكبيرة من الناس يفضلون الجلوس فى البيت والفرجة على التليفزيون . أو الاستماع إلى الراديو وحدهم أو مع غيرهم . ويجئ بعد ذلك الناس الذين يفضلون الجلوس فى هدوء وقراءة أى شئ . والذين يقرأون أكثرهم يفضل القراءة فى البيت أو فى مكان هادئ . وبعد ذلك

يجمْ الذين يفضلون الخروج من البيت إلى الأندية . أو إلى الحقول أو السفر من بلد إلى بلد ، وعدد قليل جدا من الناس يفضل أن يتمدد على فراشه وينام ويقرأ وهو نائم . أو يستمع إلى الراديو أو يتفرج على التليفزيون وهو فى الفراش . .

ومعنى ذلك أن عددا كبيرا من الناس يجب أن يعمل على سحبهم بالقوة من البيت إلى خارج البيت . وهذه القوة هى استخدام وسائل مغرية . هذه الوسائل يجب أن يشترك فيها الأطباء ورجال الدين . فالطبيب يقول : إن الصحة ضرورية لكى يصبح الإنسان قادرا على فهم شئ أو تنفيذ شئ . أو استطعام هذه الحياة . ورجل الدين أو المصلح الاجتماعى يقول : إن أكثر الأشرار فى هذه الدنيا من مرضى الأجسام والعقول .

وأطول الناس عمرا ، ليسوا هم الذين يتفسحون طول الوقت ، ولا أقصرهم عمرا هم الذين يعملون طول الوقت . ولكن الذين استطاعوا أن يعملوا بنظام وأن يلعبوا أيضا . □

تكريم العقل الإنسانى !

هناك

شخصية تسد نفسك عن كل شئ . وهناك شخصيات تفتح لك فى كل حائط بابا ، وفى كل سماء طاقة قدر . ومن مثل هذه الشخصيات : العقاد وتوفيق الحكيم وصديق سويسرى مسلم اسمه : أحمد هوبر .

فالعقاد – يرحمه الله – كان يتحدث فى كل شئ . ويعلق على كل صغيرة وكبيرة . ويغريك بأن تفكر أنت أيضا . ولا يزال العقاد ينتقل بمن يستمع إليه من موضوع إلى موضوع إلى شاعر إلى فيلسوف إلى نبى إلى الله . . وهو لا يفتعل هذه الرحلات . وإنما هو بسهولة ينقلك معه . وأنت مبهور بما ترى وتسمع وبالعقاد أكثر . وجلسات العقاد كانت حفلات تكريم للعقل الإنسانى ، والفكر . ولا أحد أعظم من المفكر أو الفنان .

وتوفيق الحكيم شخصية ممتعة مسلية . وهو أيضا يتحدث فى كل شئ . وله رأى . وله تعليق . بل من النادر أن يروى الحكيم قصة لا تهزك ولا تثيرك . . ورغم

أن الحكيم لا يقول إنه قرأ ألف كتاب . . أو عشرات الألوف من الكتب ، وليس مشهورابالاطلاع الواسع ، ولكن الحقيقة أنه قارئ ممتاز . وهو يخشى بأن يوصف بذلك . وإنما هو يحب أن يقال إنه مبتكر أو مبدع . مع أن الابتكار والابداع لا يتنافى مع القراءة ، قراءة ابداع الآخرين . .

ثم إننى أعرف رجلا سويسريا ليس مشهورا بشئ . ولكنه معروف لدى المصريين فى برن ، أو يعرفه الطلبة المصريون . أو الجاليات العربية فى سويسرا . وهو صحفى . وزوجته مصرية . وقد زار مصر من مدة . ولم أر ولا عرفت أحدا مثل هذا الرجل الذى اختار لنفسه اسم : أحمد هوبر . فهو قارئ ممتاز . وهو قادر على أن يستوعب ثقافات متنوعة . وأنا أدين له بكثير من الاهتماما الجديدة فى الفلسفة وفى التاريخ . فهو قد وضع أصبعى وعقلى على اتجاهات جديدة فى العلم الحديث لم أكن أعرفها . وهو قادر على متابعة الاتجاهات الجديدة فى الفكر المعاصر فى أوربا وأمريكا . .

وإذا تلفت أنت حولك ورحت تفتش فى أصدقائك وزملائك ورؤسائك فإن من الصعب أن تجد هذا الطراز من الناس . الذين يفتحون شهيتك للعمل وللراحة وللحياة . وإنما أكثر الذين حولك قد تخصصوا فى سد الأبواب والنوافذ والنفس . تقول لواحد : هل رأيت الفيلم الفلانى ويكون الرد مثل إطفاء النور : ياشيخ بلا قرف . . هل قرأت الكتاب الفلانى ؟ ويكون الرد مثل إلقاء الكتاب فى الأرض : أنا أقرأ لواحد كهذا وهل أنا مجنون . . هل تذهب إلى مطعم على النيل ؟ ويكون الرد مثل إلقائك فى النيل : امشى حتى هناك واجلس ساعة وادفع مبلغا كبيرا وأعود وهل أنا مليونير؟

والحمد لله الذى أعطانا القدرة على أن نسمع الكلام من هنا ونتركه يخرج من هناك . . ثم نذهب إلى السينما والمطاعم ونقرأ ونحلم بأناس يفتحون نفوسنا لكل ما فى الحياة . □

الطوبة الطائشة !

إذا هجم كلب على أحد المشاة ثم مزق ملابسه فإلى من يشكو ؟ وإذا عقره الكلب – لا قدر الله – وأسال دمه ، فإلى من يذهب وما الذى يفعله حتى لا يصاب بمرض خبيث .

ومن بين الردود على مثل هذه الأسئلة . أن فى مصر كلابا ضالة كثيرة . كلابا بلا أصحاب . ولذلك فلا رعاية صحية أو تربوية لهذه الحيوانات الضالة . وإذا حدث ذلك فى أى بلد أوربى فهناك اجراءات سريعة . وعن طريقها تمكن معرفة صاحب الكلب . وان كان قد أعطى حقنا وقائية أو تم تطعيمه . ومتى كان ذلك ، وتمكن محاكمة صاحب الكلب . . ويمكن حبس الكلب نفسه . كل ذلك ممكن إن كان للكلب صاحب ، وان هذا الصاحب يتصرف وفقا للقانون أو ضد القانون .

هذا إذا كان الذى هاجمك كلب ، ولكن إذا فعل نفس الشئ طفل صغير . فما الذى تفعله ؟ وأين القانون ؟ وما هى حدوده ؟ وأين يقع الأب والأم من هذا

القانون ؟

مثلا إذا كنت تركب سيارة وطاشت طوبة أو كرة وحطمت زجاج النظارة أو أصابت الوجه . ونزف الدم . ولم تتمكن من الهبوط من السيارة أو من القطار . ونجا الطفل من غضبك أو من عقابك ، هذا إذا كان فى نيتك أن تعاقبه ولم يعترض أحد من الناس قائلا : ياأخى أنت كبير وهو طفل . وأين عقلك من عقله ؟ ياسيدى المسامح اسمه الكريم . والحمد لله أن الطوبة لم تقلع عينك أو تحطم أسنانك . . ياشيخ احمد ربنا لقد انكتب لك عمر جديد .

وإذا وصلت فى الحوار مع الناس إلى هذه الدرجة ، فإن الموقف يصبح أعقد . لأن الطفل ، أى طفل ، سوف يفعل أسوأ من ذلك . لأن الناس على استعداد لمسامحته والعفو عنه . وحتى إذا فكرت أنت فى معاقبته فأين تذهب . سوف تمسك بالطفل . وتسأل عن والديه . ثم إذا وجدت والديه ، واكتشفت بسرعة أن الطفل كان أرحم من والديه ، ومن كل الناس الذين التفوا حولك ، كما يلتف الأطفال حول قرداتى . وجاء واحد من رجال الشرطة وقال لك : تحب سعادتك تعمل له محضرا فى قسم الشرطة . تحت أمرك .

وأمام هذا الذوق من أمناء الشرطة وإحساسك بأنك الوحيد فى مصر الذى قرر أن يعاقب طفلا على سوء أدبه . . وإنك سوف تدخل التاريخ على إنك إنسان تافه هايف ، كل ذلك سيجعلك تتراجع وتشكر الله على سلامتك . . وتنسى أن توارى وجهك من العار : لأنك أهملت فى حقك وحق هذا الطفل وحق هذا البلد كله . إذ كيف ينصلح حال الناس إذا لم يتمسكوا بالحق مهما كان الطريق إليه صعبا ؟

إن طوبة فى يد طفل ليست شيئا هينا . لأن الحقيقة : أن الطفل هو الذى فى يد الطوبة . . □

كل شىء فانٍ !

سوف يجئ اليوم الذى توضع فيه الدجاجة والبطة والوزة والقط والكلب فى حديقة الحيوان باعتبارها حيوانات نادرة . فنحن نستخدم المواد الكيماوية لإبادة الحشرات الضارة بالزراعة ، ويكون من نتيجة استخدام المبيدات أن تموت كل الطيور والحيوانات الصديقة . وهذه الحيوانات الصديقة ليست مقصودة . وإنما الحشرات أعداء النبات والثمار والإنسان هى المقصودة . . ولكن الحرب ضد أعداء الإنسان تؤدى إلى إصابة الأصدقاء أيضا . وليس من السهل علميا – حتى الآن – أن نقتل العصافير دون أن يموت نحل العسل ، وليس من السهل أن نقتل دودة القطن دون أن تموت الفراشات والعصافير وأبو قردان والغربان . . ودون أن تدخل السموم إلى المياه والثمار وألبان الحيوانات ولحومها – قد يحدث فى المستقبل أن يهتدى العلماء إلى أساليب جديدة فى جعل الموت شخصيا – أى نطلقه على حشرات دون حشرات ، وعلى طيور دون طيور أخرى . ولكن حتى الآن لم يهتد العلماء إلى مثل هذا التحكم الدقيق .

وقد اختفت طيور وحشرات نافعة كثيرة . وسوف تنقرض نهائيا . .

ولو نظرنا إلى الإنسان نفسه لوجدنا أن العلم الحديث ، والمجتمع الحديث والعلاقات الجديدة المتنوعة للناس فى المدن ، قد أدت إلى اختفاء فصائل من الإنسان . مثلا : أين هذا الإنسان الذى يرى من واجبه أن يسأل عن صحتك . وأن يسأل عن متاعبك بلا مقابل . . أين هذا الإنسان الذى إذا قال صدق ولوكان المسدس فى ظهره . أين هذا الإنسان الذى عنده متسع من الوقت لأن يسمع لشكواك ويحنى رأسه حزنا على ما أصابك . ويذهب إلى أبعد من ذلك فيعاونك على حل مشاكلك . ويظل يتابعك حتى تنحل عقدك . وحتى تستريح . . أين هذا النوع من الأبناء الذى لا يتعب من الحديث عن فضل أبيه عليه . . ولا ينسى ما فعلته أمه من أجله . . أين هذا الذى يطلب العلم ويحترم ما يقال له . ويحنى رأسه لما يقرأ . ولا يتعب من التقليب فى الكتب . وأين هذا الذى يتواضع للمعرفة . وأين هذا القارئ العالم الطيب الذى ينظر إلى السماء ثم ينظر إلى نفسه ويقول : الله أكبر . . والإنسان ليس شيئا إذا ما قورن بملايين الأشياء التى لا يفهمها . .

أين هذا الإنسان الذى كلما صحا من نومه قال : الحمد لله على أنه أعطاه ما أعطاه . فهناك من لا يملك ما يملك من جسمه وصحته وراحة باله . . لأن هناك دائما من يملك أقل من الصحة والراحة ؟ أين هذا الذى يقول كل شيء فان . . أنا وأنت والأرض والحيوان . . وإننا جميعا لسنا إلا ذرات من تراب فى طريق لا أول له ولا آخر . . فلا نحن أول الدنيا ولا آخرها . . وإنما لحظة فى ملايين السنين . . تروح وتروح ولا يبقى إلا الله . .

من المؤكد أن العلم الحديث قد أدى إلى انقراض مثل هذه الفصائل والعينات الإنسانية . تماما كما انقرضت طيور وحشرات البيوت والحقول ! . □

إنى أتسول النوم !

لو أعرف ما هذا الذى يطير النوم من عينى ؟ لو أعرف ما هذا الدب الذى يرن فى أذنى فإذا بى مفتوح العينين وإذا بى جالس فى السرير كأن المخدة تحولت إلى كف غليظ ضربنى على قفاى ؟ لو أعرف لماذا أصحو مع أننى مازلت فى حاجة الى النوم ، قليل من النوم ؟

لو كنت أعرف ما هى الحكمة التى يمشى عليها بقية خلق الله فيناموں حتى السابعة صباحا . .ولا أقول التاسعة . . كيف يستطيع الإنسان أن ينام حتى السادسة صباحا ، ما الذى يأكله ، ما الذى يشربه ، ما الذى يقرؤه . أو حتى ما هى الحبوب المنومة التى يتعاطاها ، إننى آخذ الحبوب المنومة بكل أشكالها وأحجامها وألوانها النافعة والضارة والممنوعة طبيا ، ومع ذلك ينفضنى الفراش فى الخامسة من صباح كل يوم . . وأقوم من الفراش كأننى كنت واقفا طول الليل إلى جوار السرير ولست متمددا عليه . . كأننى كنت خفيرا عليه ولست صاحبه . .

إننى كل يوم ، والله كل يوم ، أسمع شخير النائمين . وأعرف من الذى ينام

هناك . . إلى اليسار وإلى اليمين . . ومن الذى يصفر ومن الذى يملأ صدره ويحشر كل الهواء فى أنفه على شكل ناى ثورى - نسبة إلى الثور .

الكتب تقول لنا : أحسن نصيحة أن نفعل ما يفعله الأطفال . إنهم يرمون أنفسهم على الفراش . وهات يانوم . صح . فعلا هذا ما أفعله . أرمى نفسى على الفراش . ولكن ممن أطلب النوم . من الذى أقول له : هات . . انى أمد كل أطرافى . . وأتحول إلى متسول من الليل من الهدوء من الصمت من الموسيقى من الراديو - ولكن لا نوم .

الكتب تقول : انها مشكلة طعام . فالذى يعرف كيف يأكل قبل النوم . هو الذى يعرف كيف ينام . فهى مسألة كيمياء . ما الذى تضعه فى معدتك . . فالذين يملأون معدتهم هم الذين يعرفون كيف ينامون . والسؤال : ولكن ما الذى تملأ به المعدة ؟ اختلف العلماء . جماعة قالوا : خير الطعام ماكان خفيفا . وجماعة أخرى تقول : بل لاطعام أفضل . وإذا كان لابد فكوب من اللبن مع ملعقة من العسل . .

وبعض علماء النفس يقولون : إنها مسألة نفسية . ويجب أن تكون عندك إرادة النوم ، أى انك تريد النوم . فإذا أردته جاء خاشعا ذليلا .

وبعض الواقعيين يقولون : ياأخى مادامت هذه حالتك فكن واقعيا .

وهى عبارة من السهل أن تقولها وأن تقال لك . ولكن أليس من حق الإنسان أن يقول . من حقك طبعا أن تقول . وأن يكون كلامك فرصة سعيدة جدا على أن يشكر الله كل إنسان يقوم من نومه فى السابعة أو الثامنة . . لأن هناك أناسا ينامون ويخافون أن يصحوا فى الخامسة من صباح كل يوم ، وأن هذه الفكرة ذاتها هى التى يطير لها النوم .

فالحمد لله على هذا القليل . □

الكل يبحث عن معجزة !

اختلف العلماء : هل نصارح المريض بمرضه ؟ هل نسكت فمن يدرى ربما حدثت المعجزة ؟

وقد عانيت من اختلاف العلماء .

كان المرحوم د . عدلى الشيخ من أنصار اخفاء متاعب المريض عنه وكانت حجته فى ذلك أن الطبيب ، أى طبيب ، لا يستطيع أن يعرف بالضبط ماذا سوف يحدث للمريض ، من يدرى ربما حدثت المعجزة . وقد رأى د . عدلى الشيخ مئات من هذه المعجزات . ولذلك فهو لا يقول للمريض : عندك كذا وكذا . . وإنما هو يعطى للمريض أملا لا حد له فى الشفاء . هذا الأمل هو أعظم دواء — ليس دائما . ولكن حدث ذلك كثيرا ، وهناك أطباء آخرون يرون أنه لا شئ أحسن من الصراحة . والله الله على الجد . ولذلك فالطبيب يدخل على المريض ويقلب فيه ويضغط بأصابعه هنا وهناك والمريض يقول : آه . . فيرد عليه الطبيب **ويقول** : أعرف ذلك . . ويصرخ المريض من آلامه ويقول له الطبيب : ياسلام

أعد . . فأنا أتوقع ذلك . وأتوقع – إن شاء الله – ما هو أسوأ من ذلك .

وقبل أن يبلع المريض ريقه يكون الطبيب قد حدد له النهاية . وأنه لا داعى لأن يبدد أمواله ووقته وصحته . وأنه من الأفضل أن يتوكل على الله : ويموت . . ويستريح ويريح .

وحجة الذين لا يصارحون المريض بحقيقة دائه هى أن المعجزة قد تحدث فى أى وقت . فالله قادر على كل شئ . والطبيب عاجز عن أى شئ . وعجز الطبيب معناه : أنه لا يعلم إلا القليل جدا عن أسرار الجسم الإنسانى . وحجة الذين يصارحون المريض انه لا داعى لأن يبددوا أموالهم على الدواء . . وأفضل أن يبنوا للمريض مقبرة . وأن يصارحوه بذلك وأن يأخذوا رأيه فى موقعها . وألا يفرضوا عليه شكل الجنازة أو الذين سوف يقرأون عليه القرآن أو التراتيل .

ولكن أطباء بابل كانت لهم فلسفة أخرى . فقد كان الأطباء يضعون المريض أمام باب البيت . ويسألون الناس ذهابا وإيابا : ما رأيك . . هل هناك أمل . . هل ندفنه حيا . وكأن المريض يتسلى بهؤلاء الحكماء والمجربين والمحبين . وكان أهل بابل ينفذون مايقول به أكبرهم سنا لأنه أكثرهم تجربة . وأطولهم معاناة للمريض والصحة . .

أما نابليون فكان لا يشعر بأى احترام للطب أو الأطباء . وان كان يحيط نفسه بعدد كبير منهم . وهذا العدد الكبير لا يدل على احترامه لأى واحد منهم . ولذلك جمع منهم عددا كبيرا ليجعل منهم جيشا ضد المرض . وكان نابليون يردد عبارة الفيلسوف الساخر فولتير : أن الطبيب يعطى دواء لم يجربه إلى مريض لم يره ، ويتوقع أجرا على الشفاء .

وحكام الدول مثل هؤلاء الأطباء ، لهم فلسفات . وليست فلسفة واحدة فى مواجهة أمراض الشعوب . □

كى تبقى بديهية !

إذا لم يكن من رأيك أن البديهيات مشكلة فكم من الناس يوافق على أن ٢ + ٢ = ٤ . وكم من الناس يوافق على أن المشى على اليمين أسلم ، وعدم التدخين أصح ، والصدق مريح للأعصاب . والاخلاص هو سلامة النفس والجسم والوطن . .

سوف نجد كثيرين ليس هذا رأيهم . . فالذى يبيع يريد أن يجعل ٢ + ٢ = ٥ أو ٦ أو أكثر والذى يشترى يريد أن يجعل ٢ + ٢ = ٣ أو ٢ أو أقل من ذلك أو لا تساوى شيئا . لأنه لا يريد أن يدفع . أن يأخذ ولا يعطى . ولا يهمه إن كانت هذه معاملة . أو كانت هذه هى الأصول . .

مثلا : الأرض الزراعية فى مصر تضيق بالناس وسوف تضيق عنهم . . والنيل يسترد الآن ما أودعه فى تربة مصر من ألوف السنين . وقد عشنا سنوات طويلة ونحن نؤمن بأن مصر « هبة النيل » أى النيل أهدى مصر إلى شعبها . . واليوم يعمل النيل جاهدا فيأكل شمال الدلتا ويمسك يده عن الطمى . . إنه بدأ يسترد الهدية . . إنه

أودع التربة فى الصحراء ، وقد استثمرنا هذه الوديعة . وهو الآن يسترد وديعته . فما الذى فعلناه من أجل أن نبقى على هدية النيل ؟ نحن نحاول بكل الطرق أن نوسع الأرض المزروعة . وأن نقتطع من الصحراء ونضيف إلى الوادى . ولكن هذه الإضافة الخصبة متواضعة جدا إذا ما قورنت باحتياجات ملايين المصريين .

وبقدر ما نضيف إلى التربة من الصحراء ، فإننا نأخذ من التربة نفسها فى أعمال البناء . فنحن نغطى الأرض المزروعة بالطوب والحجارة لنقيم بيوتا . أو نفتح طرقا بين البيوت وبين المدن . . فما معنى ذلك ؟ معناه أننا نأخذ باليمين ما أضفناه باليسار وأن الذى نأخذه أكثر . فكأننا ننشئ العمارات – من العمارة والعمار – على أرض زراعية حولناها إلى أرض خراب .

وكل هذا من البديهيات . .

ولكن هل اقتنعنا بهذه البديهية . . هل فعلنا أى شئ من أجل أن تبقى بديهية – أى حقيقة واضحة بنفسها ولا تحتاج إلى دليل أو إلى سند ، أو مظاهرة فكرية أو عقائدية .

أكثر من ذلك أن الأرض المزروعة بدأنا نأخذ طينها لصناعة الطوب . . . . أى أننا نعمل بانتظام على « تخريب » الأرض المزروعة وتحويلها إلى صحارى سوداء .

مع أنه من الأشياء الواضحة جدا أن الأرض المزروعة تضيق ، والأرض الخصبة تضيق . . نجد أن الصحراء واسعة ويجب أن نعمرها بالمدن والمصانع والورش . . هنا فقط نستطيع أن نقول إننا نعمر الصحراء . . لأن الصحراء خراب . ولا نقول نخربها لأنها كانت عامرة بالنباتات والثمرات .

والمصيبة الكبرى أن كل الذى أقوله من البديهيات . □

الإبر الذهبية !

يقول ماوتسى تونج : الشىء النافع حقا ، هو الذى يعود على الجماهير بالفائدة .. ويقول أيضا : عن طريق القراءة نتعلم ، وعن طريق تطبيق القراءة نتعلم ، وهذا هو العلم الحقيقى .

ويقول أيضا : مادام ينفع الناس ، لا يهم أبدا إن كان هذا الذى ينفعهم علما أو خرافة .

وماوتسى تونج هو أقدر زعيم سياسى ، فى كل العصور ، على مخاطبة الملايين فى أسهل عبارة مقنعة . وله دراسات فكرية باهرة . والذى يبهرنى فيها أنه قادر وساحر أيضا . يستطيع أن يقول أصعب النظريات فى عبارة يفهمها أى إنسان يفك الخط . وهذه العبارات قرأتها فى الصفحات الأولى لكتاب عن « التخدير والعلاج بالإبر الذهبية » . للكاتب الأمريكى مارك ديوك ، والإبر الذهبية الصينية حديث العالم كله من وقت طويل . وهذه الإبر ليست اكتشافا جديدا . فالصينيون يستخدمونها منذ أكثر من أربعة آلاف سنة . . ولكن العالم لم ينفتح على الصين إلا أخيرا جدا

وانتقلت هذه الممارسة العجيبة إلى الغرب أخيرا . . صحيح أن كيسنجر الذى كان مستشار نيكسون لم يكتشف الصين ، ولكنه فتح الأبواب والعدسات عليها . .

واندهش الناس لهذه الأساليب البدائية فى العلاج . ثم ذهب الأطباء من كل العالم ليؤكدوا لنا أن الذى رأوه حقيقة . وأن الطبيب أو الممارس الصينى يستطيع أن يعالج أى مرض . وأن يقوم بإجراء أية عملية جراحية فى أى مكان فى المستشفى وفى الحقل وفى الشارع . . وأن ما حدث فى سنة ١٩٦٦ فى مستشفى بكين الجامعى من الممكن أن يحدث فى أى بيت ريفى فى الصين كلها . فنى هذه السنة دخل المستشفى ١٥١ مواطنا مشلولا تماما ونفذت الإبر الذهبية وفقا لخريطة للجسم معروفة عندهم وعندنا الآن ، واستطاع كل هؤلاء أن يتحركوا . . أن يخرجوا من المستشفى يحملون أجسادهم على أرجلهم . . ليس سحرا ، ولكنه طب شعبى .

وعلماء وخبراء الصين انتقلوا من تخدير الجسم إلى علاجه ، ثم إلى علاج الأمراض العصبية والنفسية والعقلية أيضا . وهم يؤمنون بأن أساس نجاح العلاج بالإبر أن المريض يعاون الطبيب على شئ . فهو يؤمن به . وهو أيضا الذى يقوم بالإيحاء إلى نفسه بالتخدير والعلاج والشفاء . .

وقد وصلت الإبر الذهبية إلى مصر ومعها أجهزة صغيرة رخيصة لذبذبة الإبرة عند دخولها إلى الجسم . . ولا ينقصنا إلا الخبراء الصينيون يعلمون الأطباء المصريين كيف يفعلون ذلك . . وسوف ينجح الأطباء المصريون . . إلا إذا جاء طبيب مصرى أو فيلسوف مصرى وقال إن هذه الإبر أصلها فرعونى . وأن الصينيين نقلوها من مصر . وأنه عيب علينا جدا ألا نعرف العلاج الذهبى من تلقاء أنفسنا . ولا أستبعد أن يحدث ذلك ، فقد حدث هذا كثيرا فى كل العلوم والفنون فنحن خبراء فى كل شئ . وخبرتنا تتجلى فى كراهيتنا لكل صاحب خبرة جديدة أجنبية . □

معا على الطريق !

ما معنى أن ينكمش الإنسان فى البرد ؟
معناه أن الإنسان يقارب بين أعضاء جسمه فيجعل بعضها قريبا إلى بعض . . ومعناه أن يجعل المساحة المعرضة للبرد أقل . . الإنسان يفعل ذلك والحيوانات أيضا .

وإذا جلس إنسان ، وجاء إنسان آخر وجلس إلى جواره . . ثم تقارب الإثنان ليشعرا بدفء أكثر . . ويجىء آخرون . وبذلك يصبح هذا التجمع نوعا من التحدى للبرد . ونوعا من التكتل فى مواجهة عدو قوى .

وكما يحدث عند بناء البيوت . . فإذا أقيم بيت ، جاء مواطن آخر وأقام بيتا إلى جواره . وجاء ثالث . وظهرت القرية والمدينة والمدن والدول .

والغابة ليست إلا شجرة ظهرت وإلى جوارها ظهرت أشجار كثيرة . والذى يعجز عن مواجهة إنسان ، يقوى عليه إذا كان مع كثيرين . والريح التى تحطم الشجرة الواحدة ، لا تقدر على الغابة . . والسيول التى تهدم بيتا لا تقوى على هدم

مدينة .

فنى مواجهة العواصف والسيول والنيران والمصائب يصبح الإنسان أقوى وأقدر إذا كان مع غيره . وإذا كانت لهم إلى جانب مجرد القوة قدرة – أى قوة مدروسة منظمة .

وكل من يقف وحده يقع . وكل من يقف بغيره ومع غيره ولغيره يبقى .

إن بعض الطيور إذا هاجرت فإنها تتقارب وتتلاصق . وتجئ من تحتها طيور أخرى تضرب أجنحتها بقوة وبصورة مستمرة . هذه الطيور التى تطير تحت تخلق تيارا دافعا للطيور التى فوقها . وتوفر عليها عملية الطيران بل تجعلها تنام وهى طائرة . فإذا أخذت نصيبها من الراحة نزلت الطيور التى نامت وراحت تدفع بأجنحتها تيارا هوائيا تنام فوقه الطيور الأخرى . .

ومن النادر أن يهاجر طائر وحده أو سمكة وحدها . . لابد من أن يكون هناك الكثير معا ، وبذلك يصبح الطريق أقصر والتعب أقل . والخطر أهون .

ولقد شهد الناس من فترة طويلة فى مرسى مطروح شيئا عجيبا : أن بعض الطيور قد صنعت حبلا من زغب الريش . هذا الحبل التف حول ساق واحدة من الطيور المهاجرة . . وتناوبت بقية الطيور سحبها إلى الأمام .

إنها مبادئ أولية للطيران والهجرة والعمل معا والسلامة بعد ذلك . □

فى اتجاه واحد !

آخر كلام : صممت على التدخين . ولن أرجع فى هذا القرار .

ولكن لماذا ؟

لأنه من الضرورى أن يكون للإنسان مزاج فى أى شئ . وأنا ألاحظ أننى بلا مزاج ، فلا الشاى مزاج رغم حرصى على أن أشربه فى الصباح أكثر من مرة . ولا القهوة مزاج . فقد كنت أشرب عشرين فنجانا من البن السادة فى اليوم . واليوم ولا فنجان واحد ، لا فى الصباح ولا فى المساء . وكثيرا ما وجدتنى لا أشرب الشاى أو القهوة .

ولا توجد عندى هواية تشغلنى عن عملى . حاولت أن أهوى الشطرنج . ولكنى حولت هذه الهواية إلى دراسة وأصبح عندى عدد من الكتب فى الشطرنج ، عن مبادئ اللعبة وعن حيلها وعن حياة أبطالها ، وأشهر المباريات الدولية . ولابد لكى أستمتع بالشطرنج أن أجد أحدا ألعب معه وأتفوق عليه : أو أجرب قدراتى أو قراءاتى على الأصح . ووجدت من ألاعبه . ولم أتفوق فى اللعب . لأننى أطبق

الكتاب حرفيا والذين يلاعبوننى يعتمدون على ذكائهم . وتكون النتيجة انتصارا ساحقا لهم . . ولم أعد أجد لذة فى الشطرنج . .

وحاولت مع الكوتشينة . ومن العجيب جدا أننى ظللت أكثر من خمس سنوات وأنا أحاول جدا أن أفهم أبسط مبادئ البوكر . ولم أفهم . وفى كل مرة أهز رأسى وأحيانا أدقها . وأقتنع آخر الأمر ، أن رأسى لا يعمل فى كل الاتجاهات . وإنما يعمل فى اتجاه واحد فقط . وأبعدنى اليأس عن تعلم هذه اللعبة . .

ولا أمارس أية رياضة . ولا عندى وقت . ولا عندى صبر . وإن كنت أنصح الناس بأن يكون لديهم الوقت والصبر . أى أننى أطلب من الناس أن يستفيدوا من تجاربى ، أو من قلة تجاربى ، لعلهم يكونون أفضل ؟

ولم أجد أمامى غير السجائر . وبسرعة بحثت عن الولاعات التى عندى . واخترت أجملها . إنها ذهبية . ورحت أنظفها . وأملأ خزانها بالغاز . وأضع فيها أنواعا من الأحجار الجديدة التى تبقى عشرات السنين . أما السجائر فموجودة فى كل مكان . وتوكلت على الله . ومضى يوم واثنان وثلاثة وأنا أدخن . ولا أدعى أن للتدخين طعما . ولكننى مُصِرٌّ . وبحثت عن كتاب عن «كيف تمتنع عن التدخين» . وقررت أن أعكس كل النصائح مثلا : إذا كانت معك علبة سجائر فلا تضع فى جيبك علبة كبريت . ولا تضع فى العلبة إلا سيجارة أو اثنتين على الأكثر . . وضع العلبة فى مكان بعيد من جيوبك . واختر أنواعا أخرى من السجائر التى لا تحبها . والتى يستخدمها الناس عادة وحاول ألا تكون وحدك .

وعكس ذلك هو ما فعلته . ومضت التجربة بنجاح تام . أما أنا فأعالج شفتى وأسنانى واللثة وحلقى من الدخان الذى أشعل فيها النار .

وهز الطبيب رأسه قائلا : أحسن تأخذ لك مصاصة عند اللزوم . □

ألف باء .. !

سألنى من هو أحسن طبيب ؟

قلت : لا يوجد أحسن طبيب . ولكن يوجد طبيب جيد . عرفته فى ظروف خاصة . فهو أحسن من صادفت .

– يعنى هل تنصح بأن أذهب إلى فلان .

– لا أعرفه .

– يقولون إنه أحسن طبيب .

– ياأخى لا يوجد أحسن طبيب .

– فلان يقول إنه أحسن طبيب .

– وهل جربه .

– يعرف أناسا جربوه . فهو حسن المعاملة . صبور . ويصف لك الأدوية الموجودة فى مصر .

– إذن فهو طبيب واقعى . وقد اتخذ من الصبر أحسن سفير له . فالمريض يشكو

دائما من أن الطبيب لا يعطيه الوقت الكافى . لأن كل مريض يتصور أن مرضه من نوع خاص . وينسى أن حالته هذه قد مرت على الطبيب ألف مرة . ولذلك فالطبيب ليس فى حاجة إلى شرح طويل . ولكن الطبيب الناجح هو الذى يوهم المريض بأنه يستمع إليه . وهو مهتم به هو وحده بصفة خاصة . وأنه لولا وجود مرضى آخرين لاستمع إليه حتى الصباح . . وهذا الأمان الذى يعطيه الطبيب للمريض هو نصف النجاح . فالمريض سيقوم بالدعاية للطبيب . . حتى إذا لم يتم شفاؤه ، يكفى أنه استمع إليه . وأراحه بذلك . .

– يقولون إنه من هذا النوع من الأطباء . .

– إذن فاذهب إليه . .

– ولكن . .

– ماذا ؟

– عيادته قذرة جدا . الكراسى ممزقة . والتراب عليها شبر . والممرض بطاقية وشبشب . والجدران عليها بقع . إن كل شئ يجعلك تحس للوهلة الأولى أنها شقة مهجورة . . أو مؤقتة . أو أنها جزء من العلاج . . فالطبيب يريد أن يعلمك الصبر على القذارة ، وفى نفس الوقت يحذرك من قذارة الطعام والشراب والهواء والأكواب والأطباق . . أليس هذا شيئا غريبا .

– أعرف واحدا مثل هذا الذى تتحدث عنه . وقررت أن أراه . وأن ألقى بكل ما قاله ووصفه من النافذة . . وفى آخر لحظة سحبت يدى من النافذة وألقيت بالروشتة فى الزبالة .

– لماذا ؟

– لماذا ؟ . لهذا .

فالطبيب الذى لا يبدو نظيفا منظما . لا يجعلك تقتنع بأنه رجل يهتم بمرضاه أو زواره . كيف تصدقه إذا قال لك : يجب أن تداوم على العلاج . وأن تخرج لتشم هواء نظيفا وهو قد اعتقل النظافة فى غرفته وأطلق القذارة فى بقية العيادة ، كيف تصدق من يترك المريض بملابس قذرة

..لا يجعلك تقتنع بأنه رجل يهتم بمرضاه أو زواره . كيف تصدقه إذا قال لك : يجب أن تداوم على العلاج . وأن تخرج لتشم هواء نظيفا وهو قد اعتقل النظافة فى غرفته وأطلق القذارة فى بقية العيادة ، كيف تصدق من يترك المريض بملابس قذرة ممزقة وشبشب كان « زنوبة » ولا أعرف له اسما الآن . . إن مثل هذه العيادات هى ورش أو جراجات . . يسكنها ميكانيكى يحترف الطب . ومن الخطأ والبلاهة أن تذهب إليه . إن رجلا لا ينفق مليما على مظهره وعلى الحفاوة بمرضاه – زبائنه – ويبخل عليهم بالحفاوة المظهرية ، يجب أن يعامله الناس بالمثل . . أن يبخلوا عليه بالزيارة أو بالكلمة الحلوة . . وبذلك يتحول مرضاه إلى مرض له ، يأكل اسمه وسمعته – إنها ألف باء التجارة . وكلنا تاجر يبيع خبرته للآخرين . □

.. رد فعل !

من يعمل يتعب . وأنت تعمل . إذن فأنت تتعب . ومن لا يعمل يتعب أيضا . لأنه يريد أن يعمل وأن يتعب وأن يشكو من الحياة مثل كل الناس .

أنظر إلى العاطل . وانظر أيضا إلى الذى أحيل إلى المعاش . العاطل تعبان لأنه لا يعرف كيف يتعب بانتظام . والمحال إلى المعاش تعبان لأنه فقد النظام فى حياته . فكأن النظام هو الذى يخفف أعباء نفسنا ونمدد أرجلنا ونفرد ظهورنا من التعب . أو هو الذى يعطينا فرصة أو فسحة من الوقت لكى نأخذ ونغمض عيوننا استعدادا للعمل من جديد .

ولكن هل صحيح أننا نتعب ؟ نعم نحن نتعب . وهل صحيح أننا نتعب جدا كما نصور لأنفسنا . أو كما اعتدنا أن نقول . الحقيقة : لا . . فنحن عندما نشكو من التعب من العمل ، لا يكون كلامنا دقيقا . لأننا لا نشكو من تعب العمل . وإنما نشكو من « مجموع » المتاعب فى العمل وفى غير العمل . لأن الجسم الإنسانى .

والطاقة الإنسانية واحدة ، فنحن نتعب بكل الجسم . وننفق من نفس الطاقة . فمن **الممكن أن يتعب الإنسان** فى عمله فتنسد نفسه عن الطعام فى البيت مهما كان الطعام **جيدا . ومن الممكن** أن نتعب فى البيت فتنسد نفسنا عن القيام بأى عمل فى المصنع **أو فى المكتب أو** فى الحقل . لأننا عندما نتعب فإننا نتعب بالجسم كله . وعندما **نستريح نستريح** بالجسم كله . . **فهناك** علاقة بين التعب فى أى مكان ورد الفعل لهذا **التعب فى أى** مكان آخر . .

مثلا : إذا حمل الواحد منا شوالا على كتفه نصف ساعة . ثم وضع الشوال **على الأرض** بعد ذلك فإنه لا يزال يشكو من وجع فى كتفه مع أن الشوال قد استقر **على** الأرض . ولكن وجع الكتف يبقى بعد ذلك . .

أنظر بائع العرقسوس . إنه يضع ذلك الإناء الزجاجى على صدره . ويتراجع إلى الوراء ليتوازن أثناء المشى . إنه يفعل ذلك ساعات كل يوم ولمدة سنوات . ثم أنظر إليه بعد أن وضع هذا الإناء على الأرض وراح يمشى فى الشارع ، إنه لا يزال يتراجع فى مشيته كأن العرقسوس ما يزال على صدره ، لماذا ؟ إنه اعتاد على أن يكون العرقسوس على الصدر ، واعتاد أيضا على التراجع فى وقفته وفى مشيته .

وما من أحد إلا يحمل هما هو وزن العرقسوس فى مكان ما من جسمه . . على رأسه على كتفه . . على صدره على قلبه . . على عقله . . ومهما كان الشارع مرصوفا ومهما كان المقعد مريحا ، فإنه سوف يتراجع فى جلسته أو وقفته لأنه يحمل هما أو عبئا فى مكان ما . .

فأنت من المؤكد تعبان لأسباب كثيرة . من بينها هذا التعب فى العمل . فليس العمل وحده المسئول عن كل مصائب البيت . ولا البيت وحده هو المسئول عن كل اضطرابات العمل . . وإنما أنت – وكل إنسان – يترنح تحت ضربات من هنا

وضربات من هناك . ومن حصيلة الاهداف التى يسددها الجميع إلى شبكة حياتك تصرخ وتقول : أنا تعبان .

فأنت دائما تعبان ، ولكن لأسباب أخرى . □

منتهى النزاهة الأمريكية !

أسماء كثيرة أطلقت على هذا العصر الذى نعيش فيه . قالوا : عصر رجل الشارع . . وعصر الذرة . . وعصر الأسبرين . . وعصر الحبوب المنومة . . وحبوب منع الحمل . . وعصر الفضاء . . وعصر الأعضاء الصناعية . . وزرع القلب والكليتين . . وعصر الخوف . . وعصر العجز الجنسى عند الرجال والنساء ، وعصر اللاشعور ، وعصر الدول الصغيرة . . وعصر الشعوب الملونة . . الصفراء والسوداء . . .

ولكن من المؤكد أيضا أنه عصر الثورة على أمريكا . أو العداء لأمريكا ، فإذا نظرت إلى خرائط الدنيا ، فإنك تجد أعلاما مرفوعة . . والأعلام حمراء . أى أعلام ثورية . على الاستعمار . وعلى رأس المال . وعلى القوى الغاشمة وعلى ترسانات الذخيرة والسلاح . . على أمريكا . .

وليست هذه الثورة على أمريكا خارج أمريكا فقط . بل فى أمريكا أيضا . فالمواطن الأمريكي يشعر أنه « نشارة خشب » فى الورشة الأمريكية . . وأنه مسمار فى الموتور الأمريكى . . وأنه لا قيمة له . إنه مجرد قطعة غيار يمكن أن يوضع بدلا

منه أى مسمار آخر . وفى نفس الوقت لا قيمة له ولا وزن ولا سعر ولا اسم ولا جسم ، ولا إثم خارج هذا الموتور . فهو « ضمن » الموتور . . ضمن المصنع . . ولذلك يجب أن يعيش ويموت على أنه تافه . وأن المصنع هو كل شئ . وأن صاحب المصنع هو كل شئ . ومن أجل صاحب المصنع قامت الصحف والإذاعة والتليفزيون والسينما كلها تضع التاج على رأس صاحب المصنع . أما بقية الناس ، فى أى مكان فمن الواجب أن يخروا ساجدين لصاحب المال ، وصاحب رأس المال . . وكل أصحاب رءوس الأموال . لكى تبقى هذه المصانع تعمل ليلا ونهارا . ولكى يستهلك الشعب كل ما تنتجه المصانع . ولا يهم أبدا أن يحتاج الناس إلى ما تنتجه المصانع . لا يهم . ولكن لابد أن يستهلكوه . . فالمصانع تنتج الطعام وتنتج الأدوية التى تشفى الناس من هذا الطعام . ولكن لابد أن يأكل الناس ، ولابد أن يتداوى الناس . وعلى ذلك لابد أن يشتروا السم والعسل والشفاء منهما . .

والشعب الأمريكى منوم تنويما دعائيا .. الشعب الأمريكى غنم .. هذا يقولون عن أنفسهم بمنتهى الصدق والإخلاص .

وينتخب الشعب الأمريكى النائم نوما عميقا رجلا فرشت له الأرض والشاشة الصغيرة والكبيرة والصحف بالدولارات ذهابا وإيابا . وسوف يختارون الرجل الذى لم يختاروه . وإنما الذى اختير لهم . وفرض عليهم بقوة المال ورجال المال .

والشعب الأمريكى لا ينتخب إلا الرجل الذى اشتراهم . وهم لا يشترون إلا من اشتراهم . والحقيقة أن الرئيس الأمريكى – أى رئيس – لم يشتر الشعب ، وإنما باعه للذين اشتروه هو من قبل – أى اشتروا الرئيس الأمريكى والشعب أيضا .

هل فهمت شيئا ؟

إنه مشتر يشترى لحساب مشتر آخر بمنتهى الحرية والنزاهة . . الأمريكية . □

بالذوق أحسن !

وهذا عيد جديد . وسوف تجئ أعياد أخرى كثيرة . فكل سنة وأنت طيب . والأيام سوف تتوالى . لن يقف الزمن . لا الشمس ولا القمر . والكل يدور فى فلكه إلى الأبد . وكل شئ يمضى إلى الخطة المرسومة له . والتى لا نعرفهابوضوح . ولكن كل شئ يمشى بنا ، وبغيرنا ، وقبلنا وبعدنا . . وليست لنا إلا حياتنا هذه . إن شئنا جعلناها طويلة قاسية وإن شئنا جعلناها قصيرة خاطفة . وإن شئنا عشناها على مهل . فحياتنا فى أيدينا . الله أعطانا العمر . ونحن أخذنا الحياة . ونحن لا نشعر بأولها بوضوح ، ولا ندرى بآخرها بوضوح . إننا نعيش بين بداية غامضة ونهاية أكثر غموضا . وفى هذه الفترة القصيرة من العمر مفروض أن نتعلم ونفهم ونعمل ثم نحاول أن نفهم ما كان . حتى نتفادى ما حدث مرة أخرى . . وعندما يدرك الواحد منا أنه قد أصبح فاهما أو عاقلا أو مؤهلا لأن يستطعم الحياة ، يكون العمر قد ذهب . فلا وقت لشئ كثير فى هذه الحياة . ولكن من الضرورى فى هذا الوقت الضيق ، أن ننسى أنه ضيق . وأن ننسى أن هناك

نهاية . وأن ننسى أننا سوف نموت . . وكل ما نفعله فى حياتنا هو محاولة للنسيان . فالاستغراق فى العمل : نسيان . والاستغراق فى النوم نسيان . وإدمان اللذة هروب من التفكير فى العمل والتفكير فى النهاية . والإغراق فى العبادة هروب أيضا من التفكير فى مصائب هذه الدنيا . .

والإجازات والأعياد هى ساعات إجبارية لكى نفلت من الحياة اليومية . . من الساقية . . من الطاحونة . . من الدوخة التى لا تنتهى بين المكتب والبيت . . وفى البيت من غرفة إلى غرفة . . ومن المطبخ إلى الحمام . . ومن الحمام إلى السلم إلى الشارع إلى الأتوبيس إلى الشارع إلى المكتب . . إلى الشارع مرة أخرى . .

فقط راحتنا هى أن نرمى بأنفسنا خارج الدائرة اليومية . . هى أن نقفز من جلودنا . . بعيدا عن أنفسنا . . فقد تعبنا من أنفسنا ولا بد أن نريح ونستريح . .

حتى الراحة هى أيضا تحتاج إلى تفكير . الراحة فن ، فليس كل إنسان قادرا على أن يستريح . فنحن نخطط وندبر ونقدر . . ونحسبها ونضرب ونطرح : كم يتكلف المشوار من هنا إلى هناك ؟ كم ساعة وبأية وسيلة ! ومتى نعود ومتى نذهب ؟ . .

كل شئ يجب أن يتم خطفا بالقوة بالإكراه . . بالقوة نخرج من الصمت إلى الكلام . . وبالقوة نسد أفواهنا ونبلع ألفاظنا . . وبالإكراه نستريح ، حتى لا يكرهنا التعب على الراحة . .

والذى لا يعرف الراحة خارج البيت سوف يضطره التعب إلى الراحة فى البيت أو فى المستشفى – أما القبر فهو راحة الذين عرفوا الراحة والذين لم يعرفوها .

وكل سنة وأنت قادر على أن تستريح « بالذوق » حتى لا تستريح بالقوة . □

لماذا الطوب وغيره !

فجأة

نجد المتفرجين يلقون بالطوب على اللاعبين أو على المتفرجين ، وتفسير ذلك أن المتفرجين كانوا يتوقعون لناديهم أن ينتصر فلما انهزم ثاروا على النادى الآخر أو على الحكم أو على أى أحد . . ولكن يحدث هذا أيضا إذا انتصر ناديهم . كأن النصر لا يكفيهم كعقوبة للنادى الآخر أو لجمهوره . هذه مشكلة . وقد اختلف العارفون بشئون الكرة فى معنى الطوب ودلالة استخدامه فى التعبير عن الفرح والحزن .

ولكن الشئ الغريب هو أن المتفرجين قد دخلوا الملاعب وملأوا جيوبهم بالطوب والظلط . ومعنى ذلك أنهم قرروا استخدام الطوب فى جميع الأحوال ، سواء انتصر ناديهم أو انهزم . ولكن لماذا الطوب ؟

إن هذا الطوب إذا لم يصب أحدا فإنه نوع من القذارة . فلماذا القذارة ؟ هل من الصعب علينا أن نرى مكانا نظيفا دون أن نلوثه . وإذا كنا من هواة جمع الطوب والظلط من الشوارع فلماذا لا نقوم بعكس ذلك . فننقله من الشوارع ونرميه

فى أماكن الزبالة - وهذه مساهمة متواضعة فى نظافة القاهرة أو أية مدينة أخرى .

ولكن الأمر غير ذلك . . فهناك مئات آخرون يضعون الدبابيس والمسامير فى جيوبهم . لماذا ؟ والجواب : إنهم يستخدمونها فى خربشة الأبواب والجدران وتمزيق مقاعد دور السينما والأوتوبيسات وتجريح السيارات الواقفة فى الطريق . وهؤلاء أيضا قرروا أن يفعلوا ذلك دون سبب . ولذلك استعدوا بالمسامير فى جيوبهم .

انهم هم أيضا الذى كانوا يرمون السيارات بالطوب فى شارع الهرم ليلا ونهارا . . وهم أيضا الذين حطموا زجاج السيارات بين القناطر الخيرية والقاهرة . ولكن لماذا ؟

ولابد أن أجدادنا الذين نزعوا أحجار الهرم الأكبر ليبنوا منها القناطر الخيرية ، لم يكن هذا قرارهم . وإنما قرارهم هو نزع حجارة الهرم فقط . ولكن يبدو أن أحد العقلاء قد وجه هذا التخريب إلى ما ينفع الناس .

إنها - إذن - نزعة إلى التخريب يجب أن نتعمق فى فهمها . وأن نتعاون معا على علاجها . لأن المشكلة ليست استخدام الطوب فى الضرب . . مرة يصيب ومرات لا يصيب . ولكن المشكلة أن استخدام الطوب والدبابيس والمسامير والسكاكين يصيب دائما : يصيب روح البناء والإنشاء والإبقاء على كل شئ نافع فى مصر . . والسكوت على ذلك هو تشجيع على توسيع جيوب الناس وملئها بطوب أكبر وظلط أخطر .

إن هذا الطوب موجه كله إلى مصر . . وهذه حقيقة مع الأسف . □

من أجل الآخرين !

قرأت أن الإسكندرية قررت أن تطلق اسم الفيلسوف الإنجليزى العظيم برتراند رسل على أحد شوارعها . وهذا الفيلسوف يستحق التكريم . لأنه عقلية كبيرة . وقلب كبير أيضا أحب الحياة ومات وهو يدعو إلى السلام فى فيتنام وفى كل مكان . ولأنه جلس على الأرض - وهو الشيخ المريض واللورد النبيل - احتجاجا على القواعد الأمريكية فى بريطانيا ، واحتجاجا على استخدام الأسلحة النووية . وقد ثارت عليه بريطانيا واتهمته بالتخريف . فسلوكه ليس انجليزيا ، أى ليس رزينا . وكانت قد هاجمته وطاردته قبل ذلك لأنه كان يدعو إلى التحرر الجنسى . عندما أنشأ هو وإحدى زوجاته مدرسة للتعليم المشترك . وعندما نادى بضرورة إلغاء الخوف بين الجنسين وتشجيع الجنسين على كل شئ بعد ذلك . وهاجر إلى أمريكا ونزل عن لقب النبالة الذى ورثه عن والده .

وإذا التفتت الإسكندرية إلى كل هذه المعانى - ولابد أنها تعرف ذلك -

وقررت أن تضع اسمه على أحد شوارعها ، فقد أحسنت الاختيار وهذه فرصة لأن تعدل الإسكندرية عن تسمية بعض الحوارى بأسماء أدباء عرب لا يشك أحد فى قدرهم العظيم ودورهم الخطير فى الفكر والسياسة والأدب والدنيا والدين . مثلا : الأستاذ الكبير العقاد وقد أطلقت الإسكندرية اسمه على إحدى الحوارى . . كأنها ترددت بين أن تطلقه أو لا تطلقه . فأخفت اسمه فى إحدى الحوارى . .

والشاعر التونسى أبو القاسم الشابى وقد أطلقت اسمه على حارة بها محطة مصر للبترول وبها الحلوانى السويسرى فلوكيجر . .

وهناك أسماء أخرى تسترت عليها الإسكندرية ، فلا هى تجاهلتها ، ولا هى سكتت عنها . . وإنما وضعتها على الرف أو على نواصى الحوارى ولا أقول إن إطلاق أسماء الأدباء على الشوارع يضيف إليهم شيئا هاما . ولكن يضيف إلينا الشئ الكثير ، فهذا هو الحد الأدنى من الامتنان لأناس كانت لهم حياة من التعب مع الحقيقة والخير والجمال وهذا التعب قد قضى على حياتهم . فقد عاشوا ليموتوا من أجل الآخرين . . فلا أقل من أن يتذكر الآخرون ذلك . □

أين الحل الحقيقى ؟

تزويغ

الطلبة من الدراسة قديم جدا . وأتذكر الآن أن أحد أساتذة الجامعة بالإسكندرية قد اكتشف وثيقة تاريخية ترجع إلى ألفى سنة أن مواطنا مصريا من دمنهور قد اكتشف أن ابنه الصغير (يزوغ من المدرسة) . وقد بعث له خطابا بهذا المعنى . وفى الخطاب يقول الأب انه عرف من أدق المصادر أن ابنه يركب العربات والخيول . وانه يضيع وقته وماله على الكلام الفاضى . ؟

ولا نعرف كيف عالج الأب هذه المشكلة ؟ فهل علاجها مثلا أن يطالب بعض الناس بإلغاء العربات الكارو والقضاء على الخيول ، لأن الطلبة عندما يزوغون يركبونها . هل يطالب أصحاب الخيول والعربات بسد الشوارع ، لأن الخيول والعربات لا يمكن أن تتحرك إلا إذا كانت هناك شوارع ؟ .

ثم إذا وجدنا أناسا « يزوغون » من الكمسارى حتى لا يدفعوا تذكرة الترام أو الأتوبيس فما الذى نفعله ؟ هل نلغى التذاكر ، هل نصرف نظرا عن الكمسارى

والاتوبيس . فإذا فعلنا ذلك قضينا على ظاهرة تزويغ الركاب من دفع التذاكر ؟ .

هل إذا سارت إحدى العربات على الشمال واصطدمت بعربة أخرى فمات تحتها طفل برئ فهل نطالب بإلغاء الشمال واليمين فى الشوارع ، ثم إلغاء العربات حتى لا تمشى فى الاتجاه الخاطئ فتدوس الناس الأبرياء ؟

هل إذا كان التلامذة الصغار أو الطلبة - أو بعض المواطنين - يذهبون إلى السينما فى حفلاتها الصباحية هل نقفل دور السينما حتى لا يذهب هؤلاء المزوغون . فإذا فعلنا ذلك واكتفى هؤلاء المزوغون بالمشى فى الشوارع فما الذى نفعله ؟

أو إذا ذهبوا إلى حديقة الحيوانات أو الأسماك أو كافتيريات الفنادق الكبرى أو النوم فى البيت متظاهرين بالمرض ، فما الذى نفعله ؟

ليست هذه حلولا . . وإنما الحل فى المدرسة نفسها وفى البيت . المدرسة هى التى تعاقب . والبيت هو الذى يجب أن يؤيد العقاب . إن أسباب التزويغ نفسية تربوية أخلاقية . .

ثم إذا اكتشفنا بعد ذلك أن الذين يزوغون من الدراسة يذهبون إلى السينما صباحا ومساء - وهذه حقيقة . فهل نلغى السينما وصناعة السينما فى مصر ونقعد على تلها - إن مثل هذا القرار هو أكبر تزويغ من مواجهة المشكلة والبحث لها عن حل حقيقى فى المكان الحقيقى . □

معذرة للعلم والعلماء !

جريمة هذا الرجل أنه نظر فى التلسكوب إلى السماء فوجد أن الشمس بها عواصف داكنة – هى التى نسميها البقع السوداء . . ووجد أيضا أن هناك ثلاثة توابع تدور حول كوكب المشترى ، ثم تابعا رابعا ، نحن الآن نعرف أن هناك اثنى عشر تابعا . وتأكد هذا الرجل أن كل شىء يدور حول نفسه . الأرض تدور حول الشمس والكل يدور – فى عالمنا هذا – حول الشمس . والشمس أيضا تدور . وكان ذلك مخالفا للدين وللفلسفة الإغريقية القديمة . واستحق هذا العالم الرياضى الإيطالى جاليليو أن يدينه الفاتيكان سنة ١٦٣٣ بأنه كافر وأنه يخالف ما جاء فى الكتاب المقدس من أن الأرض مركز الكون ، لأن الإنسان يسكن الأرض ، ولأن الإنسان سيد الأكوان كلها !

وكان جاليليو يؤمن بما قاله عالم بولندى اسمه كوبرنيكوس بأن الأرض تدور حول الشمس . . وجاء عالم إيطالى اسمه جوردانو برونو وأكد هذه الحقيقة التى استحق من أجلها أن يحرقوه حيا .

وأصدر جاليليو كتابه الشهير واسمه « محاورات » وهذه المحاورات أجراها بين

اثنين أحدهما اسمه « ساذج » وهو الذى يؤمن بأن كل شىء يدور حول الأرض . وقيل إن الساذج هو البابا . وغضب البابا والكرادلة . . واستدعوا جاليليو إلى روما . وكان فى السبعين من عمره مصابا بذبحة صدرية وفتق فى فخذه ، وهددوه بالسجن حتى الموت أو التعذيب حتى الموت إن لم يعتذر عن كل ما قاله . واعتذر الرجل . ولكنه كان يقول فى نفس الوقت ويهز رأسه : ورغم ذلك فإنها تدور – أى الأرض – حول الشمس . واستطاع جاليليو وهو فى بيت أحد الأمراء أن يبعث بنظرياته الفنية والفلكية والهندسية والموسيقية إلى عواصم العالم ، فقد أدرك أنه سوف يموت وأن نظره سوف يضيع منه .

وفى نفس السنة التى مات فيها – ١٦٤٢ – ولد عالم عظيم آخر أكمل نظرياته وأضاف إليها . . ذلك هو نيوتن !

وعندما ذهب نابليون إلى روما استولى على وثائق محاكمة جاليليو ونقلها إلى باريس سنة ١٨١١ . . وقد أعيدت إلى روما بعد ذلك سنة ١٨٤٥ . وقد قرأ د . محمد أحمد الحفنى فى إحدى الصحف الألمانية – أن الفاتيكان يريد أن يعتذر للعالم العظيم – تماما كما اعتذرت بريطانيا بإصدارها قرار الحريات الجنسية .

– والشذوذ وغيره – للأديب العظيم أوسكار وايلد !

ولكن بعد فوات الأوان ، فقد مات الرجل كسيرا مهانا . والفاتيكان لا يعتذر للرجل فقط ، ولكن يعتذر للعلم والعلماء ويريد أن يمحو بقعة دموية من ضميره ، حتى لا يتهم بالتعصب والجمود وحتى يكرر ما قاله جاليليو المؤمن الذى أراد أن يكون راهبًا : إن الله يتجلى فى كل شىء . والعلم الحديث هو القادر على أن يجعلنا نرى الله أوضح . والعلم وحده هو الذى يتقدم ، ويتقدم بنا إلى الله ، وليس التعصب الدينى ! □

محاولة لإقناعنا !

من ضمن الحيل - أو الترف - الذى ألجأ إليه عندما أتفرج على مباراة فى كرة القدم . . أن أقفل صوت التليفزيون وأسمع الراديو . فأرى المباراة وأسمع أحد المذيعين الذين أستريح إلى صوتهم .

ولكنى قد لجأت إلى حيلة أخرى لسبب آخر . فأنا أفتح التليفزيون أرى ولا أسمع صوت المذيع وأعتمد على نفسى فى فهم ما يجرى . . وأسماء اللاعبين لا تهم ، وإنما حركة أقدامهم وسيقانهم ونشاطهم بين المرميين هو الذى يهم . ولا يهم أيضا زمجرة أو زئير أو تصفيق أو غضب عشرات الألوف من المتفرجين . فهم جميعا مثلى . مع فارق واحد : إننى أهدأ لأننى وحدى . وأنهم أكثر صخبا لأنهم معا . والإنسان عندما يكون وحده يكون رأسه على كتفه ، ولكن عندما يكون مع الكثيرين فإنه لا يعرف أين رأسه وأين رجلاه . وهو غالبابرأسه ورجليه فى أيدى الآخرين يحركونه دون أن يدرى . .

ولجأت إلى أن أكتب ملاحظاتى بعد كل مباراةبمنتهى الهدوء والعقل

والحساب . وأنا أعتمد طبعا على معلوماتى المحدودة على ملاحظاتى المدربة وفى نفس الوقت ليس لى هوى مع أى ناد من الأندية . فماذا كانت النتيجة ؟

أن الذى رأيته وأحسست به شىء مختلف تماما عن الذى يكتبه النقاد فى كل الصحف ، طبيعى أن نختلف . فهم أكثر خبرة وأكثر متابعة ، وهم جميعا هوائيون - أى أصحاب هوى . فكل ناقد هو أم تحتضن أحد الأندية أو أحد اللاعبين . وكل ناقد أم لبعض اللاعبين وزوجة أب لبعض اللاعبين وداده - أو مربية - للاعبين آخرين . . وأحيانا أم بلا أولاد ، ولذلك يحقد على كل الأمهات وعلى كل من لها ولد .

ولكن لست واحدة من هؤلاء الأمهات !

وفى كل مرة أقرأ ما يكتبه النقاد وأقول لنفسى : ليس هذا صحيحا . فالذين يتحدثون عنه لم أره ، ولا يمكن أن أصدقه ، أن كل واحد منهم يكتب عن نفسه ، بل لعله كتب قبل أن يذهب إلى الملعب .

وخلاصة ما أحسست به وأنا أتفرج على المباريات فى : أن اللعب فاتر بارد . عاجز قصير النفس ، فالعيون كأنها لا ترى والسيقان كأنها أقصر مما يجب . والمرمى أبعد مما يجب . وكأن اللاعبين لا يعرفون بعضهم البعض . . أو كأن قواعد كرة القدم قد اخترعت حديثا ووزعت عليهم قبل المباراة بدقائق فلا يعرفها أكثر اللاعبين ! وكأن الجمهور لا يعرف شيئا بعد ذلك . . أما حكام كرة القدم فقد صدرت إليهم التعليمات التى تقول : إن اللاعب زبون ، والزبون على حق دائما !

وفى بعض الأحيان كنت أحس أن اللاعبين لا يلعبون ، وإنما هم يتناقشون فى قضايا اليوم وقضايا الساعة . . ولذلك فهم لا يفهمون شيئا ونحن لا نفهم شيئا وكل هذا الجرى من أول الملعب لآخره محاولة عضوية لإقناعنا بشىء . .

أما الذى يبعث على الدهشة حقا فهو انتهاء المباراة ، وبداية مباريات أخرى ، **وأعجب من ذلك** ما يكتبه النقاد الرياضيون . .

وقررت أن أقفل التليفزيون نهائيا ، مادام الذى أراه لا أفهمه ، والذى أسمعه لا أفهمه ، والذى أقرؤه لا أصدقه ! □

الضياع الاختيارى !

ماذا يحدث عندما ترتدى ملابسك كلها ، **ولا تجد مكانا تذهب إليه ؟ فأنت** تقف أمام باب البيت ، كأنك **لم تقرر بعد أين تذهب ، أوكأنك قررت** أن تتخذ هذا القرار وأنت تمشى **فى الطريق . أوكأنك واحد راحت منه** ذاكرته ، ويريد من كل شىء فى الشارع **أن يعيد إليه الذاكرة . ولذلك** فأنت إذا مشيت بالمرة . . كأن الدنيا كلها **هى الأخرى قد ضاعت منها** ذاكرتها . دلالتها . معانيها . **فما** هذا الذى أنت **فيه ؟**

أنت فى حالة ضياع .

وعندما يكون الإنسان ضائعا ، أو مضيعا ، **فكل شىء عنده سواء** : أن يوجد أى شىء ، وألا يوجد . أن يكون أو لا يكون . **أن تكون هناك** شوارع مفتوحة ، أو شوارع مسدودة ، لأنه لا **هدف** ولا نهاية لشارع . **لا معنى للرصيف** . لا قيمة للمشاة ولا علامات المرور ولا لرجال المرور ، **ولا أصول وقوانين** الحركة وهذا هو منتهى الضياع !

وعندما لا يكون للإنسان هدف ، فكل شارع مثل أى شارع ، وأى شارع **مسدود أو مفتوح** على الهاوية أو على العدم .

وما من أحد لم يكن هذا شعوره لبعض الوقت أو معظم الوقت .

فما الذى يفعله الإنسان فى هذه الحالة ؟

إما أن **يكون** قادرًا على أن يخرج من هذا الضلال أو هذا التيه ، أو يجد من يخرجه أو الذين يخرجونه . فإذا استطاع أن ينقذ نفسه بنفسه ، فهو إنسان قادر . **وهو إنسان قد** كتب له عمر ثان . وهو قادر على أن ينقذ الآخرين أيضا . . وهذا هو **حال عدد** قليل من الناس . وإما أن يستغرقه الضلال حتى يغرقه . وبذلك يصبح **موجة** ضمن ملايين الموجات فى بحر اسمه : الناس العاديون . . وأما أن يجد حلا **آخر** هو أن ينتهز هذه الفرصة ليضيع مرة أخرى ، فينزوى ويلتوى وينطوى ويعكف على الهلوسة النفسية أو الجسمية أو العقلية – أى يجد نفسه قد أدمن شيئا : المخدرات أو المنبهات أو العقائديات . . ويصبح الإدمان نوعا آخر من الضياع الاختيارى . .

وفى استطاعتك وأنت تتفرج على حال الناس أن تضع نفسك بين واحد من هؤلاء الثلاثة . أو تكون هؤلاء الثلاثة معا . . وأكثر الناس هم هؤلاء الثلاثة : ضائعون مضيعون هاربون من الضياع إلى ضياع آخر فاللهم رحمتك ! □

المزاج الحاد !

هل نحن عصبيون ؟

إن الملاحظات العابرة تؤكد هذا المعنى . ويكفى أن ندخل فى مناقشة أى موضوع . من الطبيعى أن يختلف الناس . وأن ترتفع أصواتهم . وأن تتطاير أيديهم . وأن يجلس الواقف . ويقف الجالس . ويشتد الخلاف ، فى هذه اللحظة عليك أن تنظر إلى وجوه الناس ، ماذا حدث ؟ إن يدا سحرية قد حولت الوجوه إلى مناديل حمراء مكرمشة . العينان ضاقتا ، والأنف برز أكثر . والشفتان أصيبتا بالجنون . أما العينان فقد التهبتا بالدم مع بعض الدموع . .

وبعد ذلك يتغير لون الوجه إلى أزرق على أحمر . ثم أحمر . . ثم أصفر . . كل ذلك لأن هناك خلافا على أيها أفضل كوسيلة للمواصلات : الترامويات أو الأتوبيسات أو عربات الآخرين ؟

أما بعض الكلمات النابية فهى محاولة للتأثير على خصمك فى المناقشة ليكف عن معارضتك أو لعله يقف إلى جوارك ويأخذ بوجهة نظرك .

وإذا كان موضوع المناقشة حيويا فإن هذه الصورة لن تتغير كثيرا . وبعد ذلك كل شئ من الممكن أن يحدث : خصومة . . خلاف إلى الأبد . . اتهام فى الذمة والعلم . . وكل شئ جائز .

فهل نحن عصبيون . . أم أن هذه طريقتنا فى الكلام وفى المناقشة ؟ أعتقد أن هذا هو مزاجنا الحاد ، مزاج أبناء البحر الأبيض المتوسط . ومثل ذلك يحدث فى إيطاليا واليونان وأسبانيا وتركيا وسوريا ولبنان والمغرب العربى كله . .

وأذكر أنى رأيت فى روما متحفا أطلق عليه اسم « متحف الشيطان » وكانت كل اللوحات المعروضة هى للشيطان بريشة عدد كبير من الفنانين فى كل العصور . . ولكن الذى أعجبنى فى هذا المعرض هو أن الشيطان لم يكن سوى الإنسان نفسه وقد ضحك عليه الشيطان . ولذلك فاللوحات تصوره فى حالة الغضب والتمرد والثورة . . تصوره فاجرا ، لصا ساحرا سياسيا .

مثلا : نجد فى المحلات التجارية شجارا بين بائع وبين زبون . ويرتفع الصوت — صوت البائع . ويشتم الزبون ويلعن أباه ويلقى بالسلعة فى وجهه ويطلب إليه أن ينتظره خارج المحل لكى يسوى حسابه معه . ويتكرر هذا فى كثير من المحلات العامة . ولكن لماذا .

ربما كان السبب هو : الضيق والغرور واللامبالاة . فهو يضيق بكل شئ وكل واحد . ولا يرى وجهات نظر أخرى للناس . ثم إنه لا يهمه ما يحدث أو ما سوف يحدث بعد ذلك . .

فإذا أضفت إلى هذه الصفات مزاجنا الحاد ، فأمامك صورة كريهة يجب أن تتذكرها دائما حتى لا تكون أنت مفزعا للآخرين . □

الشتاء الخاص

دخل الشتاء فى أنفى وحلقى وصدرى ، وهو الطريق السنوى الذى أعرفه ، وأعمل له ألف حساب . ولا أعرف ، ويبدو أننى لن أعرف طريقة للخلاص من هذا الشتاء اللعين - وكل شتاء لعين .

فلسبب غير واضح طبيا أو نفسيا أصاب بالبرد ، بكل أنواعه . وآخر ما اهتدى إليه الأطباء هو أننى « خلقة ربنا » - ومعناها أننى مولود هكذا . عندى حساسية شديدة للبرد ، ولكل شئ بارد إذا لمسته بيدى عطست فورا . ويتوالى العطس ويتضاعف ويتعقد وتتكدس الملابس على جسمى ، وتنسد النوافذ والأبواب وأعلن بدء صيف خاص بى : حرارة وعرق وأرق واختناق إلى أن يهل هلال شهر مارس من كل عام جديد .

آخر ما قرأت عن مقاومة هذا الوهم الذى اسمه « الشتاء الخاص » هو أن أتعرض للبرد . . يعنى أواجه الهواء من النافذة وفى الشارع . بملابس ثقيلة . هذا ممكن . ولكن الملابس الثقيلة والأماكن المغلقة تجعل الجسم يعرق . ومواجهة الهواء

بالعرق تؤدى إلى العطس والزكام . . الخ . ولكن د . أرنولد فرلينج فى كتابه « أوجاع الشتاء » يقول : إنه عاش طويلا فى جزيرة كريت . ولاحظ أن عددا كبيرا من أهلها يصاب بالزكام . ويعالجونه بالنوم فوق الأسطح وهذا النوم يكسبهم مناعة شديدة . ويقول أيضا : إن الإغريق القدامى والرومان كانوا يفعلون ذلك .

ويقول الطبيب فرلينج إنه عاش وقتا طويلا أيضا فى جزر الفلبين حيث درجة الرطوبة عالية جدا . ولاحظ أن عددا كبيرا قد أصيب بالربو والالتهابات الرئوية . ومن الغريب أن بعض المواطنين البدائيين يعالجون مرضاهم بتغطية أجسادهم بأوراق شجر الموز . ثم ينامون فى العراء . ورغم الرطوبة والعرق والهواء فإنهم يشفون فى وقت قصير .

يريد أن يقول : إن أكثر ما نسميه بأمراض الحساسية هى أمراض إحساس . ولذلك يجب أن نسميها أمراض : اللاحساسية وليست الحساسية .

يعنى أن هذه المخاوف نفسية من أولها لآخرها . وأننى أستطيع بهذا الكلام وتكراره أن أنقل هذا المرض إلى أناس آخرين . . وذلك بالإيحاء إليهم بأنهم مرضى مثلى . . وأنه لا يستبعد أن يصاب بعض القراء بزكام أو بعطس بمجرد أن يفرغوا من هذا الكلام .

فإذا حدث لك ذلك فالطبيب على حق وأنا غلطان – ولكنى على كل حال أعطس . وكل سنة وأنت مزكوب – أقصد مزكوم ، □

نظافة العقول !

من المتع التى لا ينساها من يذهب إلى باريس أن يتمشى على شاطئ نهر السين . النهر ليس شيئا كبيرا . إنه صغير ضيق . ومياهه مليئة بالجير . ولا يصلح لا للسباحة ولا للملاحة . ولكن الفرنسيين يرون فى نهر السين كل جمال الدنيا ، بنفس الدرجة التى لا نرى فيها جمالا لنهر النيل فى القاهرة أو من أسوان حتى دمياط . إنها مسألة مزاج ، ومسألة إحساس بالجمال ، وبضرورة أن يجد الإنسان الجمال فى كل شئ حوله . لكى يكون للحياة طعم . ولوجوده هو معنى .

ولكن جمال نهر السين فى الفرجة على المعارض الكثيرة جدا على أحد شاطئيه . لا أقول عشرات ولا مئات . . إنما بالألوف . . الكتب بمئات الألوف . اللوحات بعشرات الألوف وأنت تستطيع أن تمضى أياما كاملة تتمتع بجمال الفن والأدب والفكر . وفى استطاعتك أيضا أن تتفرج على مخلوقات الله الجميلة التى زادها العلم والأدب والفن جمالا . إنك تجد الواحد أو الواحدة وقد جفت من الجوع أو من

الريجيم ، وقد نجدها لم تغسل وجهها ولا مشطت شعرها ولا مسحت شفتيها ، ولكنها فضلت أن تقرأ أولا ، وتستعرض ثانيا . . وأن يدخل الطعام دماغها قبل أن يدخل معدتها . . فعلى شاطئ السين أكثر من معرض .

ونحن عندما تحمسنا لسور الأزبكية كان مصدر هذه الحماسة ما رأيناه على شاطئ السين فى فرنسا ، وعلى سور هايد بارك فى لندن . . فهذه الكتب والمجلات واللوحات والاسطوانات هى سوق ثقافية ، ومن مظاهر فخرنا ، نحن المؤلفين ، إذا زارنا كاتب أو أديب أجنبى أخذناه إلى سور الأزبكية أو إلى «كشك مدبولى» فى ميدان سليمان باشا . . ونقف بكل اعتزاز ونقول له : أنظر . . هنا كتب . . وأهم من ذلك هنا قراء من كل سن ومن كل جنس . .

وصحيح أننا لم نبلغ ما بلغته لندن أو باريس ولكن لدينا شئ ليس كثيرا . . وسوف يكون هذا الشئ كثيرا ، كلما تعلمنا أكثر ووجدنا من الضرورى أن نكتب أكثر ، ونعرض أوسع . . فليست نظافة الشوارع والأرصفة وحدها هى التى تدل على نظافة الناس ، ولكن هذه الكتب وضرورتها والمجلات وأهميتها وإقبال الناس عليها وفرحتهم بها ، هو الذى يدل على نظافة عقول الناس التى سوف تنظف الشوارع والأيدى والجيوب والنفوس بعد ذلك . □

هذا هو الطوفان !

ما الذى تستطيعه أنت إذا وضعت على سريرك مشاكل مصر والعالم العربى ، قديما وحديثا ومستقبلا ؟ قل لى ما الذى تستطيع أن تفعله . أمامك البلاد العربية ، قديما وحديثا ومستقبلا ؟ قل لى ما الذى تستطيع أن تفعله . ثم أمامك البلاد العربية والشعوب العربية والجيوش العربية والأرض وما تحت الأرض وما فى البنوك وما فى الخزائن ؟ ثم أرجوك أن تختار بنفسك دولتين عربيتين اثنتين بينهما اتفاق تام على أى شئ . ثم حاول بعد ذلك أن تختار قضية واحدة مهما كانت بديهية وأن تحصل على موافقة إجماعية على معناها ومبناها . .

مثلا : كيف نصل إلى اتفاق على جلاء القوات اليهودية من الأرض المحتلة ؟ كيف ؟ تتفق مع من ؟ على ماذا ؟ ومتى ؟

لا خلاف على أننا نريد جلاء اليهود لا خلاف . لا خلاف على أننا نريد أن نموت فى سبيل ذلك . ولا خلاف على أن أسهل قرار يتخذه حاكم هو أن ندخل

الحرب مع اليهود . وليس أصعب مما هو بعد ذلك . كيف تستمر؟ وكم تستمر إذا بدأت الحرب . . وإذا ضربوا الجيش وإذا ضربوا المدن وإذا ضربوا الجسور وإذا ضربوا المصانع ؟ كل ذلك يجب أن نحسب حسابه - أو أن يحسب الحاكم حسابه ولابد أن يكون من عمليات الحساب أن يتحقق من ذلك بنفسه .

وفى نفس الوقت كيف وماذا ومتى نقول للعالم كله وأثناء وبعد ذلك . كيف نتفق مع الصديق ونصف الصديق ومع العدو ونصف العدو - أرجو أن تلاحظ أنه لا يوجد فى الدنيا أصدقاء طول الوقت ، ولا نصف أصدقاء طول الوقت . وإنما هى مصالح تروح وتجئ تقوى وتضعف - وهذه هى حال الدنيا كلها .

وفى نفس الوقت أيضا تجد على سريرك مشاكل الخمسة وأربعين مليونا يأكلون ويشربون ويستنيرون بالكهرباء وبالمدارس والجامعات ويعالجون وينقلون من مدينة إلى مدينة ومن مصر إلى غيرها من الدول . . ولا شئ يتوقف عن العمل والأمل ، ولا شئ يكف عن الأكل والشرب والنوم والموت والميلاد . . كل شئ يمشى فى فلكه الطبيعى . ومطلوب منك أن تجعل كل شئ طبيعيا ، كأنك لست فى حالة حرب أو لن تكون .

إذا كنت منصفا فإنك تقول : ليس فى تاريخ مصر فترة أصعب من هذه الفترة ، ولا أقسى منها على الحاكم والمحكوم . .

ماضينا القريب أغرقنا فى كثير من المشاكل والهموم والعقد . فاللهم إذا كان هذا هو الطوفان ، فاجعل من صبرنا ووعينا نوحا وسفينة - يا أرحم الراحمين . □

لها كراهية الرجال واحتقار النساء !

جاكلين زوجة أناسيس – وكنيدى قبله – سيدة لها شخصية استفزازية . بمعنى أنها تغرى الناس بأن يتعرضوا لها بالإهانة . ولكن من الصعب تجاهلها . فقد كانت السيدة الأولى لأقوى رجل فى العالم ، ثم أصبحت السيدة الثانية لأغنى رجل فى العالم . .

وقد عاشت فى جزيرة منعزلة تماما لكى تكون على راحتها . أن تنام على الرمال مثل أية سيدة فى أى مكان دون أن يتعرض لها أحد من المصورين أو الصحفيين . وهذا الابتعاد يفسره الصحفيون على أنه نوع من التعالى على الأفلام والعدسات وهذا يضايقهم . ولذلك يحتالون للوصول إليها . فإذا لم يلتقوا بها ، شهروا بها وشنعوا عليها .

وعندما قررت جاكلين بعد مقتل زوجها كنيدى أن تتزوج رجلا آخر ثار عليها الناس فى كل مكان . كيف تتزوج بعد كنيدى ؟ ياقلبها ؟

والذين يعرفونها قالوا انها بلا قلب . لها جيوب فقط . والذى ورثته عن زوجها

لا يشبعها . ولذلك قررت أن ترث شخصا آخر . وحتى لا يطول انتظارها اتفقت معه على أن يدفع لها بضعة ملايين حتى لا يكون موته ضياعا لها . وحتى إذا انفصلت عنه وجدت ما تعيش به كأرملة رئيس أمريكى ومليونير يونانى .

ولابد أن منطق جاكلين بعد وفاة زوجها . أنه رجل اختار المجد . ولا مجد لها . إنه لم يعد له مستقبل لأن ماضيه سوف يخلده التاريخ السياسى . أما هى فكانت تعيش فى ظله . أو فى الظل . ومن حقها أن تعيش . وهى ليست سيدة هندية من الطراز القديم ، فتحرق نفسها بعد وفاته . وهربت من قبيلة كنيدى وعاشت مع المليونير أوناسيس فى جزيرة أنيقة منعزلة .

ولكن شخصيتها الكريهة استدرجت الكاميرات فصوروها عارية . مع أن جاكلين ليست صاحبة جسم جميل . فلا هى مارلين مونرو ولا هى راكيل ولش . ولكنها سيدة نحيفة رياضية . . ويبدو أن جاكلين تعقدت كثيرا من القيود التى عاشت فيها ، ومن ارتداء الابتسامات والتحيات ، فلم تعد تجد راحتها إلا فى أن تكون عارية . وتعرت وكانت هدفا لكاميرات خفية . . نشرت صورها على ثمانى صفحات .

وهذه الصور ليست إلا نقمة من ثمانى صفحات . . ليست إلا انتقاما من ثمانى صفعات . ولكن لماذا ؟

لأن جاكلين أوناسيس شخصية استمتعت بكراهية الرجال واحتقار النساء . وهذا الانتقام سوف يريح الجميع . □

قتيلة أصحاب الملايين

رأيت الصور التى التقطت لجاكلين أوناسيس . وهى عارية تماما . وليست هذه الصور غريبة فى أى شئ . فمن المألوف جدا أن يتعرى الإنسان إذا كان فى بيته . أى إنسان . الذى يملك بيتا والذى يسكن بيتا . فقبل أن يلبس الإنسان لابد أن يقلع ملابسه . . ومن الممكن أن تمتد كاميرا من النافذة فتضبطه عاريا . وبلا ورقة توت .

ولكن ما الذى جعل عشرة من المصورين يدورون حول جزيرة « سكوربيون » اليونانية سنة كاملة ليصوروا جاكلين أوناسيس عارية ؟ فلا هى جميلة وأخفت جمالها عن الناس . ولا هى الوحيدة فى الدنيا التى حملت وولدت ثلاث مرات ، فلم يترهل لها بطن ولا صدر . فهناك مئات الألوف من الناس مثلها . وهناك ألوف من الممثلات والفتيات قد شددن البطن ورفعن الصدر – فقد تقدمت جراحات التجميل فى العالم .

ونشرت صورها بالألوان ونقلت بغير ألوان إلى كثير من المجلات . فماذا كانت

النتيجة ؟ اندهش الناس لما رأوا . وبعض الناس رأى فى ذلك عملا غير أخلاقى من المصورين . ومن الصحافة التى نشرت ذلك .

ولكن لماذا ؟ لأن هذه السيدة كريهة . ولأن أحدا لا يحبها فى هذا العالم وفى عالم الصحافة بصفة خاصة فهى قد تحدت الصحفيين . واستطاعت أن توقع بعضهم وأن تخيب آماله . وأن تتعالى عليهم . وأن تهرب من ميكرفوناتهم وعدساتهم . وأن عددا كبيرا من شركات السينما والتليفزيون قد انفقت ملايين الدولارات جريا وراءها . ولكنها أفلحت فى أن تهرب من الجميع . ولابد أن يكون الناس قد كرهوا وجهها الجامد مثل قلبها – فهى تركت قتيلا هو زوجها بعد أن ورثت منه الملايين ، وذهبت إلى حضن قتيل آخر فى محبتها ، وأخذت منه بضعة ملايين . وظهرت أمام الناس مثل أفعى لا تأكل إلا الدولارات التى أمامها عشرات الأصفار . .

هذا النموذج من مخلوقات الله يستحق أن يعاقبه بعض الناس على هذه الشراهة المادية والحسية . ويبدو أن هذه الفضيحة لم تشف غليل الصحفيين ، لأن جاكلين لم تشعر بأنها فضحت بل إنها وجدت مادة جديدة لتقول : إنها ما تزال شابة أنظروا إلى ضيق الخصر واستدارة الردفين والنهدين .

لو كنت من المصورين العشرة الذين حاولوا فضحها ، لعاودت الدوران حول الجزيرة وأطلقت عليها الرصاص وصورتها أيضا – ولكننى لست مصورا ولا يهمنى كثيرا أن تعيش أو تموت . □

ليس شابا من لا يغضب

ينسى الآباء أنهم كانوا شبانا . وكانت لهم أحلام وكانت لهم ثورات وغضبات . والذى يجعلهم ينسون ذلك ، أنهم تجاوزوا مرحلة الشباب ودخلوا فى مرحلة الرجولة التى هى كثير من الواقعية والهموم ، أو ضرورة أن يتجه الواحد منهم إلى البحث عن مستقبله والجلوس إلى أى مكان . وينطلق من هذا المكان إلى مركز أفضل وأن تكون له أسرة . فإذا كانت الأسرة زادت همومه وراح يتطلع إلى اليوم الذى تخف فيه الهموم وهو يحلم دائما بأن هذا اليوم قريب . فإذا انتظر طويلا ولم يأت هذا الفرج القريب ، راح يسخط على الأيام ، ويلعن الذين استطاعوا ما لم يستطع وبلغوا ما لم يبلغ . وفى نفسه تدور مشاكل بين المبادئ التى كان يؤمن بها وهو شاب ، وبين الواقع الذى اصطدمت به هذه المذاهب . .

وعندما يصل الإنسان إلى هذه النقطة من صراعه الداخلى يتساءل عادة : هل هذه المبادئ تساوى ما بذله من أجل الإبقاء عليه ؟ هل يمضى فى تمسكه بمبادئه

دون أن يناقش مدى صحة هذه المبادئ أو مدى واقعيتها ، أو مدى قدرته على تحقيقها ؟ هل يظل واقفا على صخرة جامدة اسمها : الثبات على المبدأ . . أى مبدأ ؟ هل كان مخطئا طول حياته ؟ ما الذى يعلمه لابنه ولابنته ؟ ماذا يقول للناس ؟ !

من الممكن أن يقطع الإنسان عمره كله أو أكثره دون أن يجد متسعا من الوقت ليناقش نفسه . . أكثر الناس يفعلون ذلك . أى أكثر الناس ليس عندهم وقت أو رغبة فى مناقشة أنفسهم . لأن المناقشة يكون لها طعم الندم . والندم طعمه مر . وفى هذه الحياة مرارة كثيرة . . فلا داعى لهذا الندم .

فإذا جاء أبناؤهم واستأنفوا هذه المناقشة . ووضعوها تحت أضواء أقوى . وفى مواجهة قضايا أكبر ، هنا فقط ينزعج الآباء . كأنهم لم يكونوا شبانا . كأنهم لم يكونوا ساخطين . كأنهم لم يندموا على أنهم لم يناقشوا مبادئهم . . حياتهم . . مستقبلهم .

إن غضب الشبان طبيعى . بل إن شبابا لا يغضب ليس شبابا . بل إن شبابا لا يتساءل ليس حيا . ولا حياة له اليوم أو غدا .

ولكن الآباء ينسون أنهم كانوا شبانا ، وأنهم أشد ندما على أنهم أضاعوا العمر دون سؤال ، ودون غضب .

وأضاعوا بلادهم أيضا . □

فاقد الشيء لا يعطيه !

التمريض ليس مشكلة مصرية – مثل دودة القطن وانقطاع التيار الكهربى والمجارى والمواصلات والمطبات وأزمة المساكن وعدم الإحساس بالزمن . ولكن التمريض مشكلة عالمية . فمن حين إلى حين نقرأ مقالا عن التمريض فى بريطانيا وعن التمريض فى فرنسا . . وإذا حذفنا أسماء المستشفيات والبلاد نجد أن المعنى لا يختلف كثيرا عن الذى يقوله المريض فى مستشفى قصر العينى العام أو مستشفى الطبيب فلان الفلانى الخاص . . والشكوى واحدة . فالممرضة لا ترد إذا نوديت . . وإذا جاءت فأنت أمام عفريت كان نائما ثم أزعجته . . وإذا لم تكن قد نامت فهى تطلب إلى المريض أن يخمد ويتوارى تحت الغطاء وإذا لم يفعل ذلك فإنها تهدد بما هو أسوأ من ذلك . .

مثلا : فى لندن شكا أحد المرضى من أن الطعام يجئ باردا . . ومن الضرورى أن يكون دافئا . . وكان رد الممرضة أن درجة حرارته المطلوبة هى التى تعادل حرارة الجسم . .

وهى تنصح المريض بأن يمسك كوب أو فنجان الشوربة فى يديه . . وبعد لحظات يكتسب حرارة الجسم .

مثلا : مريض فى باريس يشكو من أن زميله فى الغرفة ينام بصوت مرتفع وهو لا يستطيع أن ينام . . والتعليمات فى المستشفى تحتم نقل هذا المريض إلى غرفة مستقلة أو أن ينام مع مريض آخر يفعل نفس الشئ . . وكان رد الممرضة : تستطيع أن تكتم أنفاسه أو تقتله أما أنا فلا أستطيع . . وتركته عشرين يوما يكرر هذه الشكوى .

والمريض صاحب الشكوى يعلم جيدا أنه إذا شكا هذه الممرضة إلى رئيستها ، فسوف تجعل إقامته فى المستشفى جحيما . . ولذلك يسكت عليها وعلى زميله فى الغرفة .

وهناك بعض الأطفال يؤكدون أن الممرضات يضربنهم . . أو يهددن بذلك كل هذا فى بعض مستشفيات أوربا .

إن المريض فى حاجة إلى راحة . ولكن الممرضة أيضا تحتاج إلى نفس الشئ . . إن عملها فى غاية القسوة وأجرها ضئيل . . وإذا اجتمعت عليها قسوة العمل وقلة الأجر ، وسوء المعاملة ، فليس من الرحمة أن تطلب إليها الرحمة بغيرها من الناس .

وإذا كان المرض قاسيا على المرضى ، فإن التمريض أقسى من المرض . . ولذلك فالتمريض مرض آخر ليس علاجه ماديا ولا نفسيا ولا اجتماعيا ، إنه كل ذلك وأعقد وأصعب . . فاللهم احمنا من المرض حتى لا نقع ضحية للممرضات اللاتى هن ضحايا المرض والمرضى . □

لا تتعجلوا الحساب !

واضح جدا أن شعورنا بالندم والذنب والعار يزداد عمقا . والشعور بالندم رد فعل طبيعى وكذلك بقية المشاعر الأخرى .

ولكن الذى ليس طبيعيا هو أن يكون شعورا عاما لا بديل له .

لا أضيف شيئا جديدا إذا قلت هذا الشعور قد غمر مصر كلها ، وإنما العرب جميعا ، بعد النكسة العسكرية . ولكن هذا الشعور العريض من المحيط إلى الخليج ، العميق فى شباب ورجال مصر وحدها لا يزال بلا مبرر – أقصد بلا مبرر معروف واضح . أى أننا لم نعرف بالضبط هل نندم على ما حدث ؟ ولماذا نندم نحن ؟ هل نحن ؟ هل المدنيون ؟ هل الذين يكتبون ؟. وكم عدد الذين كانوا يكتبون ؟ هل الذين يقرأون ولا ينطقون ؟ وكم هو عمر الذين من الواجب أن يندموا ؟

إن هذه الأسئلة لها شكل الاتهام ، ولكنها لا تتهم أحدا . ولا ندرى كيف نتهم أحدا ؟ ومن هو هذا الذى نتهمه ؟ هل هو واحد أو أكثر من واحد ؟ .

ما تزال هذه الأسئلة الهامة سابقة لأوانها . أما متى يجئ هذا الأوان – أى المحاكمة التاريخية لأنفسنا عما ارتكبناه فى حق أنفسنا والأجيال العديدة القادمة ، فليس فى أيدينا نحن الذين تجاوزنا الأربعين . ولكن أجيالا أخرى سوف تفعل ذلك . ولهذا يجب أن نحمل أعباء الأجيال القادمة ، مع أن عندنا ما يكفينا من الهموم ، ولا يعفينا من المسئولية . ولكن أهم مظاهر هذا الندم : الرفض لكل شئ . الرفض للسؤال وللجواب . الرفض للذى يقول وللذى يسكت . لماذا ؟

لأننا الشعور بالذنب وبالعار هو الذى جعلنا نستكثر على أنفسنا المظاهر الأولية للحياة : الشهيق والزفير ، السؤال والجواب أن نقول لا وأن نقول نعم . . إن موقفنا صعب . إن معدة ترفض الطعام والشراب ، فهى مقبرة لأنها ترفض الحياة . أن يأكل الناس وأن يناموا . وأن تمتد أيديهم وأذرعتهم ، وأن تكون لهم صلات الحب والمودة والصداقة والعداوة . لأن الحياة ليست هى الرفض . الحياة هى القبول والأخذ والاستمرار . . فليست هذه المرحلة هى نهاية الحياة ، بل هى إحدى حلقاتها ، أحد المطبات الأرضية أو الجيوب الهوائية أو البقع الشمسية . . ويجب أن تمضى . ولا حياة بغير أحياء . . ولذلك يجب أن نمضى .. أن تمضوا أيها الأحياء . وسوف يجئ الحساب فيما بعد ، لأنفسنا أو لغيرنا . □

حتى البصل .. فقد حرارته

في الأيام الأخيرة سمعت هذا المثل أكثر من مرة ومن أكثر من صديق :
اسأل المجرب ولا تسأل الطبيب .
وقد سألت أم كلثوم فقالت : أقعد فى البيت .
وقال لى توفيق الحكيم : قرص أسبيرين يوميا .
ونجيب محفوظ قال : تعال امش معنا كل يوم .
ونصحنى حمدى عاشور : أن أبلع ريقى .
والمهندس عثمان أحمد عثمان . اشتغل معنا أسبوعا فى أعمال البناء والحفر .
ونصحنى الفنان الكبير صلاح طاهر : أن أقف على رأسى ربع ساعة كل يوم .
ولما سألت الطبيب قال لى : لا تفعل أى شئ ، أو افعل أى شئ . فسوف تبقى الانفلونزا فى أنفك وفى حلقك سبعة أيام .

وجربت هذه النصائح سبعة أيام ، وذهبت عنى الانفلونزا . والحمد لله
ولا أعرف من الذى قال للمطربة فايزة أحمد إننى لا أقبل العدوى ولا أنقلها

وبعث بزوجها السابق الموسيقار الرقيق محمد سلطان يسأل عن صحتى . ويأخذنى بالأحضان والزكام الشديد جدا . . ففايزة أحمد كانت قد لازمت الفراش سبعة أيام ونائمة فى الثامن .

ومددت ذراعى وساق لحقن الفيتامين ج ، مرة فى العرق ومرة فى العضل .وأخفيت أنفى فى الورق . وسددت فمى عن الكلام . وواجهت الهواء بظهرى . وملأت فمى بالماء البارد إذا نزلت إلى الشارع . . والتهبت شفتاى من الأقراص ، ولسانى جف وقصبتى الهوائية أصبحت فى برودة الثلاجة . وانفلق رأسى إلى نصفين . نصف معى والنصف الآخر ضدى . . وأحسست بالهواء يصفر فى المسافة التى بين النصفين . ويكون لهذا الصفير صوت موج البحر فى أذنى ، وأحيانا يكون له صوت جمهور الأهلى عندما ينهزم الزمالك من الترسانة .

وسألت عم عبده البواب : ماذا كان يفعل الفراعنة عندما يصاب الواحد منهم بالزكام ؟ يقول عم عبده وهو من الأقصر : كان الواحد منهم يأتى ببصلة ، والله العظيم ويضعها فى فمه . . ثم يقرشها . . وبعد ذلك يلقى بها على الأرض .

والمعنى الذى يقصده عم عبده هو أن رائحة البصل الملتهبة والأبخرة الجهنمية التى تخرج من البصل تؤدى إلى نوع من الكى بالنار السائلة . وهذا الكى هو الذى يشفى من ألم الصداع والزكام والسعال والرشح .

وجربت الوصفة الفرعونية ، وما أزال أعانى من التهاب الأذن والأنف والحنجرة . . وحمدت الله وحسدت الأجيال القادمة على أن البصل لم يعد حارا كما كان على أيام الفراعنة — حتى البصل فقد حرارته . □

.. إنها الأشياء الصغيرة !

لا تصدق أن الأشياء الكبيرة والأحداث الهائلة هى التى تغير الرجال أو النساء ، أو ما بين الناس . وإنما هى الأشياء الصغيرة . والحوادث التافهة أيضا . لماذا . . ؟ لأننا بشر . وكما يبكى الإنسان عند خلع الضرس ، أو عندما تنفذ فى جلده شوكة ، أو يدخل فى قدمه مسمار . . كذلك أى تصرف صغير يوجعه بنفس الدرجة .

وكلما كان الإنسان قويا كانت الأشياء الصغيرة التى تضايقه أو توجعه ذات أثر عنيف على غيره من الناس . فلو فرضنا أن شخصا هاما قال عنك : إن دمك ثقيل . فمعنى ذلك أن فى استطاعته أن يحرمك من أشياء كثيرة وأن يفضل عليك كثيرا من الناس ، وربما أدى هذا التصرف إلى تعطيل تقدمك ، أو إلى لخبطة حياتك كلها . . هذا ممكن ، ولابد أن يكون قد حدث ألوف المرات .

ولابد أن العبارة المشهورة التى تقول إن أنف كليوبطرة قد غير التاريخ معناها : أن كليوبطرة أو شفتيها أو نهديها ، أو قدميها أو قوامها كانت السبب فى هذه الحروب

الدموية بين الثلاثى : قيصر وأنطونيو وأكتافيو قبل الميلاد بأربعين سنة .

إنها أشياء صغيرة أدت إلى حوادث كبيرة . .

وكذلك هيلين حسناء اليونان هى التى ادت إلى حرب طروادة منذ ثلاثين قرنا . . واستمرت خمسة وعشرين عاما . . وأصر زوج هيلين على استردادها من الرجل الذى خطفها . وعاد بها وهى عجوز فى الستين . . أما أجمل ملامح هيلين فيقال شفتها العليا . . ومن أجل هذه الشفة العليا سالت الدماء . ومات الألوف .

ومنذ مائة سنة يقال إن المستشار الألمانى بسمارك قد نشر برقية تدل على أن السفير الفرنسى قد أهين فى حضرة الامبراطور الألمانى . هذه الإهانة أثارت فرنسا ، فنشبت الحرب السبعية .

ويقال إن الحرب العالمية الأولى قد جاءت لأن أحد أمراء النمسا قد قتل فى يوغوسلافيا .

ومن الأسباب المضحكة لقيام إحدى الحروب أن ضابطا إنجليزيا وقع فى أيدى الأسبان فقطعوا أذنه . الضابط اسمه جنكينز . وعرضت هذه الإهانة على البرلمان الإنجليزى فقامت الحرب البحرية بين انجلترا وأسبانيا فيما بين عامى ١٧٣٩ و ١٧٤١ . . والسبب هو إحدى أذنى ضابط سكران .

والمثل الذى يقول : النواة تسند الزير ، معناه أن هذا الزير إذا سحبنا من تحته النواة الصغيرة فإنه يقع . . إنها إذن الأشياء الصغيرة التى تسند الأجسام الكبيرة ، وفى نفس الوقت توقعها وتوقع بينها وبين الناس . . .

فليست الأشياء الكبيرة هى السبب فى عذاب الناس ، أو تعذيب الناس للناس ، إنها الأشياء التافهة – لأننا تافهون فى كثير من الأحيان .

وفى إحدى قصائد الشاعر اليونانى المعاصر كازانتزاكس يقول : عندما اقتربت

من الآلهة وجدتهم يتحدثون كلاماً فارغًا . . ووجدتهم يلعبون فى الرمال . . وبعضهم وجدته يلتقط الطيور من السماء ويحولها إلى طوب يرمى به بقية الآلهة !

إن الشاعر يريد أن يقول : لا تتصور أن الكبار كبار ، إنهم صغار أيضاً . . بل أفكارهم صغيرة . . هذيان . . عبث . .

أذكر أن سيدة سألت زوجها فى أحد الأيام : قل لى يا حبيبى لماذا تزوجتنى ؟!

فقال : ولا تقولين إننى تافه .

قالت : لن أقول . .

قال : أنت تعلمين أننى تعلمت فى بريطانيا . . أحب الشاى بلا سكر . . وأحبه أن يكون ثقيلاً . ويوم زرتكم طلبت منك أن أشرب كوباً من الشاى . . وكان ذلك امتحاناً لك . .

قالت : هـ . . ثم ماذا ؟

قال : وجاء الشاى وكان مضبوطاً جدا . . ثقيل وسكره قليل ! هذا الذى أعجبنى فيك . . ولذلك . .

قالت : تزوجتنى .

قال : نعم .

قالت : أقول لك الحقيقة ولا تغضب .

قال : لن أغضب .

قالت : فى ذلك اليوم إجازة الخادمة . . فدخلت المطبخ لأول مرة . لم أجد إلا القليل من الشاى والسكر . . ومن هذا القليل صنعت لك الشاى . . ألا ترى أنك تزوجتنى لأسباب تافهة . . هاها . . هاها

وأذكر أننى سافرت فى إحدى الطائرات الألمانية . . وفى الطائرة بهرتنى فتاة

جميلة . . وكذلك كل الحاضرين . سألنى جارى : ما رأيك ؟ قلت : رائعة . هل نعرف لماذا هى لا تنظر لأحد . . لأن لديها إحساساً أكيداً بأن شكلها الجانبى جميل . . جبهتها وأنفها وشفتاها وعنقها وصدرها وخصرها وساقها الواحدة فوق الأخرى . . رائعة . . القوام والجمال والدلال . . تحفة . . إنها نموذج للجمال الألمانى . .

وكان ذلك رأى الجميع . ولكن واحداً منا تسلل إلى جانبها . . وكما يحدث فى الطائرات فالناس يشعرون بأنهم أسرة صغيرة . . يحيط بهم قلق واحد . . ولذلك فحاجتهم إلى الأمان تبدأ بارتفاع الطائرة عن الأرض . . وتحدث إليها . وفوجىء بأنها مصرية ، وصرخ : مصيبة لقد سمعت كل ما قلناه عنها . . إنها مصرية !

وشعرنا بشىء من الخجل بقدر ما شعرت هى بالامتنان . . فلم نقل أكثر من أنها جميلة . . وإلا أنها مفاجأة لنا . فلم نكن نتصور أن فى مصر جميلات . . وأكدت لنا أنها مصرية . .

ثم قالت : أنت تقول إننى لا أدير رأسى يميناً ولا شمالاً لأننى أحس بأن المنظر الجانبى لرأسى وجسمى هو الأجمل . . ولكن الحقيقة مضحكة . . فالماء قد انقطع فى بيتنا . ولم أجد ماء أغسل به وجهى إلا الماء البارد . . وهذا الماء البارد قد جعل عنقى متصلباً . . هاها . . هاها . .

ثم قالت : هل أقول لك شيئاً آخر دون أن تغضب . . لم أكن أتصور أن أناساً كباراً يفرحون بهذه الأشياء الصغيرة . . إنهم كالأطفال قد رأوا ظلطة ملونة . أو غطاء زجاجة . . أو كرة . . ولكن يبدو أن الرجل ليس إلا طفلاً صغيراً جداً وأجمل ما فى الدنيا طفل . . صغير أو كبير . .

قلت : وأجمل أيضاً أن يحاول الصغير أن يكون كبيراً . . والجميلة أن تكون فيلسوفاً . . لا تحاولى أن تقولى أو تفعلى . . فالذى تقولين لا يرقى إلى مستوى ما قاله الله فى عينيك وشفتيك . . فلا تؤاخذينى إننى أنظر إليك ولكن لا أرى إلا ما صوره ولحنه وأذاعه الله فى خلاياك . . ! □

كتب للمؤلف

(ا) مقالات :

(ب) قصص :

(ج) دراسات

٤٠ ـ الذين عادوا إلى السماء
٤١ ـ أرواح وأشباح
٤٢ ـ القوى الخفية
٤٣ ـ لعنة الفراعنة
٤٤ ـ أوراق على شجر
٤٥ ـ فى السياسة (جزءان)
٤٦ ـ وكانت الصحة هى الثمن
٤٧ ـ ألوان من الحب..
٤٨ ـ اظافرها الطويلة

(د) ترجمة ذاتية :

٤٩ ـ طلع البدر علينا
٥٠ ـ فى صالون العقاد : كانت لنا أيام
٥١ ـ قالوا
٥٢ ـ ..إلا قليلا

(هـ) رحلات :

٥٣ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم (الحائز على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٣)
٥٤ ـ بلاد الله خلق الله
٥٥ ـ اليمن.. ذلك المجهول
٥٦ ـ أطيب تحياتى من موسكو
٥٧ ـ غريب فى بلاد غريبة
٥٨ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات :

٥٩ ـ مدرسة الحب
٦٠ ـ الأحياء المجاورة
٦١ ـ حلمك يا شيخ علام
٦٢ ـ جمعية كل واشكر
٦٣ ـ مين قتل مين ؟
٦٤ ـ سلطان زمانه
٦٥ ـ العبقرى
٦٦ ـ كلام لك ياجارة
٦٧ ـ ترجمة «رومولوس العظيم» تأليف ديرنمات
٦٨ ـ ترجمة «هبط الملاك فى بابل» تأليف ديرنمات
٦٩ ـ ترجمة «الشهاب» تأليف ديرنمات
٧٠ ـ هى وعشاقها تأليف ديرنمات
٧١ ـ ترجمة «أمير الأراضى البور» تأليف ماكس فريش
٧٢ ـ ترجمة «من أجل سواد عينيها» تأليف جيرودو
٧٣ ـ ترجمة «بعد السقوط» تأليف أرثر ميللر
٧٤ ـ ترجمة «فوق الكهف» تأليف تنسى وليامز
٧٥ ـ ترجمة «الامبراطور جونز» تأليف يوجن أونيل

رقم الإيداع		١٩٨٣ / ٥٢٤٦
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠٢٣٩-٣	ISBN

٢ / ٨٣ / ٥٦٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

كل ما تقع عليه العين : فكرة.. تجربة.. نداء.. إنذار. وكل ما تقع عليه العين تهتدى إليه الأذن وتستدرج بقية الحواس.. إن فلاسفة الإغريق وشعراءهم كانوا يضعون الأحجار على آذانهم وبالقرب من عيونهم، ويستمعون إلى حكمة الحياة التى أودعها الله فى كل ما خلق ومن خلق..

إن كاتبنا الكبير أنيس منصور له أصابع تشبه الأجهزة الدقيقة للفيديو والكاسيت. فلا يكاد يقربها من الأشياء حتى يكون لها صوت وصورة.. وهو لا يغفل ولا ينام عن سماع كل ما يدور فى نفسه ونفوس الآخرين، وبين الأشياء والناس..

وكل شيء ليس صغيرا، إنه يبدو صغيرا.. تماما مثل قطرة من المحيط.. إنها تبدو صغيرة، ولكن فى هذه القطرة كل خصائص مياه المحيطات..

إن قراءة ما يكتبه كاتبنا الكبير أنيس منصور : فائدة ومتعة، وكنوز من جمال الأدب وحساسية الفن وضوء العلم.

وأنيس منصور حاصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٣ وجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٨٢ وأول عربى يحصل على جائزة « التأليف والإبداع » من البرلمان الهندى سنة ١٩٨٣.